إنّ الحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ، أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعَلَى آلِهِ وسَلَّمَ، وشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَمَنْ رَامَ الوُصُولَ فَعَلَيْهِ بِالأُصُولِ، ومَنْ حُرِمَ الأُصُولَ حُرِمَ الوُصُولَ، هَذِهِ قَاعِدَةُ القَوَاعِدِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَضَعَهَا فِي اعْتِبَارِهِ؛ لِأَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُؤَسِّسَ بِنَاءً قَوِيًّا فَلَا بُدَّ أَنْ يُؤَصِّلَ لَهُ أَصْلًا قَوِيًّا، فَكُلُّ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الأَصْلِ يَكُونُ قَائِمًا عَلَى مَا قَامَ عَلَيْهِ أَصْلُهُ، وفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} [التوبة : ١٠٩]

فَمَا أَحْوَجَ المُسْلِمَ أَنْ يَقُومَ عَلَى تَأْصِيلِ نَفْسِهِ وتَأْسِيسِهَا عَلَى أَصْلِ الأُصُولِ وهُوَ العَقِيدَةُ الحَقَّةُ، تِلْكَ العَقِيدَةُ الَّتِي هِيَ بِمَثَابَةِ العُقْدَةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ حَلًّا ولَا انْفِكَاكًا، فَمَا سُمِّيَ عِلْمُ العَقِيدَةِ بِالعَقِيدَةِ إِلَّا لِكَوْنِهِ لَا يَقْبَلُ شَكًّا ولَا يَقْبَلُ تَرَدُّدًا.

فمَنْ شَكَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أُصُولِ العَقِيدَةِ كَفَرَ، مَنْ شَكَّ فِي وُجُودِ اللَّهِ كَفَرَ، ومَنْ شَكَّ فِي كُتُبِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى كَفَرَ؛ لِأَنَّ الشَّكَّ لَا يُقْبَلُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأُمُورِ، لِذَا يَنْبَغِي عَلَى المَرْءِ أَنْ يُؤَصِّلَ مُعْتَقَدَهُ عَلَى أَسَاسٍ سَلِيمٍ، وعَلَى أَصْلٍ أَصِيلٍ حَتَّى يَنْطَلِقَ فِي دِينِ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وصِحَّةُ المُعْتَقَدِ هِيَ طَرِيقُ سَلَامَةِ المَنْهَجِ، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُصَحِّحْ مُعْتَقَدَهُ لَنْ يَسْلَمَ لَهُ مَنْهَجُهُ، وعُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ كَانُوا يُقَعِّدُونَ لِكُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ ولِكُلِّ صَاحِبِ نِحْلَةٍ بَاطِلَةٍ، يَضَعُونَ فِي كُتُبِ العَقِيدَةِ مَا يُزِيلُ بِدْعَتَهُ ومَا يَرُدُّ نِحْلَتَهُ. والنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ لَمَّا دَعَا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى فِي أَوَّلِ مَا دَعَا، دَعَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ إِلَى صِحَّةِ المُعْتَقَدِ. فَكَانَ يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فِي أَوَّلِ دَعْوَتِهِ: "قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُفْلِحُوا"

"قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَدِينُ لَكُمْ بِهَا العَرَبُ والعَجَمُ جَمِيعًا"

فَلَمَّا صَحَّ مُعْتَقَدُ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، صَحَّتْ أَقْوَالُهُمْ وصَحَّتْ أَفْعَالُهُمْ وصَحَّتْ أَحْوَالُهُمْ، وصَارَ فِي دُنْيَا اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ لِدِينِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى قِيَامٌ ومَقَامٌ. ومَا أَحْوَجَ المُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الآوِنَةِ إِلَى أَنْ يُصَحِّحُوا مُعْتَقَدَاتِهِمْ فِي زَمَنِ الرويبِضاتِ الَّذِينَ تَجَرَّؤُوا لَا عَلَى فُرُوعِ الشَّرِيعَةِ وأَحْكَامِهَا العَمَلِيَّةِ، وإِنَّمَا تَجَرَّؤُوا عَلَى أُصُولِ الشَّرِيعَةِ وأَحْكَامِهَا العَقَدِيَّةِ، حَتَّى قَالَ مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وقَالَ مَنْ قَالَ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وقَالَ مَنْ قَالَ فِي مُعْتَقَدٍ لَا يَقْبَلُ شَكًّا، ولَا يَقْبَلُ تَنَازُعًا فَكَفَّرُوا مَنْ لَمْ يُكَفِّرْهُ اللَّهُ،

ومَنَعُوا مِنْ تَكْفِيرِ مَنْ كَفَّرَهُ اللَّهُ. هَذِهِ الرِّسَالَةُ هِيَ فِي أُمُورٍ هِيَ أَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ، وهِيَ رِسَالَةُ شَرْحِ ثَلَاثَةِ الأُصُولِ.

هَذِهِ الأُصُولُ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الحِسَابِ، والَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ السُّؤَالِ، يَوْمَ يَلْقَى العَبْدُ رَبَّهُ ذَا الجَلَالِ والإِكْرَامِ، وأَصْلُهَا رِسَالَةٌ لَطِيفَةٌ لِشَيْخِ الإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وشَرَحَهَا عَلَّامَةُ الزَّمَانِ الإِمَامُ الهُمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ العُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً، وأَلْحَقَهُ بِالنَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ، وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.

فَتَعَالَوْا بِنَا نَطُوفُ ونَتَجَوَّلُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ المَاتِعَةِ الَّتِي هِيَ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُؤَصِّلَهَا، ومِنَ العُلُومِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا.

ونَبدَأُ فِيهَا بِتَعْرِيفِ مُصَنِّفِ الرِّسَالَةِ وبِتَعْرِيفِ شَارِحِهَا عَلَيْهِمَا رَحْمَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى: فَأَمَّا صَاحِبُ الرِّسَالَةِ فِي أَصْلِهَا فَهُوَ شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ.

اسْمُهُ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ رَاشِدِ بْنِ بُرَيْ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُشَرِّفِ بْنِ عُمَرَ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَهُوَ تَمِيمِيٌّ. وُلِدَ هَذَا العَالِمُ فِي بَلْدَةِ العُيَيْنَةِ سَنَةَ خَمْسَةَ عَشْرَ وأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وسَلَّمَ، وقَدْ وُلِدَ فِي بَيْتِ عِلْمٍ وشَرَفٍ ودِينٍ. فَأَبُوهُ عَالِمٌ كَبِيرٌ، وجَدُّهُ سُلَيْمَانُ عَالِمُ نَجْدٍ فِي زَمَانِهِ.

وهَذَا هُوَ الأَصْلُ: ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، فَالْأَصْلُ يُنْتِجُ عَنْهُ فَرْعَهُ. فَإِذَا طَابَ الأَصْلُ طَابَ فَرْعُهُ. وأَمَّا مَنْ شَذَّ مِمَنْ شَذَّ، فَخَرَجَ الفَرْعُ عَلَى خِلَافِ الأَصْلِ، فَلَيْسَتْ هَذِهِ قَاعِدَةً يُقَعَّدُ عَلَيْهَا ولَيْسَتْ هَذِهِ طَرِيقَةً يُحْتَجُّ بِهَا.

لِذا يَنْبَغِي عَلَى المَرْءِ أَنْ يُقِيمَ نَفْسَهُ حَتَّى يَقُومَ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ مِنْ وَلَدِهِ ووَلَدِ وَلَدِهِ. وهَذَا نَجِدُهُ فِي الأَئِمَّةِ لَمَّا أَقَامُوا أَنْفُسَهُمْ أَقَامَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ. فَخَرَجَ أَحْمَدُ بْنُ تَيْمِيَّةَ الحَرَّانيّ شَيْخُ الإِسْلَامِ وإِمَامُ الزَّمَانِ فِي عَصْرِهِ مِنْ ذُرِّيَّةٍ صَالِحَةٍ مِنْ عَالِمٍ بَعْدَ عَالِمٍ، فَأَبُوهُ عَالِمٌ وجَدُّهُ عَالِمٌ، وأُمُّهُ وجَدَّتُهُ كَانَتا لَهُمَا فِي العِلْمِ نَصِيبٌ وحَظٌّ.

شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ نَشَأَ نَشْأَةً أَهَّلَتْهُ لِمَا صَارَ إِلَيْهِ، فَقَدْ حَفِظَ القُرْآنَ قَبْلَ بُلُوغِ عَشْرِ سِنِينَ، ودَرَسَ فِي الفِقْهِ حَتَّى نَالَ حظًا وأَثَرًا، وكَانَ مَوْضِعَ الإِعْجَابِ مِنْ وَالِدِهِ لِقُوَّةِ حِفْظِهِ. وهُنَا مَلْحظٌ أَنَّ الوَلَدَ فِي صِغَرِهِ يُدْفَعُ إِلَى حِفْظِ القُرْآنِ الكَرِيمِ؛ لِأَنَّ ذَاكِرَتَهُ تَقْبَلُ ذَلِكَ وتُقْبِلُ عَلَيْهِ، وقَدْ لَا يَصْلُحُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ فِي تَعَلُّمِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ، وإِنَّمَا يَصْلُحُ فِي حِفْظِ القُرْآنِ. ولَكِنْ إِذَا بَلَغَ البَالِغُ فَأَرَادَ أَنْ يَتَعَلَّمَ، فَمِنَ الخَطَأِ أَنْ يُسَاقَ إِلَى حِفْظِ القُرْآنِ قَبْلَ تَعَلُّمِ المُعْتَقَدِ، لِأَنَّهُ لَمَّا تَمَّ بُلُوغُهُ صَارَ مُكَلَّفًا، والمُكَلَّفُ قَدْ يَلْقَى اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى فِي أَيِّ وَقْتٍ فَيُسْأَلُ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْ مُعْتَقَدِهِ.

فَلَوْ أَتَمَّ القُرْآنَ حِفْظًا ولَمْ يَكُنْ قَدْ صَحَّ لَهُ مُعْتَقَدُهُ، هَذَا قَدْ لَا يُنْجِيهِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، فَكَمْ مِنْ حَافِظٍ لِلْقُرْآنِ وهُوَ مُتَوَرِّطٌ فِي أُمُورٍ شِرْكِيَّةٍ، وهُوَ قَدْ تَوَرَّطَ فِي فِرْقَةٍ ضَالَّةٍ ونِحْلَةٍ مُنْحَرِفَةٍ، وقَدْ وَقَعَ إِلَى أذَانابِه فِي البِدَعِ وهُوَ لَا يَدْرِي.

فَحِينَ نَنْظُرُ فِي شَأْنِ شَيْخِ الإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، نَجِدُ أَنَّهُ دُفِعَ إِلَى حِفْظِ القُرْآنِ قَبْلَ بُلُوغِ عَشْرِ سِنِينَ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ دُفِعَ إِلَى دِرَاسَةِ العِلْمِ فَدَرَسَ فِي الفِقْهِ حَتَّى نَالَ حَظًّا وَافِرًا، وكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ مَوْضِعَ الإِعْجَابِ مِنْ وَالِدِهِ لِقُوَّةِ حِفْظِهِ، وكَانَ كَثِيرَ المُطَالَعَةِ فِي كُتُبِ التَّفْاسِيرِ والحَدِيثِ، وجَدَّ فِي طَلَبِ العِلْمِ لَيْلًا ونَهَارًا، فَكَانَ أَحْفَظَ المُتُونِ العِلْمِيَّةِ فِي شَتَّى الفُنُونِ، ورَحَلَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فِي ضَوَاحِي نَجْدٍ، وفِي مَكَّةَ وقَرَأَ عَلَى عُلَمَائِهَا. وهَكَذَا أَهْلُ العِلْمِ فِي الرِّحْلَةِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى المَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ فَقَرَأَ عَلَى عُلَمَائِهَا، ومِنْهُمُ العَلَّامَةُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الشِّمَّرِيُّ، كَمَا قَرَأَ عَلَى ابْنِهِ الفَرَضِيّ أَيِ العَالِمِ بِالفَرِيضَةِ وهُوَ الشَّهِيرُ إِبْرَاهِيمُ الشِّمَّرِيُّ مُؤَلِّفُ "العَذْبِ الفَائِضِ فِي شَرْحِ أَلْفِيَّةِ الفَرَضِيّ".

وعَرَفَاهُ حِينَئِذٍ للمُحَدِّثِ الشَّهِيرِ مُحَمَّدِ حَيَاةِ السَّنْدِيّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ فِي عِلْمِ الحَدِيثِ ورِجَالِهِ، وأَجَازَهُ بِالأُمَّهَاتِ - والصَّوَابُ وأَجَازَهُ بِالأُمَّاتِ - لِأَنَّ الأُمَّهَاتِ تُقَالُ بِالنِّسْبَةِ لِلْأُمِّ لِوَلَدِهَا الأُمَّهَاتُ هَذِهِ مُسَمَّى الأُمَّهَاتِ لِلْأَوْلَادِ.

وأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْكُتُبِ فَأُصُولُ الكُتُبِ لَا تُسَمَّى بِالأُمَّهَاتِ، ولَكِنْ تُسَمَّى بِالأُمَّاتِ: أُمَّاتُ الكُتُبِ أَيْ أُصُولُ الكُتُبِ العِظَامِ.

وكَانَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ وهَبَهُ اللَّهُ فَهْمًا ثَاقِبًا وذَّكَاءً مُفْرِطًا، فَأَكَبَّ عَلَى المُطَالَعَةِ والبَحْثِ والتَّأْلِيفِ، وكَانَ يُثْبِتُ مَا يَمُرُّ عَلَيْهِ مِنَ الفَوَائِدِ أَثْنَاءَ القِرَاءَةِ والبَحْثِ. وهَذِهِ طَرِيقَةُ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَفِعَ مِنْ تَطْوَافِهِ فِي طَيَّاتِ الكُتُبِ أَنْ يُقَيِّدَ الفَوَائِدَ؛ لِأَنَّ الفَائِدَةَ إِذَا لَمْ تُقَيَّدْ يَصْعُبُ عَلَى المَرْءِ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا بَعْدَ فَوَاتِهَا.

وكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يَسْأَمُ مِنَ الكِتَابَةِ، وقَدْ خَطَّىٰ كُتُبًا كَثِيرَةً مِنْ مُؤَلَّفَاتِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وابْنِ القَيِّمِ رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى. وكَمَا قَالَ عُلَمَائُنا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ: "العِلْمُ صَيْدٌ والكِتَابَةُ قَيْدُهُ" يَعْنِي العِلْمُ كَالصَّيْدِ وتَثْبِيتُهُ بِالكِتَابَةِ. ولَا تَزَالُ بَعْضُ المَخْطُوطَاتِ الثَّمِينَةِ بِقَلَمِهِ السَّيَّالِ مَوْجُودَةً بِالمَتَاحِفِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ولَمَّا تُوُفِّيَ وَالِدُهُ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وخَمْسِينَ ومِئَةٍ وأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، أَخَذَ يُعْلِنُ جِهَارًا بِالدَّعْوَةِ السَّلَفِيَّةِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وإِنْكَارِ المُنْكَرِ، ويُهَاجِمُ المُبْتَدِعَةَ أَهْلَ الأَوْثَانِ والأَصْنَامِ، وقَدْ شَدَّ أَزْرَهُ الوُلَاةُ مِنْ آلِ سُعُودٍ وقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ وذَاعَ خَبَرُهُ.

وهُنَا مَلْحَظٌ أَنَّهُ كَانَ يُرَاعِي وُجُودَ وَالِدِهِ فِي إِنْكَارِهِ حَتَّى لَا يَقَعَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحْلَاهُمَا مُرٌّ، حَتَّى لَا يَقَعَ فِي مُخَالَفَةِ وَالِدِهِ والتَّجَرُّؤِ عَلَيْهِ فِي رَفْضِ أَمْرِهِ

ونَهْيِهِ، فَأَسَرَّ بِذَلِكَ ولَمْ يُجْهِرْ بِهِ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهَذَا مِنَ الفِقْهِ فِي أُمُورِ الشَّرِيعَةِ أَنْ يُرَاعِيَ المَرْءُ مَا حَوْلَهُ مِمَّنْ قَدْ يُوَاجِهُهُ بِمَا لَا يَقْوَى عَلَيْهِ، فَيَسْكَتُ عَنْ بَعْضِ الأُمُورِ رِعَايَةً لِدَفْعِ مُوَاجَهَةٍ لَا يَقْوَى عَلَيْهَا أَوْ يَتَوَرَّطُ فِي مَحْذُورٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَدْفَعَهُ.

وَلَهُ مُؤَلَّفَاتٌ نَافِعَةٌ نَذْكُرُ مِنْهَا:

"كِتَابُ التَّوْحِيدِ" وكِتَابُ "كَشْفِ الشُّبُهَاتِ" كِتَابُ "الكَبَائِر" وكِتَابُ "ثَلَاثَة الأُصُولِ" وكِتَابُ "مُخْتَصَر الإِنْصَافِ والشَّرْحِ الكَبِيرُ" وكِتَابُ "مُخْتَصَر زَادِ المَعَادِ"

وَلَهُ فَتَاوَى ورَسَائِلُ جُمِعَتْ بِاسْمِ مَجْمُوعَةِ مُؤَلَّفَاتِ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ قَامَ عَلَيْهَا إِشْرَافًا جَامِعَةِ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سُعُودٍ.

تُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَامَ ستٍّ ومئتَين وأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فَرَحِمَهُ اللَّهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وجَزَاهُ عَنِ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ خَيْرَ الجَزَاءِ إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ، والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ وصَلَّى اللَّهُ وسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

ما أَحْوَجَ المَرْءَ أَنْ يَقْرَأَ فِي سِيَرِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّ ابْنَ الجَوْزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَحْكِي عَنْ نَفْسِهِ يَقُولُ: "وَجَدْتُ لِنَفْسِي إِقْدَامًا فِي طَلَبِ العِلْمِ، إِحْجَامًا عَنِ العَمَلِ بِهِ. فَقُلْتُ: يَا نَفْسُ مَا هَكَذَا كَانَ شَأْنَ الصَّالِحِينَ، ومَا كَانَ هَذَا شَأْنَ

عُلَمَاءِ أُمَّةِ النَّبِيِّ الأَمِينِ ﷺ؟ مَا لَكِ إِذَا دُفِعْتِ إِلَى العِلْمِ أَقْبَلْتِ، وإِذَا دُفِعْتِ إِلَى العَمَلِ تَبَاطَأْتِ؟ فَأَخَذْتُ أفكرُ فَرَأَيْتُ أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ بُعْدِي عَنِ النَّظَرِ فِي سِيَرِ الصَّالِحِينَ.

فَأَقْبَلْتُ نَظَرًا فِي سِيَرِ الصَّالِحِينَ: "أَتَفَقَّدُ أَحْوَالَهُمْ وأَقِفُ عَلَى آثَارِهِمْ، وأَنْظُرُ فِي أَعْمَالِهِمْ وأَقُومُ عَلَى مَقَامَاتِهِمْ، فَوَجَدْتُ أَمْرًا لَا بُدَّ مِنَ التَّسَابُقِ، والتَّنَافُسِ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَدَفَعَنِي ذَلِكَ إِلَى العَمَلِ بَعْدَ تَبَاطُؤٍ وتَلَكُّؤٍ.

فَمَا أَحْوَجَنَا إِلَى النَّظَرِ فِي سِيَرِ عُلَمَائِنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ.

وهَذَا شَيْخُ الإِسْلَامِ فِي العَصْرِ الحَدِيثِ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ العُثَيْمِينُ رَحِمَهُ اللَّهُ، كَانَ مِنَ المُجَدِّدِينَ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: "يَبْعَثُ اللَّهُ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ عَامٍ مَنْ يُجَدِّدُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ أَمْرَ دِينِهَا".

وكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى مُجَاهِدًا فِي كُلِّ أَبْوَابِ العِلْمِ، وقَدْ جَعَلَ لِلسُّنَّةِ ولِمُعْتَقَدِهَا ولِلْفِقْهِ وأُصُولِهِ ولِلتَّفْسِيرِ وعُلُومِهِ، جَعَلَ لَهُمَا مَا يُؤَسَّسُ عَلَيْهِ طَالِبُ العِلْمِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ فِي العِلْمِ سَيْرًا حَثِيثًا رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي زَمَانٍ قَلَّ مَنْ تَصَدَّى لِهَذِهِ المَسَائِلِ وأَصَّلَهَا وشَرَحَهَا ونَقَّحَهَا، فَرَحِمَهُ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ.

وهُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُثَيْمِينَ الوُهَيْبِيُّ التَّمِيمِيُّ.

مَوْلِدُهُ: وُلِدَ فِي مَدِينَةِ عُنَيْزَةَ فِي السَّابِعِ والعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ المُبَارَكِ عَامَ سَبْعٍ وأَرْبَعِينَ وثَلَاثِمِئَةٍ وأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

نَشْأَتُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَرَأَ القُرْآنَ الكَرِيمَ عَلَى جَدِّهِ مِنْ جِهَةِ أُمِّهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُلَيْمَانَ آلِ دَامِغٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فَحَفِظَهُ، ثُمَّ اتَّجَهَ إِلَى طَلَبِ العِلْمِ فَتَعَلَّمَ الخَطَّ والحِسَابَ وبَعْضَ فُنُونِ الآدَابِ.

وكَانَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ أَقَامَ اثْنَيْنِ مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ عِنْدَهُ لِيَدَرُّسَا لِلطَّلَبَةِ الصِّغَارِ: الشَّيْخُ عَلِيُّ الصَّالِحِي والشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ المُطَوِّعِ رَحِمَهُ اللَّهُ

قَرَأَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ مخْتَصَرَ العَقِيدَةَ الوَاسِطِيَّةَ لِلشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ، ومِنْهَاجُ السَّالِكِينَ فِي الفِقْهِ لِلشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَيْضًا، والآجُرُّومِيَّةَ والأَلْفِيَّةَ.

مِيزَةُ القِرَاءَةِ فِي طَلَبِ العِلْمِ أَنَّهُ يُصَحِّحُ لَهُ اللَّفْظَ، ويُوَضِّحُ لَهُ اللَّحْنَ، ويُقِيمُهُ عَلَى المُشْكِلِ مِمَّا يَقْرَؤُهُ، فَعَرْضُ العِلْمِ عَلَى أَهْلِ العِلْمِ مِنْ طُرُقِ التَّحْدِيثِ وطُرُقِ التَّحَمُّلِ الَّتِي هِيَ طَرِيقَةٌ مُعْتَبَرَةٌ عِنْدَ عُلَمَائِنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ.

وقَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَوْدَانَ فِي الفَرَائِضِ والفِقْهِ، وقَرَأَ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرٍ السَّعْدِيِّ الَّذِي يُعْتَبَرُ شَيْخَهُ الأَوَّلَ حَيْثُ لَازَمَهُ، وقَرَأَ عَلَيْهِ التَّوْحِيدَ، والتَّفْسِيرَ والحَدِيثَ، والفِقْهَ وأُصُولَ الفِقْهِ.

فَقَرَأَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الفَرَائِضِ والفِقْهِ والتَّفْسِيرِ والحَدِيثِ والفِقْهِ وأُصُولِهِ ومُصْطَلَحِ الحَدِيثِ والنَّحْوِ والصَّرْفِ.

وكَانَ لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ عِنْدَ شَيْخِهِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَعِنْدَمَا انْتَقَلَ وَالِدُ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى الرِّيَاضِ إِبَّانَ أَوَّلِ تَطَوُّرِهِ، رَغِبَ فِي أَنْ يَنْتَقِلَ مَعَهُ وَلَدُهُ وهُوَ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ، فَكَتَبَ لَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُ، نُرِيدُ مُحَمَّدًا نُرِيدُهُ أَنْ يَمْكُثَ هُنَا حَتَّى يَسْتَفِيدَ.

وهَذَا مِنْ حِرْصِ العَالِمِ عَلَى طَالِبِهِ أَنَّهُ يُزَوِّدُهُ ويُحِيطُهُ ويَمْنَعُهُ مِنْ بَعْضِ أُمُورٍ قَدْ تَضُرُّهُ وهُوَ لَا يَدْرِي.

فَمَا الَّذِي كَانَ يَصِيرُ إِلَيْهِ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ لَوْ صَارَ مَعَ أَبِيهِ وهَاجَرَ وتَرَكَ، هَلْ كَانَ يَسِيرُ الحَالُ عَلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ؟ لَا، لِأَنَّ وُجُودَ ابْنِ عُثَيْمِينَ مَعَ شَيْخِهِ وَفَّرَ لَهُ مَا صَارَ مِنْ خِلَالِهِ إِمَامًا فِي هَذَا العِلْمِ.

فَيَقُولُ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّنِي تَأَثَّرْتُ بِالشَّيْخِ السَّعْدِيِّ كَثِيرًا فِي طَرِيقَةِ التَّدْرِيسِ وعَرْضِ العِلْمِ وتَقْرِيبِهِ لِلطَّلَبَةِ بِالأَمْثِلَةِ والمَعَانِي، وكَذَلِكَ

أَيْضًا تَأَثَّرْتُ بِهِ مِنْ نَاحِيَةِ الأَخْلَاقِ لِأَنَّ الشَّيْخَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ عَلَى جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ الأَخْلَاقِ الفَاضِلَةِ.

وكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى قَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ العِلْمِ والعِبَادَةِ، وكَانَ يُمَازِحُ الصَّغِيرَ ويُضَاحِكُ الكَبِيرَ، وهُوَ مِنْ أَحْسَنِ مَنْ رَأَيْتُ أَخْلَاقًا. هَكَذَا يَقُولُ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ عَنْ شَيْخِهِ، وهَكَذَا تُؤَثِّرُ الأَفْعَالُ، مَا لَا تُؤَثِّرُهُ الأَقْوَالُ.

وفِي ذَلِكَ يَقُولُونَ: "مَنْ لَمْ يَنْفَعْكَ لَحْظُهُ فَلَنْ يَنْفَعْكَ وَعْظُهُ" لِأَنَّ فَاقِدَ الشَّيْءِ لَا يُعْطِيهِ، ولَا يَسْتَقِيمُ الظِّلُّ والعُودُ أَعْوَجُ.

فَلْيَتَنَبَّهْ مَنْ أَقَامَهُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى فِي مَقَامِ التَّعْلِيمِ والأَخْذِ والتَّوْجِيهِ أَنْ يَنْتَبِهُوا إِلَى أَفْعَالِهِمْ، وإِلَى أَخْلَاقِهِمْ، وإِلَى أَحْوَالِهِمْ، فَإِنَّهُمْ يُؤَثِّرُونَ فِي غَيْرِهِمْ، إِمَّا بِالسَّلْبِ وإِمَّا بِالإِيجَابِ.

وقَرَأَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى سَمَاحَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ بَازٍ حَيْثُ يُعْتَبَرُ شَيْخَهُ الثَّانِيَ، فَابْتَدَأَ عَلَيْهِ قِرَاءَةَ صَحِيحِ البُخَارِيِّ، وبَعْضَ رَسَائِلِ شَيْخِ الإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وبَعْضَ الكُتُبِ الفِقْهِيَّةِ. يَقُولُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: تَأَثَّرْتُ بِالشَّيْخِ عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ بَازٍ مِنْ جِهَةِ العِنَايَةِ بِالحَدِيثِ وتَأَثَّرْتُ بِهِ مِنْ جِهَةِ الأَخْلَاقِ أَيْضًا وبَسْطِ نَفْسِهِ لِلنَّاسِ.

وهَذِهِ لَيْسَتْ أَخْلَاقَهُم وإِنَّمَا هِيَ هَدْيُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ الَّذِي انْطَبَقَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ مَنْ طَالَعَ سِيرَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وَجَدَ أَنَّ هَذِهِ الأَخْلَاقَ

طَرَفًا مِنْ أَخْلَاقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ. فِي إِحْدَى وسَبْعِينَ وثَلَاثِمِئَةٍ وأَلْفٍ مِنَ الهِجْرَةِ جَلَسَ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ لِلتَّدْرِيسِ فِي الجَامِعِ، ولَمَّا فُتِحَتِ المَعَاهِدُ العِلْمِيَّةُ فِي الرِّيَاضِ الْتَحَقَ بِهَا عَامَ اثْنَيْنِ وسَبْعِينَ وثَلَاثِمِئَةٍ وأَلْفٍ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ. وهَكَذَا طَالِبُ العِلْمِ والسَّائِرُ إِلَى العِلْمِ لَا يَرْضَى بِحَالِهِ، وإِنَّمَا يَتَطَلَّعُ إِلَى المَعَالِي فِي الطَّلَبِ. وكَمَا قِيلَ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ: إِلَى مَتَى يَا إِمَامُ تَطْلُبُ العِلْمَ؟ فَقَالَ: "مَعَ المِحْبَرَةِ إِلَى المَقْبَرَةِ ومِنَ المَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ، ولَعَلَّ الكَلِمَةَ الَّتِي يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا لَمْ تَأْتِنِي بَعْدُ".

يَقُولُ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: دَخَلْتُ المَعْهَدَ العِلْمِيَّ مِنَ السَّنَةِ الثَّانِيَةِ والْتَحَقْتُ بِهِ بِمَشُورَةٍ مِنَ الشَّيْخِ عَلِيٍّ الصَّالِحِينَ وبَعْدَ أَنْ اسْتَأْذَنْتُ مِنَ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وكَانَ المَعْهَدُ العِلْمِيُّ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ خَاصٍّ وعَامٍّ، فَكُنْتُ فِي القِسْمِ الخَاصِّ. وكَانَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ أَيْضًا مَنْ شَاءَ أَنْ يَقْفِزَ كَمَا يُعَبِّرُونَ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَدْرُسُ السَّنَةَ المُسْتَقْبَلَ لَهُ فِي أَثْنَاءِ إِجَازَةٍ ثُمَّ يَخْتَبِرُهَا فِي أَوَّلِ العَامِ الثَّانِي، فَإِذَا نَجَحَ انْتَقَلَ إِلَى السَّنَةِ الَّتِي بَعْدَهَا، وبِهَذَا اخْتَصَرتُ الزَّمَانَ.

وهَكَذَا أَصْحَابُ الهِمَمِ يَصِلُونَ اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ، ويَقُومُونَ بِجُهْدٍ قَلَّ أَنْ يَقُومَ بِهِ غَيْرُهُمْ؛ لِأَنَّ الهِمَّةَ دَافِعٌ إِلَى تَخَطِّي الأُمُورِ الشَّاقَّةِ. الهِمَّةُ تَدْفَعُ المَرْءَ إِلَى

قَطْعِ الزَّمَانِ والتَّجَرُّؤِ عَلَى الأَهْوَالِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِلَ بِذَلِكَ إِلَى مَرْضَاةِ ذِي الجَلَالِ والإِكْرَامِ.

وبَعْدَ سَنَتَيْنِ تَخَرَّجَ الشَّيْخُ مِنَ المَعْهَدِ وعُيِّنَ مُدَرِّسًا فِي مَعْهَدِ عُنَيْزَةَ العِلْمِيِّ مَعَ مُوَاصَلَةِ الدِّرَاسَةِ انْتِسَابًا فِي كُلِّيَّةِ الشَّرِيعَةِ، ومُوَاصَلَةِ طَلَبِ العِلْمِ عَلَى يَدِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ. وهَذَا عَمَلًا بِحَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ." فَيجْمعُ بينَ التَّعَلُّمِ والتَّعْلِيمِ.

ولَمَّا تُوُفِّيَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، تَوَلَّى الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ إِمَامَةَ الجَامِعِ الكَبِيرِ بِعُنَيْزَةَ وتَوَلَّى التَّدْرِيسَ فِي مَكْتَبَةِ عُنَيْزَةَ الوَطَنِيَّةِ بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّدْرِيسِ فِي المَعْهَدِ العِلْمِيِّ، ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَى التَّدْرِيسِ فِي كُلِّيَّتي الشَّرِيعَةِ وأُصُولِ الدِّينِ بِفَرْعِ جَامِعَةِ الإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سُعُودٍ الإِسْلَامِيَّةِ بِالقَصِيمِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى عُضْوِيَّةِ هَيْئَةِ كِبَارِ العُلَمَاءِ بِالمَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السَّعُودِيَّةِ، والشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ لَهُ نَشَاطٌ كَبِيرٌ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ، وتَبْصِيرِ الدُّعَاةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وكَانَتْ لَهُ جُهُودٌ مَشْكُورَةٌ فِي هَذَا المَجَالِ.

وقَدْ تَكَلَّمَ سَمَاحَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ رَحِمَهُ اللَّهُ، تَكَلَّمَ مَعَ الشَّيْخِ وعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَوَلَّى القَضَاءَ، بَلْ أَصْدَرَ قَرَارَهُ بِتَعْيِينِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ رَئِيسًا لِلْمَحْكَمَةِ الشَّرْعِيَّةِ بِالإِحْسَاءِ، ولَكِنَّ الشَّيْخَ عَلَى عَادَةِ أَهْلِ العِلْمِ فِي البُعْدِ عَنِ القَضَاءِ والوِلَايَةِ طَلَبَ مِنْهُ الإِعْفَاءَ. وبَعْدَ مُرَاجَعَاتٍ واتِّصَالٍ شَخْصِيٍّ سَمَحَ

الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بِإِعْفَائِهِ مِنْ مَنْصِبِ القَضَاءِ. وهَكَذَا عُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ، جِيلٌ بَعْدَ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، يُعْرَضُ عَلَيْهِمُ الوِلَايَةُ ويُعْرَضُ عَلَيْهِمُ القَضَاءُ فَيَفِرُّونَ مِنْهُ، ويُعْرَضُ عَلَيْهِمُ الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ، وتَدْرِيسُ العِلْمِ فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ شَرَفٌ مَا بَعْدَهُ شَرَفٌ، وفَضْلٌ مَا بَعْدَهُ فَضْلٌ.وفَالدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ وتَعْلِيمُ النَّاسِ هِيَ إِرْثُ النُّبُوَّةِ، وهِيَ مُهِمَّةُ الأَنْبِيَاءِ والمُرْسَلِينَ.

الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَهُ مُؤَلَّفَاتٌ كَثِيرَةٌ تَبْلُغُ أَرْبَعِينَ مُؤَلَّفًا بَيْنَ كِتَابٍ ورِسَالَةٍ. هَذِهِ الكُتُبُ انْتَفَعَ بِهَا طُلَّابُ العِلْمِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ومَكَانٍ، وظَلَّتْ ذُخْرًا لِلأَوَّلِينَ والآخِرِينَ فِي دُنْيَا اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ. فَمَا أَحْوَجَنَا إِلَى أَنْ نَنْظُرَ فِي سِيَرِ عُلَمَائِنَا، وأَنْ نَقِفَ عَلَى أَخْبَارِهِمْ وأَحْوَالِهِمْ، حَتَّى نَتَأَثَّرَ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ ونَطْلُبَ مَا صَارُوا إِلَيْهِ، ونَجْتَهِدُ مَا اجْتَهَدُوا فِي تَحْصِيلِهِ.

اللَّهُمَّ أَرِنَا الحَقَّ حَقًّا وارْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ، وأَرِنَا البَاطِلَ بَاطِلًا وارْزُقْنَا اجْتِنَابَهُ.

هذِهِ بَيْتُ الأصِيلِ وهِيَ المَقْصِدُ، ومَا مَرَّ إِنَّمَا هُوَ مُقَدِّمَةٌ بَيْنَ أَيْدِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ "شَرْحُ ثَلَاثَةِ الأُصُولِ" مَا هِيَ هَذِهِ الأُصُولُ؟ ومَا هُوَ الوَاجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَقُومَ إِزَاءَهَا ومِنْ أَجْلِهَا؟

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"بِسْمِ اللَّهِ"**

"ابْتَدَأَ رَحِمَهُ اللَّهُ كِتَابَهُ بِالبَسْمَلَةِ اقْتِدَاءً بِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فَإِنَّهُ مَبدوءٌ بِالبَسْمَلَةِ، واتِّبَاعًا لِحَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: "كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا

يُبْدَأُ فِيهِ بِبسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَرُ". واقْتِدَاءً بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَبْدَأُ كُتُبَهُ بِالبَسْمَلَةِ"

هَذَا الحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهُوَ "كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِاسْمِ اللَّهِ فَهُوَ أَبْتَرُ" هَذَا الحَدِيثُ عَزَاهُ السُّيُوطِيُّ فِي الجَامِعِ الصَّغِيرِ لِلرَّهاوِي، وأَخْرَجَهُ الخَطِيبُ فِي الجَامِعِ، وقَدْ أُخْرِجَ الحَدِيثَ بِطُرُقٍ كَثِيرَةٍ وأَلْفَاظٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وهُوَ حَدِيثٌ اخْتَلَفَ العُلَمَاءُ فِي صِحَّتِهِ، فَمِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ صَحَّحَهُ، واعْتَمَدَهُ كَالنَّوَوِيِّ، ومِنْهُمْ مَنْ ضَعَّفَهُ، وهُوَ فِي المُنْتَهَى حَدِيثٌ ضَعِيفٌ.

والأَوْلَى الاحْتِجَاجُ بِمَا كَانَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ لَمَّا كَتَبَ إِلَى هِرَقْلَ، فَقَالَ: "بِسْمِ اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ"

فَالبَدْءُ بِالبَسْمَلَةِ هُوَ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ ومِنْ طَرِيقَتِهِ.

"والجَارُّ والمَجْرُورُ فِي ِاسْمِ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفِ فِعْلٍ مُؤَخَّرٍ مُنَاسِبٍ لِلْمَقَامِ تَقْدِيرُهُ: بِسْمِ اللَّهِ أَكْتُبُ، أَوْ بِسْمِ اللَّهِ أُصَنِّفُ، أَوْ بِسْمِ اللَّهِ أَبْدَأُ"

"وقُدِّرَ فِعْلًا لِأَنَّ الأَصْلَ فِي العَمَلِ الأَفْعَالُ" يَعْنِي الأَصْلَ فِي العَمَلِ أَنْ تَكُونَ مِنْ خِلَالِ الأَفْعَالِ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وقَدَّرْنَاهُ مُؤَخَّرًا لِفَائِدَتَيْنِ: الأولى: التَّبَرُّكُ بِالبُدَاءَةِ بِسْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى"** فاللَّهُ أَوَّلٌ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وهُوَ يُبْدَأُ بِذِكْرِ اسْمِهِ قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ.

"الثانية: إِفَادَةُ الحَصْرِ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ المُتَعَلِّقِ يُفِيدُ الحَصْرَ" يَعْنِي: أَبْدَأُ بِسْمِ اللَّهِ لَا بِغَيْرِهِ، أَبْدَأُ بِذِكْرِ اللَّهِ لَا بِذِكْرِ غَيْرِهِ.

قالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وقَدَّرْنَاهُ مُنَاسِبًا لِأَنَّهُ أَدَلُّ عَلَى المُرَادِ، فَلَوْ قُلْنَا مَثَلًا عِنْدَمَا نُرِيدُ أَنْ نَقْرَأَ كِتَابًا: بِسْمِ اللَّهِ نَبْتَدِئُ، مَا يُدْرَى بِمَاذَا نَبْتَدِئُ، ولَكِنْ بِسْمِ اللَّهِ أَقْرَأُ يَكُونُ أَدَلَّ عَلَى المُرَادِ الَّذِي ابْتُدِئَ بِهِ.**

"اللَّهُ" عَلَمٌ عَلَى البَارِي جَلَّ وعَلَا، وهُوَ الاسْمُ الَّذِي تَتْبَعُهُ جَمِيعُ الأَسْمَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢)} [ابراهيم : ١-٢]

لَا نَقُولُ إِنَّ لَفْظَ الجَلَالَةِ اللَّهُ صِفَةٌ، بَلْ نَقُولُ هِيَ عَطْفُ بَيَانٍ؛ لِئَلَا يَكُونُ لَفْظُ الجَلَالَةِ تَابِعًا تَبَعِيَّةَ النَّعْتِ لِلْمَنْعُوتِ." الأَسْمَاءُ جَمِيعُهَا حِينَ تُذْكَرُ تَبَعًا لِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى، وأَمَّا اسْمُ اللَّهِ العَلَمُ لَا يَأْتِي تَابِعًا وإِنَّمَا يَأْتِي مَتْبُوعًا.

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"

"الرَّحْمَنُ" اسْمٌ مِنَ الأَسْمَاءِ المُخْتَصَّةِ بِاللَّهِ عَزَّ وجَلَّ لَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ، والرَّحْمَنُ مَعْنَاهُ المُتَّصِفُ بِالرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ."

لابدَّ أن نَلحظَ هنا أنَّ المُصنِّفَ لَمَّا ابْتَدَأَ، ابْتَدَأَ بِقَوْلِهِ: **"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"**. هَلْ هَذِهِ تَكُونُ عِنْدَ كُلِّ بَدْءٍ؟ لَا، عِنْدَ الكِتَابَةِ نَقُولُ: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ". أَمَّا عِنْدَ الأَعْمَالِ بِخِلَافِ التَّصْنِيفِ والكِتَابَةِ، نَقُولُ: "بِسْمِ اللَّهِ". لِأَنَّ ذِكْرَ "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" إِنَّمَا قُرِنَ بِالمَكْتُوبَاتِ، وأَمَّا المَعْمُولَاتُ فِي التَّسْمِيَةُ يَكُونُ الذِّكْرُ "بِسْمِ اللَّهِ". حِينَما نَأْكُلُ نَقُولُ: "بِسْمِ اللَّهِ". حِينَما نَشْرَبُ نَقُولُ: "بِسْمِ اللَّهِ". حِينَما نَدْخُلُ الخَلَاءَ نَقُولُ: "بِسْمِ اللَّهِ". حِينَ يَأتي الرَّجُلُ أَهْلَهُ يَقُولُ: "بِسْمِ اللَّهِ".

وأَمَّا عِنْدَ الكِتَابَةِ لَا نَقُولُ: "بِسْمِ اللَّهِ" فَحَسْبُ، ولَكِنْ نَقُولُ: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ".

"الرَّحْمَنُ" اسْمٌ مِنَ الأَسْمَاءِ المُخْتَصَّةِ بِاللَّهِ عَزَّ وجَلَّ لَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ، والرَّحْمَنُ مَعْنَاهُ المُتَّصِفُ بِالرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ.

"الرَّحِيمُ" يُطْلَقُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ وعَلَى غَيْرِهِ، ومَعْنَاهُ ذُو الرَّحْمَةِ الوَاصِلَةِ." فَالرَّحْمَنُ ذُو الرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ، والرَّحِيمُ ذُو الرَّحْمَةِ الوَاصِلَةِ. **"فَإِذَا جُمِعَا صَارَ المُرَادُ بِالرَّحِيمِ المُوَصِّلَةَ رَحْمَتَهُ إِلَى مَنْ يَشَاءُ كَمَا قَالَ**

تَعَالَى: {يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ} [العنكبوت : ٢١]

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ بَدَأَ بِالتَّسْمِيَةِ: قَالَ **"اعْلَمْ"**. "اعْلَمْ" هُنَا إِمَّا عَلَى سَبِيلِ جَذْبِ الانْتِبَاهِ قَبْلَ الدُّخُولِ فِي الكَلَامِ، أَوْ عَلَى سَبِيلِ الأَمْرِ بِالعِلْمِ، وكَوْنُهَا كَذَلِكَ هِيَ تَكُونُ فِي أَفْضَلِ أَحْوَالِهَا. يَعْنِي "اعْلَمْ" هَذِهِ دَلَالَةٌ عَلَى طَلَبِ العِلْمِ وبِخَاصَّةٍ أَنَّهَا جَاءَتْ عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى. فَاللَّهُ عَزَّ وجَلَّ فِي أَمْرِ المُعْتَقَدِ قَالَ: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد : ١٩].

وبوَّبَ لَهَا البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بَابًا سَمَّاهُ: "بَابُ العِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ والعَمَلِ" فَأَفْضَلُ مَا تُحْمَلُ عَلَيْهِ هَذِهِ الكَلِمَةُ أَنْ تَكُونَ أَمْرًا بِالعِلْمِ؛ لِأَنَّ المُتَكَلَّمَ فِيهِ هُنَا هُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالعَقِيدَةِ، والنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ قَالَ: "ابْدَؤا بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ". واللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ لَمَّا بَدَأَ الكَلَامَ فِي أَمْرِ العَقِيدَةِ جَعَلَ فِي مُقَدِّمَتِهِ هَذَا الأَمْرَ: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ} [محمد : ١٩].

وعَلَى غِرَارِ ذَلِكَ صَارَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا هُوَ العِلْمُ؟

"العِلْمُ" هُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ إِدْرَاكًا جَازِمًا." يَعْنِي العِلْمُ هُوَ اليَقِينُ؛ لِأَنَّ إِدْرَاكَ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ إِدْرَاكًا جَازِمًا يُسَاوِي اليَقِينَ.

والعِلْمُ مَرَاتِبُ:أَعْلَاهُ اليَقِينُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ الظَّنُّ، ثُمَّ بَعْدَ الظَّنِّ الوَهْمُ، ثُمَّ بَعْدَ الوَهْمِ الشَّكُّ.

وهَذِهِ مَرَاتِبُ دَاخِلَ مَا يَكُونُ فِي ذِهْنِ الإِنْسَانِ. فَكُلُّ مَا يَجْرِي فِي ذِهْنِكَ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تُدْرَكُ بِالنَّظَرِ إِنَّمَا هِيَ عَلَى هَذِهِ المَرَاتِبِ السِّتَّةِ:

"الأُولَى العِلْمُ: وهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ إِدْرَاكًا جَازِمًا."

الثَّانِيَةُ ضِدُّ العِلْمِ: وضِدُّ العِلْمِ الجَهْلُ.

والجَهْلُ نَوْعَانِ: **"جَهْلٌ بَسِيطٌ: وهُوَ عَدَمُ الإِدْرَاكِ بِالكُلِّيَّةِ. الجَهْلُ المُرَكَّبُ: وهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى وَجْهٍ يُخَالِفُ مَا هُوَ عَلَيْهِ. "**

الرَّابِعَةُ الوَهْمُ: ومَرْتَبَةُ الوَهْمِ **"هُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ احْتِمَالِ ضِدٍّ رَاجِحٍ."**

الخَامِسَةُ الشَّكُّ: وهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ احْتِمَالٍ مُسَاوٍ.

السَّادِسُ الظَّنُّ: وهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ احْتِمَالِ ضِدٍّ مَرْجُوحٍ."

الشَّيْخُ هُنَا رَحِمَهُ اللَّهُ بَدَأَ بِالأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى. يَعْنِي مَرَاتِبُ العِلْمِ فِي مَا يَدُورُ دَاخِلَ الذِّهْنِ: إِمَّا لَا شَيْءَ وهَذَا هُوَ الجَهْلُ البَسِيطُ، وأَمَّا شَيْءٌ عَلَى خِلَافِ حَقِيقَتِهِ فَهَذَا هُوَ الجَهْلُ المُرَكَّبُ، وإِمَّا وَهْمٌ وهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ احْتِمَالِ ضِدٍّ رَاجِحٍ، وإِمَّا شَكٌّ وهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ احْتِمَالٍ مُسَاوٍ، وإِمَّا ظَنٌّ وهُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ مَعَ احْتِمَالِ ضِدٍّ مَرْجُوحٍ.

مِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلٌ مِنْ بَعِيدٍ، هَذَا الرَّجُلُ صِفَتُهُ، واسْمُهُ أَنَّهُ مُحَمَّدٌ ولَكِنْ يُشَابِهُ أَحْمَدَ. فَيَأْتِي مِنْ بَعِيدٍ فَيجْلِسُ جَمَاعَةً بِمَبْعَدَةٍ عَنْهُ، فَيسْأَلُ سَائِلًا: مَنِ الآتِي؟ فَيَقُولُ قَائِلٌ: الآتِي مُحَمَّدٌ. نَقُولُ لَهُ: أَمُتَأَكِّدٌ أَنْتَ؟ يَقُولُ: نَعَمْ. هَذِهِ مَرْتَبَةُ العِلْمِ؛ لِأَنَّهُ أَدْرَكَ الشَّيْءَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ إِدْرَاكًا جَازِمًا. وهَذِهِ أَعْلَى المَرَاتِبِ. حِينَما نَأْتِي بِمَا دُونَهَا مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى أَوْ مِنَ الأَعْلَى إِلَى الأَدْنَى، فَالْأَفْضَلُ أَنْ تُرَتَّبَ مِنَ الأَعْلَى إِلَى الأَدْنَى. فَأَعْلَى المَرَاتِبِ مَرَاتِبِ مَا يَكُونُ فِي الذِّهْنِ العِلْمُ، هُوَ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ عَلَى حَقِيقَتِهِ. فَيقَوْلُ قَائِلٍ: "هَذَا مُحَمَّدٌ" نَقُولُ لَهُ: أَمُتَأَكِّدٌ أَنْتَ؟ يَقُولُ: نَعَمْ هُوَ مُحَمَّدٌ. نَقُولُ لَهُ: لَعَلَّهُ يَكُونُ أَحْمَدَ. يَقُولُ: لَا، هُوَ مُحَمَّدٌ. فَهَذَا عِنْدَهُ عِلْمٌ؛ لِأَنَّهُ أَدْرَكَ الشَّيْءَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ إِدْرَاكًا جَازِمًا.

يَأْتِي الثَّانِي، يَقُولُ: أَظُنُّهُ مُحَمَّدًا. نَقُولُ: يَعْنِي أَنْتَ مُتَيَقِّنٌ؟ يَقُولُ: لَا، الرَّاجِحُ عِنْدِي، الغَالِبُ عِنْدِي أَنَّهُ مُحَمَّدٌ، وهُوَ فِعْلًا مُحَمَّدٌ. فَهَذَا ظَنٌّ، ولِكَوْنِهِ لَمْ يَدَّعِ فِيهِ اليَقِينَ، فَهُوَ ظَنٌّ لَا نَقُولُ يَقِينٌ، لَكِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى العِلْمِ، وهِيَ المَرْتَبَةُ الَّتِي بَعْدَ العِلْمِ.

يَقُولُ قَائِلٌ: "هَذَا إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدًا أَوْ أَحْمَدَ". هَذَا شَكٌّ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْطَعْ فِي المَسْأَلَةِ، وهَذَا أَقَلُّ يَعْنِي رُتْبَةً. الَّذِي بَعْدَهُ فِي الدُّنُوِّ حِينَما يَقُولُ: "هَذَا أَحْمَدُ"، نَقُولُ لَهُ: قَدْ يَكُونُ مُحَمَّدًا. يَقُولُ لَهُ: "هَذَا أَحْمَدُ". فَهَذَا وَاهِم، والَّذِي دَعَاهُ أَنْ قَالَ: "هَذَا أَحْمَدُ" لِوُجُودِ الشَّبَهِ. فَهَذَا وَاهْمٌ.

تَأْتِي المَرْتَبَةُ الَّتِي بَعْدَ ذَلِكَ، وهِيَ مَرْتَبَةُ الجَهْلِ. فَيَسْأَلُ أَحَدُ الجَالِسِينَ: مَنِ الآتِي؟ يَقُولُ: لَا أَدْرِي، لَا عِلْمَ لِي. فَهَذَا جَهْلٌ بَسِيطٌ. يَسْأَلُ آخَرُ، يُقَالُ لَهُ: مَنِ الآتِي؟ فَيَقُولُ: مُصْطَفَى. مَنِ الَّذِي أَتَى بِمُصْطَفَى هُنَا؟ لَمْ يَقُلْ أَحْمَدَ، ولَمْ يَقُلْ مُحَمَّدًا، وإِنَّمَا أَتَى بِأَمْرٍ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ. فَهَذَا جَهْلٌ مُرَكَّبٌ، بَلْ يَدَّعِي اليَقِينَ فِيهِ فَيَقُولُ: هُوَ مُصْطَفَى.

هَذَا المَثَلُ يُقَرِّبُ لَكَ مَرَاتِبَ الإِدْرَاكِ، وإِنْ شِئْتَ فَقُلْ يُرَتِّبُ لَكَ مَا يَجُولُ فِي الذِّهْنِ البَشَرِيِّ. وعَلَيْهِ، فَاقِسْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ قَدْرَ مَا عِنْدَكَ مِنَ العِلْمِ بِمَسْأَلَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فَاقِسْ عَلَى هَذَا المِثَالِ، تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْرِفَ مَنْ أَنْتَ فِي العِلْمِ فِي هَذَا البَابِ.

قَالَ الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"والعِلْمُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: ضَرُورِيٌّ ونَظَرِيٌّ. والضَّرُورِيُّ مَا يَكُونُ إِدْرَاكُ المَعْلُومِ فِيهِ ضَرُورِيًّا، بِحَيْثُ يُضْطَرُّ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ ولا اسْتِدْلَالٍ، كَالْعِلْمِ بِأَنَّ النَّارَ حَارَّةٌ."** هَذَا لَا يَحْتَاجُ إِعْمَالَ نَظَرٍ، لِأَنَّ مُجَرَّدَ الاقْتِرَابِ مِنْهَا يَدُلُّ عَلَى طَبِيعَتِهَا. فَهَذَا عِلْمٌ ضَرُورِيٌّ، يَعْنِي يَصِلُ إِلَيْهِ بِالضَّرُورَةِ، وكَأَنَّ الشَّمْسَ مُضِيئَةٌ، فَهَذَا يُتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِالضَّرُورَةِ.

"وأَمَّا العِلْمُ النَّظَرِيُّ، فَهُوَ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى نَظَرٍ واسْتِدْلَالٍ، كَالْعِلْمِ بِوُجُوبِ النِّيَّةِ فِي الوُضُوءِ"، لِأَنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ تَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةٍ بِشُرُوطِ صِحَّةِ الوُضُوءِ، والنَّظَرِ فِي أَقْوَالِ الفُقَهَاءِ. فَهَذَا عِلْمٌ نَظَرِيٌّ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ"**. "اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ" يَعْنِي: يَا رَحِمَكَ اللَّهُ أَوْ دُعَاءً بِأَنْ يَرْحَمَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ المُخَاطَبَ فِي هَذَا الأَمْرِ.

"رَحِمَكَ اللَّهُ" أَيْ أَفاضَ عَلَيْكَ مِنْ رَحْمَتِهِ الَّتِي تَحْصُلُ بِهَا عَلَى مَطْلُوبِكَ وتَنْجُو بِهَا مِنْ مَحْذُورِكَ ومَرْهُوبِكَ. فَالمَعْنَى: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِكَ، ووَفَّقَكَ وعَصَمَكَ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنْهَا. هَذَا إِذَا أُفْرِدَتِ الرَّحْمَةُ، أَمَّا إِذَا قُرِنَتْ بِالمَغْفِرَةِ، فَالمَغْفِرَةُ لِمَا مَضَى مِنَ الذُّنُوبِ، والرَّحْمَةُ والتَّوْفِيقُ لِلْخَيْرِ والسَّلَامَةِ مِنَ الذُّنُوبِ فِي المُسْتَقْبَلِ". فَفَرِّق بَيْنَ: "غَفَرَ اللَّهُ لَكَ" وبَيْنَ: "رَحِمَكَ اللَّهُ". فَغَفَرَ اللَّهُ لَكَ هَذَا فِيمَا مَضَى فِيمَا تَجَرَّأَ الإِنْسَانُ عَلَيْهِ، ووَقَعَ فِي مُخَالَفَتِهِ، فَهَذَا يُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى المَغْفِرَةُ. وأَمَّا إِذَا أَرَادَ التَّوْفِيقَ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ الرَّحْمَةَ، يَرْحَمُهُ، يُوَفِّقُهُ لِلْخَيْرِ، يَصْرِفُهُ عَنِ الشَّرِّ، وهَذِهِ تَكُونُ فِي المُسْتَقْبَلِ.

قَالَ الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وصَنِيعُ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يَدُلُّ عَلَى عِنَايَتِهِ وشَفَقَتِهِ بِالمُخَاطَبِ، وقَصْدِ الخَيْرِ لَهُ."** {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران : ١٥٩]

عَلَامَةُ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَّهُمْ بِالنَّاسِ رُحَمَاءُ. يَأْتِي إِلَيْهِمُ الآتِي وقَدْ تَوَرَّطَ فِيمَا تَوَرَّطَ مِنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ والذُّنُوبِ، فَيَلْقَاهُ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ، يُرَطِّبُ عَلَى قَلْبِهِ، يَفْتَحُ لَهُ بَابَ الرَّجَاءِ والرَّحْمَةِ. هَذَا هُوَ العَالِمُ الحَقُّ. وأَمَّا الَّذِي يُيَئِّسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ فَهَذَا لَيْسَ عَلَى هُدًى ولَا عَلَى بَصِيرَةٍ، لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى

مَا أَرْسَلَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، أَرْسَلَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ ظُلُمَاتِ الشِّرْكِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ، لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ ظُلُمَاتِ المَعْصِيَةِ إِلَى نُورِ الطَّاعَةِ. وهَكَذَا أَهْلُ العِلْمِ.

لِذَا ابْتَدَأَ رِسَالَتَهُ بِكَلَامٍ يُرَقِّقُ القُلُوبَ ويُهَدِّئُ النُّفُوسَ. **"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ"** مَا الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُعْلِمَ بِهِ. قَالَ: **"أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ: الأولى: العِلْمُ: وهُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ ومَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ومَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ."**

"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا" الوُجُوبُ هُنَا وُجُوبٌ عَيْنِيٌّ، يَعْنِي لَا مَنَاصَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَعَلَّمَ هَذِهِ العُلُومَ. هَذِهِ العُلُومُ لَيْسَتْ مِنَ التَّرَفِ، لَيْسَتْ مِنَ التَّرَفِ العِلْمِيِّ، وإِنَّمَا هِيَ فُرُوضٌ يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يُحَصِّلَهَا، ويَجِبُ عَلَى الأَبِ أَنْ يُرَبِّيَ وَلَدَهُ عَلَى هَذِهِ الأُسُسِ، لِأَنَّهَا الغَايَةُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ. مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَأْكُلَ النَّاسُ وأَنْ يَشْرَبُوا وأَنْ يَلْعَبُوا وأَنْ يَغْنَمُوا وأَنْ يَرْبَحُوا، وإِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِعِبَادَتِهِ. فَهَذِهِ العِبَادَةُ تَقُومُ عَلَى عِلْمٍ، يَعْنِي الجَاهِلُ لَا يُصْبِحُ مُؤَهَّلًا لِأَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ. لَا نَأْتِي بِرَجُلٍ جَاهِلٍ نَقُولُ لَهُ تَعَامَلْ مَعَ هَذَا المَرِيضِ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ طَبِيبًا. لَا نَأْتِي بِصَانِعٍ لَا عِلْمَ لَهُ بِصَنْعَةٍ ونَقُولُ لَهُ اصْنَعْ لَنَا حُجْرَةَ نُومٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى عِلْمٍ. هَكَذَا المُسْلِمُ، كَيْفَ يُحَقِّقُ المُسْلِمُ وُجُودَهُ فِي هَذِهِ الحَيَاةِ بِلَا عِلْمٍ؟ كَالسَائِرِ فِي طَرِيقٍ بِلَا بَصَرٍ ولَا قَائِدٍ يَقُودُهُ.

المَرِيضُ الأَعْمَى إِنْ وَجَدَ مَنْ يَقُودُهُ فَإِنَّهُ يَغْنَى بِقِيَادَتِهِ عَنْ بَصَرِهِ. وأَمَّا الَّذِي لَا قَائِدَ لَهُ ولَا بَصَرَ لَهُ كَيْفَ يَسِيرُ؟ هَكَذَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي دُنْيَا اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ يَسِيرُونَ فِي الحَيَاةِ بِلَا بَصِيرَةٍ وبِلَا قِيَادَةٍ، بِلَا بَصِيرَةٍ يُفَرِّقُونَ بِهَا بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ، وبِلَا قَائِدٍ يَقُودُهُمْ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ المُسْتَقِيمِ.

"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ". هَذِهِ المَسَائِلُ الَّتِي ذَكَرَهَا المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى تَشْمَلُ الدِّينَ كُلَّهُ" فَهَذِهِ المَسَائِلُ الأَرْبَعُ **"جَدِيرَةٌ بِالعِنَايَةِ لِعِظَمِ نَفعِها."** أصول الدينِ والشريعة الذي يُريدُ أن يَبنيَ بناءًا يجتهدُ في تأسيسِه، في إقامةِ قواعدِه قبلَ أنْ ينظرَ إلى جَدرانه وحِيطانهِ فإنه إذا أسسَّ القواعد والأصول فإنه يستطيع أن يصلَ به ويقومَ به إلى عَنانِ السماء فنسمع عن ناطِحاتِ السحابِ هذه الناطِحاتِ زَادَ عَدَدُ أَدْوَارِهَا عَلَى خَمْسِمِئَةٍ مِنَ الأَدْوَارِ، أَتَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ بُنِيَتْ عَلَى سَطْحِ الأَرْضِ؟ لَهَا أَسَاسٌ قَوِيٌّ، ولَوْلَا ذَلِكَ الأَسَاسُ مَا عَلَتْ هَذَا العُلُوَّ ومَا بَلَغَتْ هَذَا المَبْلَغَ. وهَذَا أَمْرٌ مَادِّيٌّ، فَكَيْفَ بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ حَيَاةُ العَالَمِ كُلِّهِ؟ مِنْ شَرْقِهِ إِلَى غَرْبِهِ، ومِنْ شِمَالِهِ إِلَى جَنُوبِهِ، مِنْ صُبْحِهِ إِلَى مَسَائِهِ، ومِنْ مِيلَادِهِ إِلَى مَمَاتِهِ.

هَذَا أَعْظَمُ أَمْرٍ يَنْبَغِي عَلَى المَرْءِ أَنْ يَشْغَلَ نَفْسَهُ بِهِ، وهُوَ تَعَلُّمُ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ. وبِخَاصَّةٍ تَعَلُّمُ عِلْمِ العَقِيدَةِ.

قَالَ المُصنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:"**

العِلْمُ أَوَّلُ مَسْأَلَةٍ يَنْبَغِي عَلَى المَرْءِ أَنْ يَشْغَلَ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَبْحَثَ عَمَّا يَمْلَأُ بِهِ بَطْنَهُ، أَوْ عَمَّا يُغَطِّي بِهِ بَدَنَهُ أَوْ عَمَّا يَسْكُنُ فِيهِ فِي دَارِهِ. يَنْبَغِي أَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْصِيلِ العِلْمِ.

"العِلْمُ وهو مَعْرِفَةُ اللَّهِ ومَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ومَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ." مَعْرِفَةُ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ بِالقَلْبِ. مَعْرِفَةٌ تَسْتَلْزِمُ قَبُولَ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ، وتَسْتَلْزِمُ الإِذْعَانَ والانْقِيَادَ لَهُ، وتَحْكِيمَ شَرِيعَتِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ."

حَيْثُ **"يَتَعَرَّفُ العَبْدُ عَلَى رَبِّهِ"** عَلَى خَالِقِهِ عَلَى مَالِكِ أَمْرِهِ عَلَى مُدَبِّرِ شَأْنِهِ. ذَلِكَ بِالنَّظَرِ فِي نَفْسِهِ وفِي المُحِيطِ بِهِ فِي الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ، وفِي الآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

فَإِنَّ الإِنْسَانَ كُلَّمَا نَظَرَ فِي دُنْيَا اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ وكُلَّمَا نَظَرَ فِي شَأْنِ نَفْسِهِ وكُلَّمَا نَظَرَ فِي شَأْنِ الكَائِنَاتِ مِنْ حَوْلِهِ وكُلَّمَا نَظَرَ فِي آيَاتِ القُرْآنِ العَظِيمِ وكُلَّمَا نَظَرَ فِي هَدْيِ النَّبِيِّ الأَمِينِ ازْدَادَ عِلْمًا.

ازْدَادَ عِلْمًا بِأَنَّ هَذِهِ الحَيَاةَ لَمْ تُخْلَقْ هَكَذَا سُدًى، وإِنَّمَا خُلِقَتْ لِغَايَةٍ عَظِيمَةٍ يَتَعَلَّمُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ النَّظَرِ. النَّظَرُ أَوْرَثَهُ **"عِلْمًا بِخَالِقِهِ عِلْمًا بِمَعْبُودِهِ. قَالَ**

اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)} [الذاريات : ٢٠-٢١]." فِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى قُدْرَةَ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى، فِي النَّفْسِ آيَاتٌ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى قُدْرَةَ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى لو أنّ الإنْسَانَ وَقَفَ أَمَامَ نَفْسِهِ يَجِدُ أَنَّهُ مُسْتَعْمِلٌ لِكُلِّ جَوَارِحِهِ لَا فَاعِلَ لَهُ. حِينَ يَرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ إِنَّمَا يُحَرِّكُ لِسَانَهُ بِمَا يُرِيدُ بِمَا يَجْرِي فِي عَقْلِهِ، ولَا يَدْرِي مَا الَّذِي تَمَّ. حَتَّى تَخْرُجَ هَذِهِ الكَلِمَةُ إِلَى المَسَامِعِ والآذَانِ. وكَمَا ذَكَرَ عُلَمَاءُ التَّجْوِيدِ أَنَّ الكَلِمَةَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَخْرُجَ عَلَى الأَلْسِنَةِ تَحْتَاجُ إِلَى خَمْسَةَ عَشَرَ مِنَ الأَعْضَاءِ لِتَكُونَ كَلِمَةً كَائِنَةً مَسْمُوعَةً. الحِجَابُ الحَاجِزُ والرِّئَتَانِ والقَصَبَةُ الهَوَائِيَّةُ ولِسَانُ المِزْمَارِ والتَّجْوِيفُ الحَلْقِيُّ والتَّجْوِيفُ الفَمَوِيُّ والأَنْفُ واللِّسَانُ كُلُّ هَذِهِ الأَعْضَاءِ تَتَحَرَّكُ حَرَكَاتٍ قَائِمَةً عَلَى قِيَاسَاتٍ مُنْضَبِطَةٍ. كُلُّ ذَلِكَ لَا تَدْرِي بِهِ. الَّذِي تُدْرِكُهُ أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَتَكَلَّمَ. هَذَا كُلُّهُ مَنْ وَرَائِهِ. وَرَاءَهُ البَدَنُ. البَدَنُ إِنَّمَا هُوَ قِطَعٌ مِنَ اللَّحْمِ والعَظمِ. وَرَاءَهُ قُدْرَةُ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ. وَرَاءَهُ تَيْسِيرُ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ. وَرَاءَهُ تَدْبِيرُ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

الرَّجُلُ يُرْزَقُ بِالوَلَدِ، وحِينَ يَنْظُرُ مَاذَا وَرَاهُ فِي إِيجَادِ هَذَا الوَلَدِ، تَزَوَّجَ امْرَأَةً تَمَتَّعَ بِهِ، وتَمَتَّعَتْ بِهِ، وانْطَلَقَ فِي شَأْنِهِ وانْطَلَقَتْ فِي شَأْنِهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَشْعُرُ بِتَغَيُّرَاتٍ فِي رَحِمِهَا فَتَقُومُ بِإِجْرَاءِ التَّحَالِيلِ والأَشِعَّةِ فَيُقَالُ لَهَا: مَبْرُوكٌ أَنْتِ حَامِلٌ. مَنِ الَّذِي عَقَدَ هَذَا المَخْلُوقَ فِي الرَّحِمِ؟ التَّزَاوُجُ بَيْنَ

الحَيَوَانِ المَنَوِيِّ والبَوِيْضَةِ حَتَّى صَارَ مَخْلُوقًا قَامَ عَلَى خَلْقٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ. المَرْأَةُ لَا تَدْرِي عَنْ ذَلِكَ شَيْئًا والرَّجُلُ كَذَلِكَ. ويَتِمُّ بِنَاءُ الجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وخَلْقُهُ خَلْقًا بَعْدَ خَلْقٍ إِلَى أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى بِخُرُوجِهِ ويَسْعَدَ النَّاسُ بِخِلقَةِ مَا أَبْهَاهَا مِنْ خَلْقٍ. مَنْ وَرَاءِ ذَلِكَ الأَبُ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا، الأُمُّ لَمْ تَفْعَلْ شَيْئًا.

مَنِ الَّذِي خَلَقَ ومَنِ الَّذِي بَرَأَ ومَنِ الَّذِي صَوَّرَ؟ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ أَلَا يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَهُ، أَنْ تَعْرِفَ صِفَاتِهِ، أَنْ تَعْرِفَ أَحْكَامَهُ، أَنْ تَعْرِفَ دِينَهُ، أَنْ تَعْرِفَ لِمَاذَا خَلَقَكَ؟ فَمَعْرِفَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى الوُصُولُ إِلَى مَا يَدْفَعُكَ إِلَى الخُضُوعِ والإِذْعَانِ والذُّلِّ والافْتِقَارِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

الأَمْرُ الثَّانِي فِي العِلْمِ مَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ ومَعْرِفَةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ. لَا تَقِفُ عَلَى تَرْدِيدِ اسْمِهِ ولَا تَنَاوُلِ رِسَالَتِهِ ولَا الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، وإِنَّمَا **"مَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ هِيَ المَعْرِفَةُ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ قَبُولَ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الهُدَى ودِينِ الحَقِّ وتَسْتَلْزِمُ تَصْدِيقَهُ فِيمَا أَخْبَرَ وامْتِثَالَ أَمْرِهِ فِيمَا أَمَرَ واجْتِنَابَ مَا نَهَى عَنْهُ وزَجَرَ وتَحْكِيمَ شَرِيعَتِهِ والرِّضَى بِحُكْمِهِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء : ٦٥]**

وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور : ٥١]

وَقَالَ تَعَالَى: {فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء : ٥٩]

وَقَالَ تعالى : {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور : ٦٣]

قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: الفِتْنَةُ الشِّرْكُ. لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ." النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ لَمْ يَقُلْ لَنَا هَذَا مِيرَاثُ أَبِي ولَا مِيرَاثُ جَدِّي، ولَمْ يَقُلْ لَنَا هَذَا عِلْمِي وشِعْرِي وحِكْمَتِي، وإِنَّمَا قَالَ لَنَا: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَهُ وجَعَلَ دَلِيلَ ذَلِكَ مَا أَيَّدَهُ بِهِ مِنَ الوَحْيِ الَّذِي أَعْجَزَ بُلَغَاءَ العَرَبِ وفُصَحَاءَهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ. بَلْ أَيَّدَهُ بِالمُعْجِزَاتِ المَادِّيَّةِ الَّتِي يَعْجِزُ أَيُّ أَحَدٍ أَنْ يُنْكِرَهَا أَوْ يَتَعَرَّضَ لَهَا، فَقَدِ انْشَقَّ القَمَرُ كَمُعْجِزَةٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، ونَطَقَ الجَمَادُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، ونَبَعَ المَاءُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ، نَبَعَ المَاءُ مِنْ بَيْنِ اللَّحْمِ والجِلْدِ حَتَّى شَرِبَ مَا يَزِيدُ عَنْ أَلْفٍ وخَمْسِمِئَةٍ مِنْ جُنُودٍ عِطَاشٍ ومَعَهُمْ مَا مَعَهُمْ مِنَ أَوَانٍ قَدْ مُلِئَتْ هَذِهِ مِنْ أَيْنَ؟ بَلْ فَجَّرَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ يَنَابِيعَ الأَرْضِ بِضَرْبَةٍ بِيَدِهِ فِي أَرْضٍ قَاحِلَةٍ لَا مَاءَ فِيهَا، بَلْ تَكَلَّمَتِ الحَيَوَانَاتُ بَيْنَ يَدَيْهِ

وتَكَلَّمَتِ النَّبَاتَاتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وأَرَى اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ الصَّحَابَةَ رِضْوَانَ اللهِ عَلَيْهِمْ مُعْجِزَاتٍ بَاهِرَةً، كُلُّ ذَلِكَ لِتَأْيِيدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ بِكَوْنِهِ رَسُولَ اللهِ ونَبِيَّهُ ومُصْطَفَاهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

لَوْ اسْتَحْضَرَ المَرْءُ هَذِهِ المَسْأَلَةَ حِينَ يَسْمَعُ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ إِنَّهُ لَيْسَ قَوْلَهُ وإِنَّمَا هَذَا وَحْيُ رَبِّهِ: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)} [النجم : ٣-٤] وهَكَذَا الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ كَانُوا يَسْتَقْبِلُونَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، لَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ هَذَا فَرْضٌ وهَذِهِ سُنَّةٌ وإِنَّمَا كَانُوا يَقُومُونَ بِالأَمْرِ عَلَى اعْتِبَارِ أَصْلِهِ: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤)} [النجم : ٣-٤]

الأَمْرُ الثَّالِثُ مِنْ أُمُورِ العِلْمِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا: **"مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ العَظِيمِ. الإِسْلَامُ بِالمَعْنَى العَامِّ: التَّعَبُّدُ لِلَّهِ بِمَا شَرَعَ مُنْذُ أَنْ أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، كَمَا ذَكَرَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّرَائِعَ السَّابِقَةَ كُلَّهَا إِسْلَامٌ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ، قَالَ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ} [البقرة : ١٢٨]** كُلُّ الأَدْيَانِ قَبْلَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ كَانَتْ عَلَى دِينِ الإِسْلَامِ، فَالإِسْلَامُ هُوَ الدِّينُ الَّذِي دَانَ بِهِ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ والمُرْسَلِينَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

اليَهُودِيَّةُ والنَّصْرَانِيَّةُ هَذِهِ لَيْسَتْ أَدْيَانًا، لَمْ تَكُنْ مُسَمَّيَاتٍ لِأَدْيَانٍ، ولَمْ يَقُلْ أَحَدٌ أَنَّ هُنَاكَ مَا يُسَمَّى بِاليَهُودِيَّةِ ولَا بِالنَّصْرَانِيَّةِ، وإِنَّمَا الدِّينُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ لِجَمِيعِ الأُمَمِ هُوَ دِينُ الإِسْلَامِ العَظِيمِ.

فَهَذَا هُوَ الإِسْلَامُ بِالمَعْنَى العَامِّ، وأَمَّا **"الإِسْلَامُ بِالمَعْنَى الخَاصِّ بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فَهُوَ يَخْتَصُّ بِشَرِيعَةِ النَّبِيِّ الَّتِي بُعِثَ بِهَا؛ لِأَنَّ شَرِيعَةَ النَّبِيِّ الَّتِي بُعِثَ بِهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ نَسَخَتْ جَمِيعَ الأَدْيَانِ السَّابِقَةِ، فَصَارَ مَنْ اتَّبَعَهُ مُسْلِمًا ومَنْ خَالَفَهُ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ، فَأَتْبَاعُ الرُّسُلِ مُسْلِمُونَ فِي زَمَنِ رُسُلِهِمْ: اليَهُودُ كَانُوا مُسْلِمِينَ فِي زَمَنِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ والنَّصَارَى كَانُوا مُسْلِمِينَ فِي زَمَنِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأَمَّا حِينَ بُعِثَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ فَكَفَرُوا بِهِ فَلَيْسُوا بِمُسْلِمِينَ.**

هَذَا الدِّينُ الإِسْلَامِيُّ هُوَ الدِّينُ المَقْبُولُ عِنْدَ اللَّهِ النَّافِعُ لِصَاحِبِهِ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ }.[سورة آل عمران: ١٩]

وقَالَ تَعَالَى: {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ".[سورة آل عمران: ٨٥]"

نِعْمَةُ الإِسْلَامِ مِنْ أَجَلِّ النِّعَمِ، لَوْ أَنَّ المَرْءَ اسْتَحْضَرَ كَيْفَ فَضَّلَهُ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ عَلَى هَذَا العَالَمِ كُلِّهِ، عَالَمٌ يَزِيدُ عَلَى التِّسْعِ مِنَ المَلْيَارَاتِ يَهودِيُّونَ وبُوذِيُّونَ وعَبَدَةُ أَصْنَامٍ وعَبَدَةُ حَيَوَانَاتٍ ويَهُودٌ ومُلْحِدَةٌ، ويَمُنُّ اللَّهُ عَلَيْكَ أَنْ

جَعَلَكَ مُسْلِمًا بِلَا تَعَبٍ ولَا جَهْلٍ ولَا عَنَاءٍ، وُلِدْتَ مِنْ أَبٍ وأُمٍّ مُسْلِمَيْنِ، هَذِهِ نِعْمَةٌ مِنْ أَجَلِّ النِّعَمِ.

ولَو علِمَ النَّاسُ قَدْرَهَا لَهَانَ عَلَيْهِمْ مَا يَفْقِدُونَه مِنْ طَعَامٍ وشَرَابٍ ومَنَاصِبَ ومُتَعٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ مِنْ أَجَلِّ النِّعَمِ. {رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} [الحجر : ٢]. نَعَمْ، رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ. أَنْ يَخْتَصَّك اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى مِنْ بَيْنِ هَذَا العَالَمِ كُلِّهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ، افْرَحْ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْكَ، {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس : ٥٨] أَنْ يَشْعُرَ الإِنْسَانُ أَنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ واجْتَبَاهُ كَمَا اصْطَفَى أَنْبِيَاءَهُ ورُسُلَهُ مِنْ دُونِ الخَلْقِ، هَذِهِ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ. مَنْ أُوتِيَ هَذِهِ النِّعْمَةَ هَانَ عَلَيْهِ كُلُّ مَا يَفْقِدُهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا ومَا فِيهَا.

فَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ العَظِيمِ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ هَذَا الدِّينَ هُوَ الدِّينُ المَقْبُولُ النَّافِعُ لِصَاحِبِهِ، وأَنَّ مَنْ دَانَ بِغَيْرِ هَذَا الدِّينِ فَلَيْسَ مِنَ المَقْبُولِينَ، ولَيْسَ مِنَ الفَالِحِينَ وإِنَّمَا هُوَ مِنَ الخَاسِرِينَ. ونِعْمَةُ الإِسْلَامِ هِيَ النِّعْمَةُ الَّتِي "امْتَنَّ اللَّهُ بِهَا عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ وأُمَّتِهِ. قَالَ تَعَالَى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة : ٣] فَارْضَ بِمَا رَضِيَه اللَّهُ لَكَ. وافْرَحْ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ. وقِفْ عِنْدَمَا أَتَمَّهُ اللَّهُ لَكَ فَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ شَيْئًا. ومَا أَكْمَلَهُ اللَّهُ لَكَ فَلَا تُنْقِصْ مِنْهُ شَيْئًا.

مَعْرِفَةُ هَذِهِ الأَشْيَاءِ لَيْسَتْ بِالعَقْلِ ولَا بِالعُرْفِ ولَا بِالهَوَى، ولَكِنْ "مَعْرِفَةُ اللَّهِ ومَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ومَعْرِفَةُ الإِسْلَامِ **"بِالأَدِلَّةِ"** بِالدَّلِيلِ والبُرْهَانِ لَا بِالهَوَى والبُهْتَانِ. **"بِالأَدِلَّةِ" جَمْعُ دَلِيلٍ وهُوَ مَا يُرْشِدُ إِلَى المَطْلُوبِ، والأَدِلَّةُ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ سَمْعِيَّةٌ وعَقْلِيَّةٌ. فَالسَّمْعِيَّةُ"** مَا جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ السَّمْعِ وهُوَ **"الوَحْيُ"**. فَكُلُّ مَا نُقِلَ إِلَيْكَ عَنْ طَرِيقِ السَّمْعِ مِنَ الكِتَابِ والسُّنَّةِ فَهُوَ مِنَ الأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ. وأَمَّا مَا تَوَصَّلْتَ إِلَيْهِ مِنْ خِلَالِ النَّظَرِ والتَّأَمُّلِ فَهَذَا مِنَ الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ. وقَدْ جَمَعَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى فِي كِتَابِهِ بَيْنَ المَسْمُوعِ والمَعْقُولِ. فَقَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ ذِكْرِ الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ فِي كِتَابِهِ. فَكَمْ مِنْ آيَةٍ قَالَ اللَّهُ فِيهَا: ومِنْ آيَاتِهِ كَذَا وكَذَا. وهَكَذَا يَكُونُ سِيَاقُ الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. صَحِيحُ النَّقْلِ لَا يُخَالِفُ صَرِيحَ العَقْلِ. وقَدْ جَادَلَ عُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ مَنْ لَا يَقْبَلُونَ النَّقْلَ جَادَلُوهُمْ بِالعَقْلِ.

مِنْ ذَلِكَ مَا وَقَعَ مَعَ بَعْضِ عُلَمَائِنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ. قِيلَ إِنَّهُ الإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ. حِينَ جَادَلَ أُولَئِكَ الدَّهْرِيِّينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا خَالِقَ، وإِنَّمَا هِيَ أَرْحَامٌ تَدْفَعُ وأَرْضٌ تَبْلَعُ ولَا حِسَابَ ولَا عِقَابَ، وأَنَّ الأَمْرَ صُدْفَةٌ. فَقَالَ: أُجَادِلُكُمْ فِيمَا تَعْتَقِدُونَ. قَالُوا: جَادِلْنَا. قَالَ: مَوْعِدُنَا سَاعَةَ كَذَا عِنْدَ نَهْرِ كَذَا يَكُونُ هُنَاكَ اللِّقَاءُ. وسَآتِي إِلَيْكُمْ عَبْرَ مَرْكَبٍ أَجُوبُ بِهِ النَّهْرَ حَتَّى آتِيَكُمْ فِي مَوْعِدِنَا. فَحَدَّدَ لَهُمْ مَوْعِدًا. فَتَأَخَّرَ عَلَيْهِ سَاعَةً وسَاعَةً. وقَالَ: لَا تَتْرُكُوا المَكَانَ حَتَّى تُشْفِقَ الشَّمْسُ عَلَى الغُرُوبِ. فَقَبْلَ الغُرُوبِ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ أَتَى إِلَيْهِمْ بِمَرْكَبٍ.

فَقَالُوا لَهُ: تَأَخَّرْتَ. الَّذِي أَخَّرَكَ عَلَيَّ. قَالَ: أَخَذْتُ أَبْحَثُ عَنْ مَرْكَبٍ فَلَمْ أَجِدْ، وبَيْنَمَا أَنَا فِي حِيْرَةٍ مِنْ أَمْرِي إِذْ بِشَجَرَةٍ تُقْطَعُ ولَمْ أَرَ لَهَا قَاطِعَةً، وتُنْشَرُ ولَمْ أَرَ لَهَا نَاشِرًا، وتُجْمَعُ مَرْكَبًا ولَمْ أَرَ لَهَا جَامِعًا، وأُنْزِلَتْ إِلَى البَحْرِ ولَمْ أَرَ لَهَا مُنْزِلًا، فَرَكِبْتُ هَذِهِ المَرْكَبَةَ وقَدْ أَتَيْتُ إِلَيْكُمْ. قَالُوا: مَا هَذَا أَيُّ عَقْلٍ يُصَدِّقُ مَا تَقُولُ؟ شَجَرَةٌ تُقْطَعُ بِلَا قَاطِع، وتُنْشَرُ بِلَا نَاشِرٍ، ويُجْمَعُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى هَذَا الوَجْهِ الَّذِي أَتَيْتَ إِلَيْنَا بِهِ بِلَا جَامِعٍ وتُسَاقُ إِلَى البَحْرِ بِلَا سَائِقٍ ومُنْزِلٍ.

قَالَ: أَلَا تُصَدِّقُونَ؟ قَالُوا: هَذَا لَا يُصَدَّقُ. قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ تُنْكِرُونَ أَمْرَ سَفِينَةٍ أَنْ تَكُونَ قَدْ وُجِدَتْ هَكَذَا، وأَنْتُمْ تَقُولُونَ أَنَّ الشَّمْسَ هَذِهِ عَلَى عِظَمِهَا، وُجِدَتْ هَكَذَا وأَنَّ القَمَرَ عَلَى عِظَمِ خَلْقِهِ قَدْ وُجِدَ هَكَذَا وأَنَّ هَذِهِ البِحَارَ والأَنْهَارَ والأَرْضَ والجِبَالَ وُجِدَتْ هَكَذَا إِنَّكُمْ لَقَوْمٌ أَفَّاكُونَ.

فَوَقَفُوا قَالُوا: الرَّجُلُ قَدْ أَصَابَ، كَيْفَ نُنْكِرُ عَلَيْهِ أَمْرَ السَّفِينَةِ، ونَحْنُ نُنْكِرُ أَمْرَ الكَوْنِ كُلِّهِ، فَعَادُوا إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى وهَذَا اتِّبَاعًا لِهَدْيِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى ورُسُلِهِ، فَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا وَاجَهَ قَوْمَهُ وَاجَهَهُمْ بِالأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ، فَلَمَّا حَطَّمَ الأَصْنَامَ قَالُوا: "{قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا

إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤)} [الأنبياء : ٥٩-٦٤]

{فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ} قَالُوا: هَذَا لَا يَتَحَرَّكُ وإِنْ سَأَلْنَاهُ لَا يَنْطِقُ، فَاعْتَرَفُوا بِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالٍ مُبِينٍ ولَكِنْ مَنَعَهُمُ الكِبْرُ مِنْ أَنْ يُفِيئُوا إِلَى الحَقِّ.

فَاسْتِخْدَامُ الأَدِلَّةِ العَقْلِيَّةِ فِي إِثْبَاتِ وُجُودِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى وإِثْبَاتِ أُلُوهِيَّتِهِ وإِثْبَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ هَذَا طَرِيقٌ مِنَ الطُّرُقِ الَّتِي يُعْرَفُ ويُتَعَرَّفُ بِهَا عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى. فَالْأَدِلَّةُ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ سَمْعِيَّةٌ وعَقْلِيَّةٌ: **"السَّمْعِيَّةُ: مَا ثَبَتَ بِالوَحْيِ وهُوَ الكِتَابُ والسُّنَّةُ. والعَقْلِيَّةُ: مَا ثَبَتَ بِالنَّظَرِ والتَّأَمُّلِ".**

"وَأَمَّا مَعْرِفَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبِالْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ،" يَعْنِي لَا بُدَّ مِنْ خَبَرٍ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ جَاءَ الْخَبَرُ **"قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ}** بِالْقَوْلِ الْقَطْعِ الصَّرِيحِ **{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح : ٢٩]. وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ} [آل عمران : ١٤٤]."** فَهَذَا يُتَوَصَّلُ إِلَى مَعْرِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ.

قال الشارِحُ رَحِمه الله**"وَأَمَّا الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ: بالنَظَرِ وَالتَأَمُّلِ فِيمَا أَتَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الَّتِي أَعْظَمُهَا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُشْتَمِلُ عَلَى الْأَخْبَارِ الصَّادِقَةِ النَّافِعَةِ وَالْأَحْكَامِ الْمُصْلِحَةِ الْعَادِلَةِ، وَمَا جَرَى عَلَى يَدَيْهِ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا تَصْدُرُ إِلَّا عَنْ وَحْيٍ وَالَّتِي صَدَّقَهَا الْوَحْيُ وَصَدَّقَ مَا وَقَعَ مِنْها."** حينما ننظرُ إلى من تعرَّضَ لمواجهةِ النَّاسِ، نَجِدُ أَنَّ أَوُلَئِكَ كَانَتْ قَضِيَّةُ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ قَضَايَا تَزُولُ مَعَ زَوَالِ الزَّمَانِ، يَعْنِي أُولَئِكَ السُّفُسْطَائِيُّونَ أَوِ الْمَنَاطِقة أَوِ السِّيَاسِيُّونَ، هَؤُلَاءِ إندَرسَت قَضِيَّتُهُمْ بِمَوْتِهِمْ وَصَارَ مَا يُذْكَرُ إِنَّمَا هُوَ بَابٌ مِنَ الْأَبْوَابِ الَّتِي لَا وُجُودَ لَهَا وَلَا لِمُتْبِعِيهَا. وَأَمَّا رِسَالَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تِلْكَ الرِّسَالَةُ الَّتِي غَيَّرَتِ الْعَالَمَ كُلَّهُ، وَظَهَرَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْعَالَمِ كُلِّهِ لَمَّا كَانُوا مُتَمَسِّكِينَ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ. أَيُعْقَلُ أَنْ يُقَالَ أَنَّ هَذِهِ دَعْوَةُ مُدَّعٍ أَوْ قَضِيَّةُ صَاحِبِ فِكْرٍ وَنِحْلَةٍ، وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدْ أَيَّدَهُ بِالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ وَجَعَلَ الظُّهُورَ وَالْعُلُوَّ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ وَأَتْبَاعِهَا، بَلْ إِنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُخَالِفُونَهُ لَمْ يُنْكِرُوا بَعْثَتَهُ، يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَنْ يُقَالُ عَنْهُ مُحَمَّدٌ، وَإِنَّمَا يُشَكِّكُونَ فِيمَا جَاءَ بِهِ، يَعْنِي لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يُشَكِّكُ فِي رِسَالَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَدَّعِي أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ، وَإِنَّمَا التَّشْكِيكُ فِيمَا جَاءَ بِهِ. وَهَذَا يَدُلُّكَ بِالدَّلِيلِ الْقَاطِعِ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ عَلَى وُجُودِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَعْثَتِهِ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْأَمْرُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ تَعَلُّمُهُ **"الْعِلْمَ"**. ثَانِيًا بَعْدَ الْعِلْمِ مَا الَّذِي يَجِبُ **"الْعَمَلُ بِهِ"**. ثُمَّ مَا الَّذِي يَجِبُ بَعْدَ ذَلِكَ "الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ".

"الْعَمَلُ بِهِ" لِأَنَّ الْعِلْمَ لَا يُرَادُ لِلتَّرَفِ وَإِنَّمَا يُرَادُ لِلْعَمَلِ. فَقَوْلُهُ: **"الْعَمَلُ بِهِ"** **أَيِ الْعَمَلُ بِمَا تَقْتَضِيهِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ الْخَاصَّةِ"** الَّتِي تَلْزَمُ الْمَرْءَ فِي نَفْسِهِ **"وَالْعِبَادَاتِ الْمُتَعَدِّيَةِ"** الَّتِي تَلْزَمُ الْمَرْءَ فِيمَا يَخُصُّ غَيْرَهُ.

"فَالْعِبَادَاتُ الْخَاصَّةُ مِثْلُ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ، وَالْعِبَادَاتُ الْمُتَعَدِّيَةُ كَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ". الْعِلْمُ بَيَانٌ لِمَعْمُولٍ، وَهَذَا الْبَيَانُ إِنْ لَمْ يَتَحَوَّلْ إِلَى عَمَلٍ صَارَ الْعِلْمُ لَا قِيمَةَ وَلَا قَدْرَ لَهُ. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)} [الصف : ٢-٣]. فَالَّذِي يَتَعَلَّمُ وَلَا يَعْمَلُ يَنْتَظِرُ الْمَقْتَ لِأَنَّ الْعِلْمَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ **"وَالْعَمَلُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ، فَمَنْ عَمِلَ بِلَا عِلْمٍ فَقَدْ شَابَهَ النَّصَارَى، وَمَنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ فَقَدْ شَابَهَ الْيَهُودَ"** هَكَذَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ.

فَأَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ الْعِلْمُ: الْعِلْمُ بِاللَّهِ، والْعِلْمُ بِرَسُولِهِ، والْعِلْمُ بِدِينِهِ. بَعْدَ الْعِلْمِ يَجِبُ عَلَيْهِ الْعَمَلُ أَنْ يَعْمَلَ بِمَا عَلِمَ. فَإِذَا مَا عَلِمَ وَعَمِلَ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى ذَلِكَ الَّذِي تَعَلَّمَهُ وَعَمِلَهُ.

" فَالدَّعْوَةُ إِلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ عَلَى مَرَاتِبِهَا الثَّلَاثِ أَوِ الْأَرْبَعِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} [النحل : ١٢٥]. فَهَذِهِ هي مَرَاتِبُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

- الْحِكْمَةُ
- الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ
- الْجِدَالُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

"وَالرَّابِعَةُ قَوْلُهُ: {۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} [العنكبوت : ٤٦]" الْمَرْءُ إِنْ لَمْ يَكُنْ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ فَهُوَ مَدْعُوٌّ إِلَى الْبَاطِلِ. فَإِنْ لَمْ تَكُنْ آخِذًا بِزِمَامِ مَنْ حَوْلِكَ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي مَعَكَ، فَإِنَّ مَنْ حَوْلِكَ يَأْخُذُكَ إِلَى الْبَاطِلِ الَّذِي مَعَهُ، فَأَنْتَ لَابُدَّ أَنْ تُحَصِّنَ نَفْسَكَ، أن تُحَصِّنَ نَفْسَكَ مِمَّنْ حَوْلِكَ، لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يُرِيدُ أَنْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ إِلَى الَّذِي عَلَيْهِ، حَتَّى أُولَئِكَ الْجُهَّالُ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى مَا مَعَهُمْ مِنَ الْجَهْلِ، وَأَهْلُ الْبِدَعِ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى مَا مَعَهُمْ مِنَ الْبِدَعة، وَأَصْحَابُ الشَّهَوَاتِ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَى مَا مَعَهُمْ مِنَ الشَّهَوَاتِ. لِمَاذَا؟ حَتَّى لَا يَكُونَ فِي الْجَهْلِ وَحْدَهُم. الْجَاهِلُ يُرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَكُونُوا جَهَلة، وَالْمُبْتَدِعُ يُرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَكُونُوا مُبْتَدِعَةً، وَالْفَاسِقُ يُرِيدُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَكُونُوا فَسَقَةً. يَقُولُ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "وَدَّتِ الزَّانِيَةُ لَوْ زَنَتِ النِّسَاءُ جَمِيعًا." لِمَاذَا؟ حَتَّى

لَا تَشْعُرَ بِأَلَمِ الذَّنبِ. كَذَلِكَ الْجَاهِلُ يُرِيدُ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا حَتَّى لَا يَشْعُرَ بِمَرَارَةِ الْجَهْلِ، وَكَذَلِكَ الْمُبْتَدِعُ.

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ دَاعِيًا مَنْ حَوْلِكَ إِلَى مَا مَعَكَ مِنَ الْحَقِّ، فَإِنَّهُ لَا مَحَالَةَ سَيَدْعُوكَ إِلَى الْبَاطِلِ الَّذِي مَعَهُ. وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تَدْعُوَ لَا بُدَّ لَكَ مِنْ عِلْمٍ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ كَمَا يَسِيرُ فِي طَرِيقٍ بِعِلْمٍ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللَّهِ طَرِيقٌ تَحْتَاجُ إِلَى الْعِلْمِ. تَحْتَاجُ إِلَى **"عِلْمٍ بِشَرِيعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى تَكُونَ دَعْوَتُكَ عَلَى عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ"**، لِأَنَّ هَذَا هُوَ هَدْيُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. **"قَالَ تَعَالَى: {قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف : ١٠٨] وَالْبَصِيرَةُ تَكُونُ فِيمَا يَدْعُو الْمَرْءُ إِلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ الدَّاعِيَةُ عَالِمًا بِالْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، عَالِمًا بِكَيْفِيَّةِ دَعْوَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ، عَالِمًا بِحَالِ الْمَدْعُوِّ"** عَالِمًا بِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى تِلْكَ الدَّعْوَةِ؛ لِأَنَّ الْقَاعِدَةَ عِنْدَ عُلَمَائِنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ: لَيْسَ كُلُّ مَا يُعْرَفُ يُقَالُ، وَلَا كُلُّ مَا يُقَالُ حَضَرَ وَقْتُهُ، وَلَا كُلُّ مَا حَضَرَ وَقْتُهُ حَضَرَ أَهْلُهُ، وَلَا كُلُّ مَا حَضَرَ أَهْلُهُ حَضَرَتْ مُنَاسَبَتُهُ.

وَالدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَشْبَهُ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ. يَعْنِي أَنْتَ تَجْلِسُ بَيْنَ قَوْمٍ جَوْعَى، لَوْ أَنَّكَ حَدَّثْتَهُمْ عَنِ الشَّرَابِ، هَذَا لَا يُشْبِعُ بُطُونَهُمْ. وَلَوْ أَنَّهُمْ كَلَّمْتَهُمْ عَنِ اللِّبَاسِ، هَذَا لَا يُهَدِّئُ مِنْ نَارِ جُوعَتِهِمْ. وَقَدْ ضُرِبَ لِذَلِكَ مِثَالًا أَنَّ رَجُلًا ذَهَبَ إِلَى ابْنَتِهِ، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ أَمْطَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

السَّمَاءَ، نَزَلَ الْمَطَرُ فَابْتَلَّتِ الثِّيَابُ وَكَانَ ذَلِكَ فِي الشِّتَاءِ الْقَارِسِ، فَذَهَبَ إِلَى ابْنَتِهِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا قَالَتْ لَهُ: صِفْ لَنَا طَعَامًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ. يَعْنِي قُلْ لَنَا مَا الَّذِي تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهُ. قَالَ:

قَالُوا لِي: صِفْ لَنَا طَعَامًا نُجِدْ لَكَ طَبْخَهُ قُلْت: اطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا.

يَعْنِي إِنْ كَانَ هُنَاكَ مَا يُطْبَخُ فَلْتَطْبُخُوا لِي جُبَّةً وَقَمِيصًا حَتَّى أَخْرُجَ مِمَّا أَنَا فِيهِ.

هَذَا هُوَ الشَّأْنُ أَنْ تُكَلِّمَ النَّاسَ فِيمَا هُمْ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِسَمَاعِهِ. وَأَمَّا أَنْ يُكَلِّمَ الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ فِيمَا لَا اسْتِعْدَادَ لَهُمْ فِي سَمَاعِهِ، فَهَذَا مِنْ بَابِ وَضْعِ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

فَلَا بُدَّ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ عِلْمٍ: عِلْمٍ بِمَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَعِلْمٍ بِطَرِيقَةِ الدَّعْوَةِ إِلَى الَّذِي مَعَهُ، وَبِعِلْمٍ بِحَالِ الْمَدْعُوِّ، وَبِحَالِ مَا يَؤُولُ الْأَمْرُ إِلَيْهِ بَعْدَ دَعْوَتِه.

لِذَا يَقُولُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتَرْضَوْنَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ."

وَفِي أَثَرٍ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ: "لَا تُحَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ فَإِنَّكُمْ إِنْ حَدَّثْتُمُ النَّاسَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ كَانَ حَدِيثُكُمْ لَهُمْ فِتْنَةً". حِينَ نُكَلِّمُ النَّاسَ فِيمَا لَا يَسْتَطِيعُونَ تَحَمُّلَهُ نَكُونُ قَدْ عَرَّضْنَاهُمْ لِلْفِتْنَةِ.

مِثَالُ ذَلِكَ مَا جَرَى فِي فَتْرَةٍ مِنَ الْفَتَرَاتِ مِنْ كَلَامِ بَعْضِ مَنْ تَكَلَّمَ فِي رَضَاعِ الْكَبِيرِ وَقَالَ يَجُوزُ أَنْ نُرْضِعَ الْكَبِيرَ فَيَصِيرَ مُحَرَّمًا، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ الصَّحَابِيِّ الَّذِي كَانَ قَدْ تَبَنَّى وَلَدًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَتَى الْحُكْمُ بِتَحْرِيمِ التَّبَنِّي فَوَقَعَ الصَّحَابِيُّ فِي حَرَجٍ، هَذَا الْوَلَدُ تَرَبَّى بَيْنَنَا إِلَى أَيْنَ يذْهَبُ وَمَا الْحَلُّ؟ فَذَهَبَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَمَرَ امْرَأَتَهُ أَنْ تُرْضِعَهُ خَمْسًا وَكَانَ قَدْ بَلَغَ سِنَّ الْبُلُوغِ.

وَالرَّضَاعُ هُنَا إِرْضَاعٌ مِنِ امْرَأَةٍ تَرَبَّى الْوَلَدُ فِي حِجْرِهَا يَعْنِي هِيَ بِمَثَابَةِ أُمِّهِ، وَالرَّضَاعُ مِنْ أَجْلِ التَّحْرِيمِ اسْتِثْنَاءٌ لَا أَصْلًا. فَهَذِهِ وَاقِعَةُ عَيْنٍ، يَعْنِي لَا تَصْلُحُ لِغَيْرِ ذَلِكَ.

الَّذِي أَتَى بِالْأَمْرِ أَقْلَقَهُ وَقَالَ هُنَاكَ فِي الشَّرْعِ مَا يُقَالُ لَهُ رَضَاعُ الْكَبِيرِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِيرَ مُحَرَّمًا وَأَبَاحَ لِلْمَرْأَةِ الْمُوَظَّفَةِ أَنْ تُرْضِعَ مَنْ يَعْمَلُ مَعَهَا حَتَّى يأْنَسَ إِلَيْهَا وَتأْنَسَ إِلَيْهِ.

هَذَا الْكَلَامُ يَفْتِنُ النَّاسَ لِأَنَّ مَنْ يَرْضَى بِذَلِكَ؟ مَنْ يَرْضَى مِنِ امْرَأَتِهِ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ مَعَ زَمِيلِهَا أَوْ مَعَ جَارِهَا أَوْ مَعَ صَاحِبِ زَوْجِهَا؟ مَنْ يَرْضَى

بِذَلِكَ؟ لَا يَرْضَى أَحَدٌ بِذَلِكَ. الْحَدِيثُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ يَكُونُ فِتْنَةً، وَهَذِهِ مِنْ شُؤْمِ تَجَرُّدِ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا بَصِيرَةَ فِيمَا يُدْعَى النَّاسُ إِلَيْهِ.

"مَجَالَاتُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَثِيرَةٌ مِنْهَا: الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْخِطَابَةِ وَإِلْقَاءِ الْمُحَاضَرَاتِ، ومِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ بِالْمَقَالَاتِ، ومِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ بِحَلَقَاتِ الْعِلْمِ، ومِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ بِالتَّأْلِيفِ وَنَشْرِ الدِّينِ عَنْ طَرِيقِ الْمُصَنَّفَاتِ، ومِنْهَا الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ فِي الْمَجَالِسِ الْخَاصَّةِ، فَإِذَا جَلَسَ الْإِنْسَانُ فِي مَجْلِسٍ فِي دَعْوَةٍ مَثَلًا، فَهَذَا مَجَالٌ لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَى وَجْهٍ لَا مَلَلَ فِيهِ وَلَا إِثْقَالَ. وَيَحْصُلُ هَذَا بِأَنْ يَعْرِضَ الدَّاعِيَةُ مَسْأَلَةً عِلْمِيَّةً عَلَى الْجَالِسِينَ ثُمَّ تَبْتَدِئُ الْمُنَاقَشَةُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُنَاقَشَةَ وَالسُّؤَالَ وَالْجَوَابَ لَهُ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي فَهْمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَتَفَهيمِهِ وَقَدْ يَكُونُ أَكْثَرَ فَاعِلِيَّةً مِنْ إِلْقَاءِ خُطْبَةٍ أَوْ مُحَاضَرَةٍ إِلْقَاءً مُرْسَلًا كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ."

أُفِيدُكَ فَائِدَةً تُيَسِّرُ عَلَيْكَ أَمْرَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ مَنْ تَلْقَاهُ هُوَ مَدْعُوٌّ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَدْعُوَهُ. فَمَدْعُوٌّ تَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِخُلُقِكَ وَسَمْتِكَ وَدَلِّكَ من غَيْرِ أَنْ تَتَكَلَّمَ مَعَهُ. وَهَذَا هُوَ الْمَدْعُوُّ الطَّارِئُ الَّذِي تَمُرُّ بِهِ سَرِيعًا: الْبَقَّالُ الَّذِي تَتَعَامَلُ مَعَهُ، سَائِقُ التَّاكَسِيِّ، بَائِعُ الْخَضْرَوَاتِ. هَذَا مَدْعُوٌّ تَدْعُوهُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِسَمْتِكَ وَدَلِّكَ وَحُسْنِ صَنِيعِكَ وَفِعْلَتِكَ. هَذَا لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ تُلْقِيَ عَلَيْهِ مُحَاضَرَةً أَوْ تَطْرَحَ عَلَيْهِ مَسْأَلَةً

فِقْهِيَّةً، الْمَجَالُ لا يَتَّسِعُ لِذَلِكَ هُوَ مَشْغُولٌ يَعْنِي أَنْتَ حِينَ تُكَلِّمُهُ هُنَاكَ زَبَائِنُ تَقِفُ، وَأَنْتَ حِينَ تُكَلِّمُهُ هُنَاكَ زَبَائِنُ تَقِفُ فَالْوَقْتُ لَيْسَ وَقْتَ مُنَاقَشَةٍ عِلْمِيَّةٍ وَلَكِنْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَدْعُوَهُ بِبَسْمَةٍ، تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ. فَاسْتَطِيعُ أَنْ تَدْعُوَهُ بِأَنْ تُنَادِيَهُ بِأَحَبِّ الْأَلْقَابِ إِلَيْه، تسْتَطِيعُ أَنْ تَدْعُوَهُ بِدَعْوَةٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُبَارِكَ فِيكَ وَأَنْ يَجْزِيَكَ عَنِّي خَيْرًا.

هَذَا مَدْعُوٌّ يَحْتَاجُ إِلَى فِقْهٍ فِي دَعْوَتِهِ، تَدْعُوهُ بِبَذْلِ مَالٍ مِنْ غَيْرِ ما مُسَاوَمَةٍ وَلَا مُمَاكَسَةٍ، يَعْنِي تَرْكَبُ عَرَبَةً يَقُولُ لَكَ السَّائِقُ أُرِيدُ عَشْرًا مِنَ الْجُنَيْهَاتِ وَالْأُجْرَةُ ثَمَانِيَةٌ مِنَ الْجُنَيْهَاتِ اجْعَلْ هَذَيْنِ الْجُنَيْهَيْنِ مِنْ بَابِ تَأْلِيفِ قَلْبِهِ وَأَعْطِ ذَلِكَ السَّائِقَ تِلْكَ الْأُجْرَةَ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ. هَذِهِ دَعْوَةٌ، يَأْلَفُكَ يُحِبُّكَ، وَأَمَّا أَنْ تَفُوتُكَ هَذِهِ الْفُرْصَةُ فَهَذَا مِنْ قِلَّةِ الْفِقْه.

مِنَ النَّاسِ أَنْ تَكُونَ الدَّعْوَةُ مَعَهُمْ لَيْسَ بِإِلْقَاءِ سُؤَالٍ وَالْجَوَابِ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا أَنْ تَسْتَلَّ مِنْ جُزْءِ كَلَامِهِمْ فِي مَوْضُوعٍ يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ مَا تَدْخُلُ مِنْ خِلَالِهِ إِلَى مَا تُرِيدُ، يَعْنِي يَتَكَلَّمُ الْمُتَكَلِّمُ مَعَكَ فِي الْمَشَاكِلِ الْعَائِلِيَّةِ تَدْخُلُ مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ فِي الْكَلَامِ عَلَى صِلَةِ الْأَرْحَامِ وَعَلَى دَفْعِ الظُّلْمِ بِالْعَفْوِ وَالتَّسَامُحِ وَعَلَى غَضِّ الطَّرْفِ وَتُفَصِّلُ فِي الْمَسْأَلَةِ. فَهَذِهِ دَعْوَتُهُ لِأَنَّكَ تَدْخُلُ إِلَى مَا هُوَ مَشْغُولٌ بِهِ، هُوَ مَشْغُولٌ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَدَعْوَتُهُ مِنْ خِلَالِ أَنْ تُبَيِّنَ لَهُ دِينَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي هَذَا الْأَمْرِ.

هُنَاكَ رَجُلٌ يَجْلِسُ مَعَكَ فَيَتَكَلَّمُ مَعَكَ فِي أَمْرِ الْمُعَامَلَاتِ بَاعَ وَاشْتَرَى وَوَهَبَ وَوَرّثَ تَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَهَكَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَكَذَا كَانَتْ دَعْوَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَقِي مِنْ جُلُوسِهِ مَعَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَا مِنْ خِلَالِهِ يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ.

يَمُرُّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالسُّوقِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَيْنِ فَوَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَدْيًا مَيِّتًا أَسَكَّ فَيقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ يَشْتَرِي هَذَا بِدِرْهَمٍ أَوْ بِدِرْهَمَيْنِ؟" فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا نُرِيدُهُ بِشَيْءٍ إِنَّهُ مَيِّتٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ عَيْبًا إِنَّهُ أَسَكُّ أَيْ قَصِيرٌ وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْمَعْزِ عَيْبٌ عَلَى عَرَبِيٍّ أَنْ يَقْتَنِيَهُ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ كَانَ حَيًّا لَكَانَ عَيْبًا. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَرَأَيْتُمْ هَوَانَ هَذَا عَلَى أَهْلِهِ" كَيْفَ أَنَّهُمْ أَلْقَوْا بِهِ "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُم". أَرَأَيْتُمْ هَوَانَ هَذَا عَلَى أَهْلِهِ فَأَلْقَوْهُ فِي مَزْبَلَةٍ، وَهَوَانَهُ عَلَيْكُمْ فَلَمْ يَرْضَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَنْ يَأْخُذَهُ بِشَيْءٍ. "فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكم".

مَا الَّذِي فَعَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ اسْتَغَلَّ الْمَوْقِفَ، وَهَكَذَا تَكُونُ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْتِغْلَالَ الْمَوَاقِفِ، مَعْرِفَةُ حَالِ الْمَدْعُوِّ وَمَا هُوَ مَشْغُولٌ بِهِ وَمَا الَّذِي يَقْبَلُهُ عِنْدَ الْحَدِيثِ عَنْهُ.

صارتَ مُشْرِقًا وَصِرْتَ مُغْرِبًا شَتَّانَ بَيْنَ مُشْرِقٍ وَمُغْرِبِ.

يَجْلِسُ الْجَالِسُ وَهُوَ مَهْمُومٌ فِي أُمُورِ الْحَيَاةِ وَنُكَلِّمُهُ فِي مَسْأَلَةٍ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي لَا عَلَاقَةَ لَهُ بِهَا أَصْلًا فَيَنْفِرُ وَيَمَلُّ وَيَنْشَغِلُ عِنْدَكَ وَتَضِيعُ أَنْتَ الْأَوْقَاتُ وَالطَّاقَةُ فِي غَيْرِ مَا فَائِدَةٍ وَلَا عَائِدَةٍ. لِذَا يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ."

وَالْفِقْهُ فِي الدِّينِ هُوَ الْفَهْمُ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هِيَ وَظِيفَةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَطَرِيقَةُ مَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ. فإِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ مَعْبُودَهُ وَعَرَفَ نَبِيَّهُ وَعَرَفَ دِينَهُ، وَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْفِيقِ لِذَلِكَ فَإِنَّ عَلَيْهِ السَّعْيَ فِي إِنْقَاذِ إِخْوَانِهِ: إِنْقَاذِ أَهْلِهِ، إِنْقَاذِ آبَائِهِ، إِنْقَاذِ عَمَّاتِهِ وَخَالَاتِهِ؛ لِأَنَّهُمْ سَيَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَرَاهُمُ الْإِنْسَانُ وَقَدْ أُخِذُوا ذَاتَ الشِّمَالِ فِي الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ. وَهُوَ وَاقِفٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقَدِّمَ لَهُمْ شَيْءٌ. الَّذِي مَنَعَ أَنْ تُنْجِيَهُمْ.

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَرْسَلَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَمَرَهُ بِالْجَهْرِ بِالدَّعْوَةِ مَاذَا قَالَ؟ قَالَ: "يَا آلَ هَاشِمَ، يَا آلَ عَبْدِ مَنَافٍ، يَا آلَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ."

وَهَذَا دَوْرُكَ أَنْتَ حِينَ تَدْعُو مَنْ تَدْعُو لَا تَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِكَ، وَلَكِنْ تَدْعُوهُ إِلَى نَفْسِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُنْجِيَهَا، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْ جَهْلِهَا، مِنْ أَجْلِ أَنْ يَأْخُذَهَا مِنْ بُعْدِهَا وَطَيْشِهَا وَزَيْغِهَا عَنْ رَبِّهَا إِلَى بَابِهِ وَطَرِيقِهِ وَجَنَابِهِ. وَمَا أَعْظَمَ الْقُرْبَ مِنَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. مَا أَعْظَمَ الْقُرْبَ مِنَ الرَّبِّ تَبَارَكَ

وَتَعَالَى. فَمَنْ صَارَ بِمُقَرَّبَةٍ مِنَ اللَّهِ فَقَدِ اسْتَغْنَى بِقُرْبِ اللَّهِ عَمَّنْ سِوَاهُ، وَهَذَا هُوَ الْغِنَى لِأَنَّ الْغِنَى عَلَى ضَرْبَيْنِ: غِنًى عَالٍ، غِنًى سَافِلٍ.

فَأَمَّا الْغِنَى الْعَالي: فَالْغِنَى بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَأَمَّا الْغِنَى السَّافِلُ: فَهُوَ الْغِنَى بِالْعَوَارِضِ، لِذَا مَنِ امْتَنَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ بِالْعِلْمِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَأْخُذَ بِمَنْ حَوْلِهِ إِلَى مَا تَعَلَّمَهُ. **"فَإِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَعَرَفَ نَبِيَّهُ وَعَرَفَ دِينَهُ وَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالتَّوْفِيقِ لِذَلِكَ فَإِنَّ عَلَيْهِ السَّعْيَ فِي إِنْقَاذِ إِخْوَانِهِ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ."** بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى فِكَاكِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ النَّارِ. بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْوُصُولِ إِلَى مَرْضَاةِ جَلَّ جَلَالُهُ وَالْإِكْرَامِ.

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ لَنَا فَضْلَ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَذَلِكَ لَمَّا أَمَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيًّا عَلَى خَيْبَرَ. **قَالَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ. وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ" متفق عليه.**

أَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا: يُصَلِّي صَلَاتَهُ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكَ، يَصُومُ صِيَامَهُ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكَ، يُزَكِّي زَكَاتَهُ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكَ، يَحُجُّ حَجَّهُ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكَ، يَبَرُّ وَالِدَيْهِ، كُلُّ ذَلِكَ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكَ. أَيُّ غِنًى بَعْدَ ذَلِكَ؟ وَأَيُّ فَضْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ؟

"وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا."رواه مسلم. فَانْظُرْ إِلَى كُلِّ مَنْ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الَّذِي دَعَوْتَهُ: وَلَدُهُ وَوَلَدُ وَلَدِهِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. هَؤُلَاءِ أَعْمَالُهُمْ تَأْتِي فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. **"يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ." رواه مسلم.**

الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَتْ بِالْأَمْرِ الْهَيِّنِ وَلَا بِالْيَسِيرِ بَلْ إِنَّهَا مِنْ أَشَقِّ مَا يُتَحَمَّلُ فِي مُوَاجَهَةِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ مُوَاجَهَةَ النَّاسِ لَيْسَتْ بِالْأَمْرِ الْهَيِّنِ لِذَا فَهِيَ تَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ لِأَنَّ الَّذِي يَأْمُرُ وَيَنْهَى يَكُونُ مُعَارِضًا لِلنَّاسِ فِيمَا يُحِبُّونَ وَفِيمَا يَرْغَبُونَ.

هُمْ يُحِبُّونَ التَّهَاوُنَ فِي أَمْرِ الْعِبَادَاتِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَدَمِ التَّهَاوُنِ، النَّاسُ يُحِبُّونَ إِطْلَاقَ الشَّهَوَاتِ وَهُوَ يُحَذِّرُهُمْ مِنْ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُعَانَدَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يُوَاجَهَ فَهُوَ يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ عَلَى الْأَذَى فِيمَا يَدْعُو إِلَيْهِ.

"الصَّبْرُ": حَبْسُ النَّفْسِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَحَبْسُهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَحَبْسُهَا عَنِ التَّصَخُّطِ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ." هَذَا تَعْرِيفُ الصَّبْرِ عُمُومًا **"فَيَحْبِسِ النَّفْسَ عَنِ التَّصَخُّطِ وَالتَّذَجُّرِ وَالْمَلَلِ وَيَكُونُ دَائِمًا نَشِيطًا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ**

وَتَعَالَى وَإِنْ أُوذِيَ لِأَنَّ أَذِيَّةَ الدَّاعِينَ إِلَى الْخَيْرِ مِنْ طَبِيعَةِ الْبَشَرِ إِلَّا مَنْ هَدَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَصَمَ."

"قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [الأنعام : ٣٤]" هَذِهِ سُنَّةٌ مَسْنُونَةٌ، وَنَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نُبِّئَ وَعَادَ إِلَى أُمِّنَا خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ لَهُ تَعَالَ إِلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ فَقَدْ كَانَ صَاحِبَ عِلْمِ التَّوْرَاةِ. فَلَمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ قَالَ: "لَوْ كُنْتُ فِيهَا جَذَعًا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ". أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ هُوَ النَّامُوسُ الْأَكْبَرُ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَى مُوسَى. وَقَالَ: "لَيْتَنِي أَكُونُ فِيهَا جَذَعًا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ". فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ" يَعْنِي مَاذَا يُخْرِجُونَنِي وَأَنَا مَبْعُوثٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُرْسَلٌ مِنْ لَدَيه. فَقَالَ: "مَا جَاءَ أَحَدٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ". سُنَّةٌ مَسْنُونَةٌ وَطَرِيقَةٌ مُتَّبَعَةٌ مَسْلُوكَةٌ أَنْ كُلَّ مَنْ صَارَ عَلَى هَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَطَرِيقَتِهِ فِي دَعْوَتِهِ إِلَى اللَّهِ لَا بُدَّ أَنْ يُؤْذَى. وَكُلَّمَا قَوِيَتِ الْأَذِيَّةُ وَالْإِيذَاءُ قَرُبَ النَّصْرُ لِأَنَّ الْإِيذَاءَ إِذَا اشْتَدَّ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الْمُوَاجَهَةِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. فَإِذَا مَا اشْتَدَّتِ الْمُوَاجَهَةُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ أَتَى نَصْرُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

"وَلَيْسَ النَّصْرُ مُخْتَصًّا بِأَنْ يُنْصَرَ الْإِنْسَانُ فِي حَيَاتِهِ وَيَرَى أَثَرَ دَعْوَتِهِ قَدْ صَارَ قَائِمًا بَيْنَ النَّاسِ" بَلْ قَدْ يَتَحَقَّقُ النَّصْرُ وَذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ الْمَرْءِ **"بِأَنْ**

يَجْعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ قَبُولًا لِمَا دَعَا إِلَيْهِ" "وَأَخْذًا به" وَأَخْذًا بِمَا سَعَى إِلَى تَأْصِيلِهِ **"وَتَمَسُّكًا بِهِ، فَإِنَّ هَذَا يُعْتَبَرُ نَصْرًا لِهَذَا الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ مَيِّتًا.**

فَعَلَى الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَتَحَلَّوْا بِالصَّبْرِ عَلَى دَعْوَتِهِمْ لَيْلًا وَنَهَارًا مِرَارًا وَتَكْرَارًا، يَصْبِرُون عَلَى مَا يَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، يَصْبِرُون عَلَى مَا يَعْتَرِضُ دَعْوَتَهُمْ، يَصْبِرُون عَلَى مَا يَعْتَرِضُهُمْ مِنَ الْأَذَى. وَهَذَا شَأْنُ الْمُرْسَلِينَ وَهَذَا شَأْنُ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَدْ أُوذِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ أُوذِيَ بِالْقَوْلِ وَبِالْفِعْلِ. **قَالَ تَعَالَى: {كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ}**[الذاريات : ٥٢] **وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ}**[الفرقان: ٣١]

وَلَكِنْ عَلَى الدَّاعِيَةِ أَنْ يُقَابِلَ ذَلِكَ بِالصَّبْرِ وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا}[سورة الإنسان: ٢٣] كَانَ مِنَ الْمُنْتَظَرِ أَنْ يُقَالَ فَاشْكُرْ نِعْمَةَ رَبِّكَ" وَلَكِنِ انْظُرْ مَا الَّذِي جَاءَ بَعْدَهَا: **{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [سورة الإنسان: ٢٣] وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ قَامَ بِهَذَا الْقُرْآنِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنَالَهُ مَا يَنَالُهُ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَى صَبْرٍ"** وَانْظُرْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَيْفَ كَانَ مُكَرَّمًا مَوْقُورًا قَبْلَ بَعْثَتِهِ فَكَانَ يُلَقَّبُ الصَّادِقَ الْأَمِينَ وَكَانَ مُشْرِكُوا مَكَّةَ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ فِي نِزَاعَاتِهِمْ بَلْ

كَانُوا يَأتَمِنُونَهُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، بَلْ رَضُوا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَوْجًا لِشَرِيفَةٍ مِنْ شَرِيفَاتِ أَقْوَامِهَا كُلُّ ذَلِكَ قَبْلَ بَعْثَتِهِ.

وَأَمَّا بَعْدَ بَعْثَتِهِ فَقَالُوا: سَاحِرٌ، وَقَالُوا شَاعِرٌ، وَقَالُوا مَجْنُونٌ، {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [الفرقان : ٥]

وَقَالُوا كَذَّابٌ أَشِرٌ، كُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّهُ أَتَى بِالْحَقِّ وَهَكَذَا الصِّرَاعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَأُوذِيَ **"النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" فَعَلَى الدَّاعِيَةِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَكُونَ صَابِراً مُحْتَسِباً.**

وَالصَّبْرُ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

١. **صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ"** ائْتِمَارًا وَإِتْيَاناً وَالْتِزَاماً.
٢. **"صَبْرٌ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ."** انْتِهَاءاً وَتَرْكاً وَابْتِعَاداً.
٣. **"صَبْرٌ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الَّتِي يُجْرِيهَا مِمَّا لَا كَسْبَ لِلْعِبَادِ فِيهِ أَوْ مِمَّا يُجْرِيهِ اللَّهُ عَلَى أَيْدِي بَعْضِ الْعِبَادِ مِنَ الْإِيذَاءِ وَالِاعْتِدَاءِ"** تَنْزِلُ أَقْدَارُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ مِنْهَا مَا لَا يَكُونُ لَهُ دَخْلٌ لِأَحَدٍ فِيهِ كَالْمَرَضِ وَغَيْرِهِ وَالْجَائِحَةِ، وَمِنْهَا مَا يَكُونُ لِلنَّاسِ دَخْلٌ فِيهِ كَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَتَنَاوُلِ الْعِرْضِ، وَتَسْلِيطِ مَنْ لَهُ الشَّوْكَةُ وَالشَّأْنُ، هَذَا كُلُّهُ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَقَدَرُ اللَّهِ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ.

قَدْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَإِنْ كَانَ فِي ظَاهِرِهِ مُرٌّ وَلَكِنْ هُوَ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ وَالْعَسَلِ بَعْضُ الصَّبْرِ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)} [البقرة : ١٥٥-١٥٦]

مَا الْعُقْبَى؟ {أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة : ١٥٧]

الصَّبْرُ يُرِيحُ الْقَلْبَ، وَيُهَدِّئُ النَّفْسَ وَيُطَيِّبُ الْخَاطِرَ وَالْبَالَ، وَأَمَّا الدَّجَرُ فَيُثِيرُ الْكَوَامِنَ وَيَأْتِي بِالْبَلابِنِ وَيُصْبِحُ الْإِنْسَانُ مُضْطَرِباً غَيْرَ سَاكِنٍ وَلَا مُسْتَقِرٍّ، وَلَوْ صَبَرَ لَكَانَ خَيْراً لَهُ.

فَالصَّبْرُ يَكُونُ مِنْ أَنْفَعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُ فِي الْإِتْيَانِ بِأَوَامِرِ اللَّهِ فِعْلاً وَامْتِثَالاً، وَالِابْتِعَادِ عَنْ نَوَاهِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ انْتِهَاءاً وَابْتِعَاداً، وَصَبْراً عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْمُؤْلِمَةِ، فَإِذَا مَا صَبَرَ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعَوِّضُهُ خَيْراً مِمَّا فَقَدَهُ، مَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخَطُ.

إِنَّ مِنْ أَوْجَبِ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَهْتَمَّ بِهَا وَأَنْ يَحْرِصَ عَلَيْهَا أَمْرُ الْعَقِيدَةِ.

أَمْرُ الْعَقِيدَةِ مِنْ أَوْجَبِ الْوَاجِبَاتِ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْمُهِمَّاتِ، وَلِمَا لَا وَالْعَقِيدَةُ هِيَ أُصُولُ الدِّينِ وَهِيَ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ طَرِيقُ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. إِذْ سَلَامَةُ الْمُعْتَقَدِ وَالاتِّبَاع عليهما الْمَدَارُ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ. وَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَأَنْعَمَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْهَا بِمَا يَسَّرَ لَهَا مِنْ أَئِمَّةِ الْهُدَى وَمَصَابِيحِ الدُّجَى الَّذِينَ أَنَارُوا الطَّرِيقَ لِلسَّائِرِينَ وَبَيَّنُوا مَا يَجِبُ وَمَا يَمْتَنِعُ وَمَا يَضُرُّهُ وَمَا يَنْفَعُهُ فِي دَقِيقِ الْأُمُورِ وَجَلِيلِهَا. فَجَزَاهُمُ اللَّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ.

وَمِنْ أُولَئِكَ الْأَئِمَّةِ وَأَشْهَرِهِمْ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ أَجْزَلَ اللَّهُ لَهُ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ وَأَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَقَدِ اجْتَهَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ الْحَقِّ بِدَلِيلِهِ وَجَاهَدَ عَلَى ذَلِكَ بِقَلَمِهِ وَلِسَانِهِ وَسِنَانِهِ حَتَّى أَنْقَذَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ أُمَمًا مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالْجَهَالَاتِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ.

وَهَذَا الْكِتَابُ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا: وَهُوَ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ وَأَدِلَّتُهَا مِنْ أَهَمِّ رَسَائِلِهِ وَأَجْمَعِهَا فِي بَيَانِ أُصُولِ الْعَقِيدَةِ، جَمَعَ فِيهَا رَحِمَهُ اللَّهُ مَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالْعَمَلِ فِي أَهَمِّ أُمُورِ دِينِهِ مَعَ تَحْذِيرِ الْمُسْلِمِ مِنْ شُبَهِ دُعَاةِ الشِّرْكِ الَّذِينَ يُشَبِّهُونَ عَلَى النَّاسِ بِزَعْمِهِمْ قَصْرَ الشِّرْكِ بِاللَّهِ عَلَى الشِّرْكِ فِي الرُّبُوبِيَّةِ. فَبَيَّنَ خَطَأَهُمْ وَرَدَّ شُبَهَهُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ الْقَبُولَ حَتَّى انْتَشَرَتْ وَذَاعَتْ وَصَارَتْ مَحَطَّةَ نَظَرِ النَّاظِرِينَ وَشَرْحَ الشَّارِحِينَ. فَلَا يَزَالُ أَهْلُ الْعِلْمِ يَشْرَحُونَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ، وَيُنَقِّبُونَ عَمَّا فِيهَا مِنْ ذَخَائِرَ وَنَفَائِسَ وَيُبَيِّنُوهَا لِلطُّلَّابِ لِيَبْدَأُوا بِهَا طَرِيقَ الطَّلَبِ سَائِرِينَ فِي هَذَا الطَّرِيقِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ وَبَصِيرَةٍ.

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ: **"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:**

الأولى: الْعِلْمُ وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ وَمَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ.

الثانية: الْعَمَلُ بِهِ" أَيِ الْعَمَلُ بِهَذَا الْعِلْمِ الَّذِي تَعَلَّمْنَاهُ.

" الثالثة: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ" أَيِ الدَّعْوَةُ إِلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ الَّذِي تَعَلَّمْنَاهُمَا وَقُمْنَا بِهِمَا.

" الرابعة: الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى سَبِيلِه" فِي سَبِيلِ مَا تَعَلَّمْنَاهُ وَمَا عَمِلْنَاهُ وَمَا دَعَوْنَا إِلَيْهِ.

"وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)} [العصر : ١-٣]

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ". وَقَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَدْ بَوَّبَ بَابًا سَمَّاهُ "بَابُ الْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ" وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [محمد : ١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ." هَذَا مِنْ أَوَّلِ مَا بَدَأَ بِهِ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً وَأَسْكَنَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ وَأَدْخَلَهُ إِلَيْهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا سَابِقَةِ عَذَابٍ، وَأَلْحَقَنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ وَبِالرَكْبِ الصَّالِحِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.

"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ" أَمْرٌ بِالْعِلْمِ أَوِ اسْتِهْلَالٌ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ أَجْلِ التَّنْبِيهِ وَالْإِرْشَادِ. **"رَحِمَكَ اللَّهُ"** دَعْوَةٌ دَعَا بِهَا الْمُصَنِّفُ قَبْلَ أَنْ يَبْتَدِئَ كَلَامَهُ الَّذِي يَنْبَغِي عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَعْلَمَهُ أَنَّهُ **"يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:"** الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُحِيطَ بِهِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ هَذِهِ الْمَسَائِلَ الْأَرْبَعَ.

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى وَهِيَ **"الْعِلْمُ"** وَالْعِلْمُ هُنَا لَيْسَ هُوَ الْعِلْمُ الثَّقَافِيُّ وَلَا هُوَ الْعِلْمُ التَّجْرِيبِيُّ وَلَا هُوَ الْعِلْمُ النَّظَرِيُّ وَإِنَّمَا هُوَ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ **"وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ وَمَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ."** هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ تَقُومُ عَلَى الدَّلِيلِ لَا عَلَى الْعَقْلِ وَالظَّنِّ.

وَالْأَدِلَّةُ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْعِلْمِ أَدِلَّةٌ مُتَكَاثِرَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَذَكَرَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ مَا الْمَقْصُودُ بِالْعِلْمِ، وَمَا الْمَقْصُودُ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ نَبِيِّهِ وَمَعْرِفَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَمَا الْمَقْصُودُ بِالْعَمَلِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ، وَمَا الْمَقْصُودُ بِالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا، وَمَا الْمَقْصُودُ بِالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى فِي سَبِيلِ ذَلِكَ. بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ ذَلِكَ قَدَّمَ الدَّلِيلَ عَلَيْهِ فَاسْتَدَلَّ عَلَى مَا مَرَّ ذِكْرُهُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **{وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)} [العصر : ١-٣]** فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَقْسَمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِالْعَصْرِ الَّذِي هُوَ الزَّمَانُ أَوْ بِالْعَصْرِ الَّذِي هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ عَلَى أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي خَيْبَةٍ وَخُسْرٍ مَهْمَا كَثُرَ مَالُهُ وَتَعَدَّدَ وَتَنَوَّعَ أَوْلَادُهُ وَعَظُمَ قَدْرُهُ وَشَرَفُهُ هُوَ فِي خُسْرٍ إِلَّا مَنْ جَمَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ الْأَرْبَعَةَ:

- الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: **"الْإِيمَانُ: وَيَشْمَلُ كُلَّ مَا يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ اعْتِقَادٍ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ نَافِعٍ."** الْإِيمَانُ: هُوَ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ شَكًّا وَلَا تَرَدُّدًا فِيمَا تَعَلَّقَ بِأَمْرِ الْعَقِيدَةِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، فَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ مَا يَكُونُ سَبَبَ خُرُوجِ الْمَرْءِ مِنَ الْخُسْرانِ.

- السَّبَبُ الثَّانِي الَّذِي يُخْرِجُ الْمَرْءَ مِنَ الْخُسرانِ: **"العَمَلُ الصالِحُ"** الْعَمَلُ بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ يَعْنِي الْعِلْمَ الَّذِي تَعَلَّمَهُ الْمَرْءُ يُحَوِّلُهُ إِلَى عَمَلٍ **"وَهُوَ كُلُّ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ بِأَنْ يَكُونَ فَاعِلُهُ لِلَّهِ مُخْلِصًا وَلِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَابِعًا"**. فَهُمَا شَرْطَانِ فِي الْعَمَلِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ صَالِحًا أَنْ يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَنْ يُتَابَعَ فِيهِ عَلَى هَدْيِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ بَابِ {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام : ١٦٢]
- بَعْدَ تَحْصِينِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَى ذَلِكَ الْعِلْمِ يَأْتِي الْأَمْرُ الثَّالِثُ مِنْ أُمُورِ النَّجَاةِ مِنَ الْخُسْرَانِ: وَهُوَ **"التَّوَاصِي بِالْحَقِّ"** وَذَلِكَ بِأَنْ يَتَوَاصَى الْمَرْءُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ **"عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَالْحَثِّ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ"** يُوصِي بَعْضُنَا بَعْضًا بِالتَّمَسُّكِ بِالْحَقِّ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَالْعَمَلِ الَّذِي يُحَوِّلُ الْحَقَّ إِلَى وَاقِعٍ يَحْيَاهُ النَّاسُ.
- السَّبَبُ الرَّابِعُ مِنْ أَسْبَابِ الْخُرُوجِ مِنَ الْخُسْرَانِ: **"التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ"** وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ إِذَا دُعُوا إِلَى مَا مَعَهُمْ مِنَ الْحَقِّ حَدَثَتِ الْمُوَاجَهَةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَيْسَ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ. فَهَنَا يَأْتِي التَّوَاصِي بِالصَّبْرِ **"بِأَنْ يُوصِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ عَلَى فِعْلِ أَوَامِرِ اللَّهِ، وَتَرْكِ مَحَارِمِ اللَّهِ وَتَحَمُّلِ أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤْلِمَةِ"**.

"وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ هُمَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا قِوَامُ الْأُمَّةِ وَصَلَاحُهَا وَنَصْرُهَا وَحُصُولُ الشَّرَفِ وَالْفَضِيلَةِ لَهَا" فَبِغَيْرِ أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ نَشِيعُ الْفَسَادَ وَيَقِلُّ الْخَيْرُ وَتُعْدَمُ صُورَةُ الْحَقِّ وَتَبْدُو صُورَةُ الْبَاطِلِ ظَاهِرَةً بَادِيًا.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ فَضْلِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم} [آل عمران : ١١٠]**

بَعْدَ أَنْ سَاقَ الْمُؤَلِّفُ السُّورَةَ قال: **"قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ"**. يَعْنِي لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْقُرْآنِ وَحْيٌ غَيْرَ هَذِهِ السُّورَةِ لَكَفَتْهم.

"وَقَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ" فِي مَسْأَلَةِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ: **"بَابٌ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ" وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ} [محمد : ١٩]. فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.**

قال الشارِح رحمه الله: **"الشَّافِعِيُّ: هوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ شَافِعٍ الْهَاشِمِيُّ الْقُرَشِيُّ وُلِدَ فِي غَزَّةَ سَنَةَ خَمْسِينَ وَمِئَةٍ مِنَ هِجْرَةِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُوُفِّيَ بِمِصْرَ سَنَةَ أَرْبَعٍ**

وَمِئَتَيْنِ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ." فَمَاتَ عَنْ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً وَقَدْ جَمَعَ مِنَ الْعِلْمِ مَا اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ. وَهَذَا مِنْ تَوْفِيقِ اللَّهِ وَتَسْدِيدِهِ أَنْ يَعِيشَ الرَّجُلُ أَعْوَامًا يَسِيرَةً وَلَكِنْ يُخَلِّفُ فِيهَا أَعْمَالًا عَظِيمَةً وَيُخَلِّفُ فِيهَا عُلُومًا غَزِيرَةً. وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

"قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ".

قال الشارِح رحمه الله: **"مُرَادُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ كَافِيَةٌ لِلْخَلْقِ فِي الْحَثِّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِدِينِ اللَّهِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْأَذَى فِي سَبِيلِ ذَلِكَ وَلَيْسَ مُرَادُهُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ كَافِيَةٌ لِلْخَلْقِ فِي جَمِيعِ الشَّرِيعَةِ"** يَعْنِي هَذِهِ السُّورَةَ حُجَّةٌ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ. وَقَوْلُهُ **"لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ"** لِأَنَّ الْعَاقِلَ الْبَصِيرَ إِذَا سَمِعَ هَذِهِ السُّورَةَ أَوْ قَرَأَهَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْعَى إِلَى تَخْلِيصِ نَفْسِهِ مِنَ الْخُسْرَانِ وَذَلِكَ بِالتَّصَافِي بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعَةِ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ.

بَعْدَ أَنْ سَاقَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ وَعَقَّبَ عَلَيْهَا بِقَوْلِ الشَّافِعِيِّ سَاقَ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِمَا جَاءَ عَنِ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ حِينَ بَوَّبَ بَابًا فِي مُصَنَّفِهِ وَهُوَ الْمُسْنَدُ الصَّحِيحُ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسُنَنِهِ وَأَيَّامِهِ قَالَ الْبُخَارِيُّ:

"بَابٌ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ"

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْبَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى: **{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ} [محمد : ١٩]. فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الْبُخَارِيُّ: هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْبُخَارِيُّ وُلِدَ بِبُخَارَى فِي شَوَّالٍ سَنَةَ أربعٍ وتسعينَ وَمِئَةٍ وَنَشَأَ يَتِيمًا فِي حِجْرِ وَالِدَتِهِ وَتُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي خَرْتَنْكِ بَلْدَةٍ عَلَى فَرْسَخَيْنِ مِنْ سَمَرْقَنْدَ لَيْلَةَ عِيدِ الْفِطْرِ سَنَةَ سِتٍ وخَمسينَ وَمِئَتَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.**

اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وُجُوبِ الْبُدَاءَةِ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَهَذَا دَلِيلٌ أَثَرِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْلَمُ أَوَّلًا ثُمَّ يَعْمَلُ ثَانِيًا. وَهُنَاكَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ نَظَرِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَوْلَ أَوِ الْعَمَلَ لَا يَكُونُ صَحِيحًا مَقْبُولًا حَتَّى يَكُونَ عَلَى وِفْقِ الشَّرِيعَةِ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ أَنَّ عَمَلَهُ عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْعِلْمِ. وَلَكِنْ هُنَاكَ أَشْيَاءُ يَعْلَمُهَا الْإِنْسَانُ بِفِطْرَتِهِ كَالْعِلْمِ بِأَنَّ اللَّهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنَّ هَذَا قَدْ فَطَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْخَلْقَ عَلَيْهِ وَلِهَذَا لَا يَحْتَاجُ الْمَرْءُ إِلَى عَنَاءٍ كَبِيرٍ فِي التَّعَلُّمِ.

أَمَّا الْمَسَائِلُ الْجُزْئِيَّةُ الْمُنْتَشِرَةُ فَهِيَ الَّتِي تَحْتَاجُ إِلَى تَعَلُّمٍ وَتَكْرِيسِ جُهُودٍ."

مِنْ هَذَا الْبَابِ نَأْخُذُ قَاعِدَةً دَعْوِيَّةً وَهِيَ أَنَّ الْبَيَانَ الْعِلْمِيَّ مُقَدَّمٌ عَلَى الْبَيَانِ الْعَمَلِيِّ. يَعْنِي قَبْلَ أَنْ تَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ السُّنَّةِ وَبِخَاصَّةٍ تِلْكَ الَّتِي لَا عِلْمَ لِلنَّاسِ بِهَا فَلَا تَفْجَعِ النَّاسَ بِتَطْبِيقِ هَذِهِ السُّنَّةِ مِنْ غَيْرِ مَا بَيَانٍ عِلْمِيٍّ لِأَنَّ الْبَيَانَ الْعِلْمِيَّ هُوَ تَوْطِئَةٌ لِلْعَمَلِ بِهَذِهِ السُّنَّةِ، فَإِذَا مَا وَطَّأْنَا هَذِهِ السُّنَّةَ بِبَيَانٍ عِلْمِيٍّ وَبَيَّنَّا لِلنَّاسِ أَنَّهَا مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدَّمْنَا الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ شَرَعْنَا فِي الْعَمَلِ لَمْ يَأْتِ الْعَمَلُ مُسْتَغْرَبًا، وَأَمَّا مَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ صِغَارِ طُلَّابِ الْعِلْمِ حِينَ يَقَعُ عَلَى أَثَرٍ فِيهِ هَدْيٌ وَسُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مَعْرُوفَةٍ وَلَا مَشْهُورَةٍ فَيَقُومُ بِتَطْبِيقِهَا دَفْعَةً وَاحِدَةً وَيُلْزِمُ النَّاسَ بِعَمَلِهَا وَالْقِيَامِ بِهَا مِنْ غَيْرِ مَا تَوْطِئَةٍ عِلْمِيَّةٍ لِهَؤُلَاءِ الْمَدْعُوِّينَ إِلَيْهَا وَمِنْ غَيْرِ بَيَانٍ عِلْمِيٍّ لِلْمُجْتَمَعِ الَّذِي سَتُطَبَّقُ فِيهِ هَذِهِ السُّنَّةُ فَيَحْدُثُ الصِّدَامُ بَيْنَ السُّنَّةِ وَالْعَوَامِ وَهَذَا مِمَّا لَا يُحْمَدُ عُقْبَاهُ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ عَدَمُ مُرَاعَاةِ تَقْدِيمِ الْعِلْمِ عَلَى الْعَمَلِ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ قَالَ: **"اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلَاثِ مَسَائِلَ وَيَجِبُ عَلَيْهِمُ الْعَمَلُ بِهِنَّ:**

الْأُولَى: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا

إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦)} [المزمل : ١٥-١٦]

"الثَّانِيَةُ" أَيِ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي يَجِبُ تَعَلُّمُهَا: **"أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدٌ لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن : ١٨]**

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللَّهَ لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة : ٢٢]

هَذِهِ الْمَسَائِلُ الَّتِي ذَكَرَهَا إِجْمَالًا شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَسَائِلُ تَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ.

"الْأُولَى: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا" هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي عَرَضَ الْقُرْآنُ الدليلَ السَّمْعِيَّ وَالْعَقْلِيَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ لَا يَمُارَ فِيهَا **"فَقَالَ سُبْحَانَهُ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم**

مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ} [الأنعام : ٢]." هوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ هُوَ وَحْدَهُ، لَا أَحَدَ غَيْرَهُ، وَلَا أَحَدَ سِوَاهُ.

"وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} [الأعراف : ١١]." فَخَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ وَصَوَّرَهُ فِي رَحِمِ أُمِّهِ وَبَيَّنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَصْلَ خِلْقَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ **"فَقَالَ سُبْحَانَهُ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} [الحجر : ٢٦]."** وَهَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ يَكُونَ بَشَرًا ثُمَّ يَكُونَ مِنْ بَعْدِهِ نَسْلٌ يَنْتَشِرُونَ فِي الْآفَاقِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ مُبَيِّنًا هَذِهِ النِّعْمَةَ وَمُمْتَنًّا عَلَى خَلْقِهِ بِهَذِهِ الْمِنَّةِ: **{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ} [الروم : ٢٠]**

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: **{خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [الرحمن : ١٤]**

وَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ صِفَاتِهِ فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الزمر : ٦٢]

وَأَكَّدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ مَا يَعْمَلُهُ الْإِنْسَانُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تِلْكَ الطَّائِرَاتُ وَتِلْكَ السُّفُنُ وَالْغَوَّاصَاتُ، وَتِلْكَ الْأَبْرَاجُ وَالْعِمَارَاتُ هِيَ فِي أَصْلِهَا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْإِنْسَانَ وَهُوَ الَّذِي هَدَاهُ وَأَرْشَدَهُ إِلَى تِلْكَ. وَلَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا. لَوْلَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا رَأَيْتَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَهَذِهِ هي

الْبَهَائِمُ الْعَجَمَاتُ وَالْحَيَوَانَاتُ فِي الْغَابَاتِ مُنْذُ أَنْ خَلَقَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهِيَ عَلَى صُورَةٍ وَاحِدَةٍ فِي لِبَاسِهَا وَفِي سِفَادِهَا وَفِي تَنَاكُحِهَا وَفِي تَوَالُدِهَا وَفِي مَأْكَلِهَا وَمَشْرَبِهَا وَمَسْكَنِهَا لَمْ تَتَغَيَّرْ وَلَمْ تُغَيِّرْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ إِلَّا مَا قَامَ بِهِ الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ مِنْ تَغْيِيرٍ لِمَا تَأْكُلُهُ وَتَشْرَبُهُ، وَأَمَّا هِيَ بِذَاتِهَا فَلَا تَمْلِكُ تَغْيِيرًا وَلَا تَبْدِيلًا وَلَا تَحْوِيلًا.

فَمَنِ الَّذِي أَبْدَعَ، مَنِ الَّذِي خَلَقَ، مَنِ الَّذِي مَكَّنَ، مَنِ الَّذِي هَيَّأَ هَذَا الَّذِي تَرَاهُ بَيْنَ يَدَيْكَ؟ إِنَّهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات : ٩٦]** أَيْ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ أَعْمَالَكُمْ. فَهَذِهِ السُّفُنُ وَهَذِهِ الطَّائِرَاتُ وَهَذِهِ الْفَضَائِيَّاتُ كُلُّ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. بَيَّنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ هَذَا الْخَلْقَ لَهُ غَايَةٌ لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْخَلْقَ سُدًى وَلَنْ يَتْرُكَهُمْ هَمَلًا وَإِنَّمَا خَلَقَهُمْ لِغَايَةٍ عَظِيمَةٍ وَلِمُهِمَّةٍ جَسِيمَةٍ فَقَالَ سُبْحَانَهُ:**{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات : ٥٦]** فَهَذَا هُوَ الدَّلِيلُ السَّمْعِيُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَنَا.

"أَمَّا الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا فَقَدْ جَاءَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} [الطور : ٣٥]

فَالْإِنْسَانُ لَمْ يَخْلُقْ نَفْسَهُ لِأَنَّهُ قَبْلَ وُجُودِهِ كَانَ عَدَمًا وَالْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءٍ وَمَا لَيْسَ بِشَيْءٍ لَا يُوجِدُ شَيْئًا لَمْ يَخْلُقْهُ أَبُوهُ وَلَا أُمُّهُ وَلَا أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَأْتِيَ صُدْفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ لِأَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ؛وَلِأَنَّ وُجُودَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى هَذَا النِّظَامِ الْبَدِيعِ وَالتَّنَاسُقِ الْمُتَآلِفِ يَمْنَعُ مَنْعًا بَاتًّا أَنْ يَكُونَ صُدْفَةً إِذِ الْمَوْجُودُ صُدْفَةً لَيْسَ عَلَى نِظَامٍ فِي أَصْلِ وُجُودِهِ" فَكَيْفَ يَكُونُ مُنْتَظِمًا حَالَ بَقَائِهِ وَتَطَوُّرِهِ. يَعْنِي أَصْلُهُ لَا دَخْلَ لَهُ فِيهِ فَبِالتَّالِي فَرْعُهُ كَذَلِكَ.

"فَالْمَوْجُودُ صُدْفَةً لَيْسَ عَلَى نِظَامٍ فِي أَصْلِ وُجُودِهِ" فَكَيْفَ يَكُونُ مُنْتَظِمًا حَالَ بَقَائِهِ وَتَطَوُّرِهِ. فَتَعَيَّنَ بِهَذَا أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ "فَلَا خَالِقَ وَلَا آمِرَ إِلَّا اللَّهُ." قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا ذَلِكَ: **{أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} [الأعراف : ٥٤]**. وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَمْ يَجْعَلْ هَذَا الْأَمْرَ عَلَى غَيْرِ اسْتِقْرَارٍ بَلْ حَتَّى الْكَفَرَة يُقِرُّونَ بِذَلِكَ، **"فَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ أَنْكَرَ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَّا عَلَى وَجْهِ الْمُكَابَرَةِ كَمَا حَصَلَ مِنْ فِرْعَوْنَ، وعِنْدَمَا سَمِعَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ فَبَلَغَ قَوْلَهُ تَعَالَى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)} [الطور : ٣٥-٣٧]**

وَكَانَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكًا فَقَالَ: "كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، وَذَلِكَ أَوَّلُ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي" أخرجه البخاري ومسلم."

فَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَدَلِّ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْخَلْقَ لَهُ خَالِقٌ وَهَذَا الْوُجُودَ لَهُ مُوجِدٌ، وَمَا خَرَجَ عَلَيْنَا أَحَدٌ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ حِينَمَا اشْتَدَّ الْجَوُّ بَرْدًا فَقَالَ سَأُدْفِئُ لَكُمُ الْجَوَّ، وَمَا خَرَجَ عَلَيْنَا أَحَدٌ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ حِينَمَا اشْتَدَّتْ حَرَارَةُ الشَّمْسِ وَكَادَ النَّاسُ أَنْ يَمُوتُوا حَرًّا وَقَالَ أَنَا أَكْفِيكُمْ هَذِهِ. فَلْيَقِفِ الْكُلُّ عَاجِزًا أَمَامَ قُدْرَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

"أَدِلَّةُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كَثِيرَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ." إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْخَالِقُ وَكَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ. فَقَدْ قَدَّمْنَا أَدِلَّةَ كَوْنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَالِقًا، وَأَمَّا كَوْنُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَازِقًا فَقَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَدِلَّةٌ مُتَكَاثِرَةٌ عَلَيْهِ فَقَالَ تَعَالَى:**{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات : ٥٨]**

وَقَالَ تَعَالَى: {۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ} [سبإ : ٢٤]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ} [يونس : ٣١]. هَذَا كَلَامُ الْكَفَرَةِ لَا كَلَامُ أَهْلِ الْإِيمَانِ. فَأَهْلُ الْكُفْرِ يُقِرُّونَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ إِذَا اشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ هَرَعُوا إِلَى

مَالِكِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ. يَعْنِي فِي حَالِ الرَّخَاءِ هُمْ مَشْغُولُونَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ وَعِنْدَ الشِّدَّةِ لَا يَلْجَأُونَ إِلَى صَنَمٍ، وَلَا إِلَى وَثَنٍ، وَلَا إِلَى مَلِكٍ وَلَكِنْ يَلْجَأُونَ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. فَهَذَا مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى كَوْنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَازِقًا مِنَ الْكِتَابِ.

"وَأَمَّا مِنَ السُّنَّةِ فَمِنْهَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" فِي أَمْرِ الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ: **"يُبْعَثُ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ" أخرجه البخاري ومسلم.**

فَالرِّزْقُ يُكْتَبُ قَبْلَ الْخَلْقِ، فَيُكْتَبُ قَبْلَ خَلْقِ الْخَلْقِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَيُكْتَبُ قَبْلَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَهُوَ فِي رَحِمِ أُمِّهِ.

"وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ رَزَقَنَا فَلِأَنَّنَا لَا نَعِيشُ إِلَّا عَلَى طَعَامٍ وَشَرَابٍ، الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ خَلَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)} [الواقعة : ٦٣-٧٠]

"فَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَيَانٌ أَنَّ رِزْقَنَا طَعَامًا وَشَرَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" فَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي يُخْرِجُ النَّبَاتَ مِنَ الْأَرْضِ وَيُنْزِلُ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا دَخْلَ لِلْإِنْسَانِ فِي ذَلِكَ إِلَّا ذَلِكَ التَّصَرُّفُ بَعْدَ خُرُوجِه، بَعْدَ صَيْرُورَتِهِ نَبَاتًا، وَبَعْدَ صَيْرُورَتِهِ ثَمَرَةً، وَبَعْدَ صَيْرُورَتِهِ شَجَرَةً، فَأَنَّى لَهُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنَ اللَّهِ.

هَذَا الْأَمْرُ يَعْنِي اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا هَلْ تَرَكَنَا هَكَذَا؟ لَا **"لَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا"**. يَعْنِي خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا لِعِلَّةٍ وَغَايَةٍ. مَا هَذِهِ الْعِلَّةُ وَمَا هَذِهِ الْغَايَةُ؟ بَيَّنَهَا اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ} [المؤمنون : ١١٥-١١٦]

وقوله: {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)} [القيامة : ٣٦-٤٠]

أَتَحْسَبُونَ أَنَّ هَذَا الْخَلْقَ وَهَذَا الْكَوْنَ وَهَذَا الْمُلْكَ قَدْ أُنْشِئَ عَبَثًا وَأَقَامَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَعِبًا، وَأَنَّكُمْ تَفْعَلُونَ فِيهِ مَا تَفْعَلُونَ ثُمَّ تَمُوتُونَ لَا حِسَابَ وَلَا عِقَابَ، لَا لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَإِنَّمَا سَتَرْجِعُونَ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَسَتُسْأَلُونَ وَسَتَعْرِفُونَ الْحِكْمَةَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَلَقَكُمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

"{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥)} [المؤمنون : ١١٥] هَذَا لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَلِيقُ بِالْمَلِكِ الْحَقِّ الْوَكِيلِ لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ.

فَالْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ تُبَيِّنُ هَذَا الْأَمْرَ بَيَانًا شَافِيًا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا وَأَمَّا الْعَقْلُ فَهُوَ يُفِيدُ ذَلِكَ **" فَلِأَنَّ وُجُودَ هَذِهِ الْبَشَرِيَّةِ لِتَعِيشَ ثُمَّ تَتَمَتَّعَ كَمَا تَتَمَتَّعُ الْأَنْعَامُ ثُمَّ تَمُوتَ إِلَى غَيْرِ بَعْثٍ وَلَا حِسَابٍ أَمْرٌ لَا يَلِيقُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَلْ هُوَ عَبَثٌ مَحْضٌ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ هَذِهِ الْخَلِيقَةَ وَيُرْسِلَ إِلَيْهَا الرُّسُلَ، وَيُبِيحَ لَنَا دِمَاءَ الْمُعَارِضِينَ الْمُخَالِفِينَ لِلرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثُمَّ تَكُونَ النَّتِيجَةُ لَا شَيْءَ هَذَا مُسْتَحِيلٌ عَلَى حِكْمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى."** فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا بَنَى مَصْنَعًا وَعَدَّ فِيهِ مِنَ الْآلَاتِ مَا أَعَدَّ وَهَيَّأَ فِيهِ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا هَيَّأَ ثُمَّ دَعَا نَاسًا إِلَى الْعَمَلِ، فَدَخَلَ النَّاسُ بِلَا نِظَامٍ وَلَا عَمَلٍ، وَإِنَّمَا تُرِكَ لِكُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ وَإِذَا بِصَاحِبِ هَذَا الْمَصْنَعِ لَا يَأْبَهُ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَلَا يَتَأَثَّرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَيَلِيقُ ذَلِكَ بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يُوصَفُ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يُقَالُ إِلَّا أَنَّهُ مَجْنُونٌ إِذْ كَيْفَ يُعِدُّ هَذَا الْمَصْنَعَ الْهَائِلَ، وَكَيْفَ يَجْعَلُ هَذَا الْأَمْرَ الْعَظِيمَ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَتْرُكُهُ لِعَبَثِ الْعَابِثِينَ وَلَعِبِ اللَّاعِبِينَ مِنْ غَيْرِ مَا حِسَابٍ وَلَا كِتَابٍ وَلَا نِظَامٍ يُقِيمُ هَذَا الصَّرْحَ الْعَظِيمَ، فَهَذَا كُلُّهُ لَا يَلِيقُ بِأَحَدِ الْبَشَرِ فَكَيْفَ بِالْأَرْضِ وَمَا فِيهَا وَمَا عَلَيْهَا وَكَيْفَ بِالسَّمَاءِ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا مِنْ شُمُوسٍ وَأَقْمَارٍ وَنُجُومٍ وَمَجَرَّاتٍ

وَكَوَاكِبَ، وَكَيْفَ بِخَلْقِ اللهِ لِذَلِكَ الْمَخْلُوقِ الْعَظِيمِ وَهُوَ الْإِنْسَانُ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُتْرَكُ الْأَمْرُ هَكَذَا بِلَا حِسَابٍ وَلَا عِقَابٍ هَذَا لَا يَلِيقُ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، **"فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا مَعْشَرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ -أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-"** أَرْسَلَ اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **"رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِ رَبِّنَا وَيُزَكِّينَا وَيُعَلِّمُنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ كَمَا أَرْسَلَ إِلَى الْأُمَمِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَنَا"** لِأَنَّهُ مَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا وَكَانَ فِيهَا نَذِيرٌ **"قال الله تبارك وتعالى {وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر : ٢٤]. وَلَا بُدَّ أَنْ يُرْسِلَ اللَّهُ الرُّسُلَ إِلَى الْخَلْقِ لِتَقُومَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ وَلِيَعْبُدُوا اللَّهَ بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥)} [النساء : ١٦٣-١٦٥]**

فَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنْ أَجْلِ أَنْ نَعْبُدَهُ وَبَيَّنَ لَنَا الْغَايَةَ مِنَ الْخَلْقِ. فَكَيْفَ يَخْلُقُنَا لِعِبَادَتِهِ وَلَا يُبَيِّنُ لَنَا كَيْفَ نَعْبُدُهُ؟ **"وَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ بِمَا يَرْضَاهُ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ**

بَيَّنُوا لَنَا مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ وَمَا يُقَرِّبُنَا إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَبِذَلِكَ كَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ أَنْ أَرْسَلَ إِلَى الْخَلْقِ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ." وَقَدْ جَاءَ الدَّلِيلُ السَّمْعِيُّ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦)} [المزمل : ١٥-١٦]**

هَذَا الرَّسُولُ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِيُطَاعَ، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ. وَهَذَا حَقُّ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْدَ الْبَلَاغِ وَالْبَيَانِ مِنْ خِلَالِ الرُّسُلِ. يَعْنِي اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ عَذَرَ الْخَلْقَ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، فَلَيْسَ لَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عُذْرٌ وَلَا حُجَّةٌ. {رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء : ١٦٥]

فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَدُخُولُ الْجَنَّةِ مَرْهُونٌ بِطَاعَةِ الرُّسُلِ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: **{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢)** ۞ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)} [آل عمران : ١٣٢-١٣٣]**

يَعْنِي يَا مَنْ أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ رَسُولِي أَطِيعُوهُ، وَاعْلَمُوا أَنَّ سَبَبَ رَحْمَةِ اللَّهِ لَكُمْ هِيَ طَاعَتُكُمْ إِيَّاهُ، أَنَّ سَبَبَ دُخُولِكُمْ جَنَّةَ رَبِّكُمْ طَاعَةُ رَسُولِنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحِينَمَا تُطِيعُونَ الرَّسُولَ إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ تُسَارِعُونَ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ.

وَجَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَاعَةَ الرَّسُولِ شَرْطًا فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ:**{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [النساء : ١٣]** فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُعَانِدُونَ السُّنَّةَ وَلَا يَتَّبِعُونَهَا وَيَسْتَهْزِئُونَ بِمَنْ تَمَسَّكَ بِهَا وَلَا يَرَوْنَهَا مُلْزِمَةً نَقُولُ لَهُمْ: عُودُوا إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ، فَهَذِهِ الْآيَةُ شَارِطَةٌ شَرْطًا لَا يَتَحَقَّقُ الْمَشْرُوطُ إِلَّا بِهِ. فَدُخُولُ الْجَنَّةِ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ. قَالَ تَعَالَى:**{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} [النور : ٥٢]** فَتَحْقِيقُ الْفَوْزِ دُنْيَا وَآخِرَةً بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ: طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَبِخَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَحْقِيقِ تَقْوَاهُ. هَذِهِ الثَّلَاثُ هِيَ طَرِيقُ الْفَوْزِ دُنْيَا وَآخِرَةً. وَمَا أَعْظَمَ أَنْ يَتَّصِفَ الْمَرْءُ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ الثَّلَاثِ فَيَصِيرَ بِذَلِكَ قَرِينًا وَمُشَارِكًا وَسَائِرًا مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: **{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا} [النساء : ٦٩]**

وَقَوْلُهُ تَعَالَى يُبَيِّنُ الْفَوْزَ الْعَظِيمَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ: **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب : ٧١]** هَذَا لِمَنْ أَطَاعَهُ، أَمَّا مَنْ عَصَاهُ فَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَّا النَّارُ، لِأَنَّ عُصَاةَ الرُّسُلِ هُمْ أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ، وَأَتْبَاعَ الرُّسُلِ هُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ دَارًا لِأَوْلِيَائِهِ، وَجَعَلَ

دَارًا لِأَعْدَائِهِ. فَأَمَّا دَارُ أَوْلِيَائِهِ فَهِيَ الْجَنَّةُ وَأَمَّا دَارُ أَعْدَائِهِ فَهِيَ النَّارُ. وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ طَاعَتَهُ شَرْطًا فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى." فَقِيلَ: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي دَخَلَ النَّارَ." رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.**

فَمَنْ عَصَى الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ النَّارَ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا (١٦)} [المزمل : ١٥-١٦] فَلَمَّا عَصَى فِرْعَوْنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَذَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَخْذًا وَبِيلًا. وَكَذَلِكَ مَنْ عَصَى رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْخُذُهُ أَخْذًا وَبِيلًا. وَهُنَاكَ آيَاتٌ وَاضِحَاتٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ} [النساء : ١٤].**

وَالَّذِي يَعْصِي الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسِيرُ فِي غَيْرِ هُدًى بَلْ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ الضَّلَالَةِ، بَلْ ضَلَالُهُ ضَلَالٌ مُبِينٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ: **{وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا} [الأحزاب : ٣٦]**

وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا شَذَّ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ. **{وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [الجن : ٢٣]**

حَدِيثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى." فَقَالُوا: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى."**

"الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ فِي عِبَادَتِهِ أَحَدٌ بَلْ هُوَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ. وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن : ١٨]" فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن : ١٨]

"فَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَدْعُوَ الْإِنْسَانُ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا لَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا. وَاللَّهُ لَا يَنْهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَهُوَ لَا يَرْضَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى." فَاللَّهُ يَرْضَى الْإِيمَانَ وَلَا يَرْضَى الْكُفْرَ قَالَ تَعَالَى: **{إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر : ٧]**

يَعْنِي اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ يَرْضَى عَنِ الشَّاكِرِينَ وَيَرْضَى الشُّكْرَ مِنْهُمْ وَلَا يَرْضَى عَنِ الْكَافِرِينَ وَلَا يَرْضَى بِالْكُفْرِ مِنْهُمْ. وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: **{فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة : ٩٦]** فَمَهْمَا رضِي النَّاسُ عَنْهُ وَسَخِطَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَيْكَ فَمَا الَّذِي يَنْفَعُكَ؟ فَمَنْ

أَرْضَى اللَّهَ أَرْضَى اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَنْ سَخِطَهُ اللَّهُ أَسْخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ كُلَّ شَيْءٍ.

فَالْكُفْرُ وَالشِّرْكُ لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَلْ إِنَّمَا أَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ لِمُحَارَبَةِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِمَا، وَأَمَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى لَا يَنْتَشِرَ شِرْكُهُمْ فِي دُنْيَا اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَيَكُونُ هَذَا الشِّرْكُ فِتْنَةٌ مِنْ أَعْظَمِ الْفِتَنِ وَرَزِيَّةٌ وَبَلِيَّةٌ مِنْ أَعْظَمِ الْبَلَايَا فَقَالَ سُبْحَانَهُ: **{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال : ٣٩] وَإِذَا كَانَ اللَّهُ لَا يَرْضَى بِالْكُفْرِ وَالشِّرْكِ فَإِنَّ الْوَاجِبَ عَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَرْضَى بِهِمَا".** ارْضَ بِمَا رَضِيَ اللَّهُ وَاسْخَطْ مَا سَخِطَهُ اللَّهُ "لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ رِضَاهُ وَغَضَبَهُ تَبَعٌ لِرِضَا اللَّهِ وَغَضَبِهِ. فَيَغْضَبُ لِمَا يَغْضَبُ اللَّهُ منه، وَيَرْضَى بِمَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ اللَّهُ لَا يَرْضَى الْكُفْرَ وَلَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ لَا يَلِيقُ بِمُؤْمِنٍ أَنْ يَرْضَى بِهِمَا. وَالشِّرْكُ أَمْرُهُ خَطِيرٌ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:**{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء : ٤٨]** وَقَالَ سُبْحَانَهُ: **{إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [المائدة : ٧٢]**

الشِّرْكُ أَمْرُهُ عَظِيمٌ كَمَا أَنَّ الْعِرْضَ أَمْرُهُ عَظِيمٌ، فَالرَّجُلُ يَقْبَلُ مِنِ امْرَأَتِهِ أَلَّا تُحْسِنَ طَبْخًا وَأَنْ لَا تَهْتَمَّ بِبَيْتٍ تَنْظِيفًا وَهَيْئَةً وَقَدْ يَغُضُّ الطَّرْفَ عَنْ خَطَأٍ تَقَعُ فِيهِ بِكَلِمَةٍ نَابِيَةٍ أَوْ بِفَعْلة غَيْرِ مُرَتَّبةٍ وَلَكِنْ لَا يَرْضَى مِنْهَا أَنْ تَتَطَلَّعَ إِلَى

غَيْرِهِ. فَهَذِهِ هِيَ الْقَاسِمَةُ. فَإِذَا مَا كَانَ الْمَرْءُ لَا يَرْضَى مِنِ امْرَأَتِهِ أَنْ تَكُونَ قَدْ أَلَمَّتْ بِقَلْبِهَا أَوْ بِشَيْءٍ مِنْ جَوَارِحِهَا إِلَى غَيْرِهِ، فَكَيْفَ يَرْضَى لِرَبِّهِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ نِدًّا وَنَظِيرًا وَأَنْ يَجْعَلَ لَهُ مَثِيلًا وَشَرِيكًا. فَهَذَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَفْسِهِ. {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ } [النساء : ٤٨]

"مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ."أخرجه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه.

مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ.هَكَذَا قَالَ النَّبِيُّ الْمُخْتَارُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ مِمَّا يَجِبُ عَلَيْنَا عِلْمُهُ الْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ وَهُمَا قَضِيَّتَانِ مُهِمَّتَانِ فِي غَايَةِ الْأَهَمِّيَّةِ وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ. قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللَّهَ لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة : ٢٢]**

فَهَذَا الْأَمْرُ وَهُوَ أَمْرُ **"الْوَلَاءِ وَالْبَرَاءِ" "وَأَصْلٌ عَظِيمٌ"** مِنْ أُصُولِ دِينِ الْإِسْلَامِ **"جَاءَتْ فِيهِ النُّصُوصُ الْكَثِيرَةُ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا} [آل عمران : ١١٨] "** يَعْنِي لَا تَتَّخِذُوا أَحَدًا مِنْ غَيْرِ مِلَّتِكُمْ بِطَانَةً تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَتُحِبُّونَهُمْ وَتُوَالُونَهُمْ هَذَا لَا يَجُوزُ.

"وَقَالَ تَعَالَى:{۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة : ٥١]

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [المائدة : ٥٧] وَقَالَ تَعَالَى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)} [التوبة : ٢٣-٢٤]

انْظُرْ كَيْفَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَقْبَلُ فِي هَذَا الْأَمْرِ لا أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِ صَاحِبِ مِلَّةٍ، وَلَا لِصَاحِبِ مِلَّةٍ وَلَا لِمُشْرِكٍ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُ مَنْ كَانَ بل لَا يَقْبَلُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْآبَاءِ وَالْإِخْوَانِ أَنْ يَكُونُوا أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَنِ، وَهَذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَفِي ذَلِكَ **"يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة : ٤].**

ولِأَنَّ مُوَالَاةَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَمُدَارَاتَهُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ضَعِيفٌ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْعَقْلِ أَنْ يُحِبَّ الْإِنْسَانُ شَيْئًا هُوَ عَدُوٌّ لِمَحْبُوبِهِ، ومُوَالَاةُ الْكُفَّارِ تَكُونُ بِمُنَاصَرَتِهِمْ وَمُعَاوَنَتِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ وَمَوَدَّتُهُمْ تَكُونُ بِفِعْلِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا مَوَدَّتُهُمْ، فَتَجِدُهُ يُوَدُّهُمْ أَنْ يَطْلُبَ وُدَّهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ وَهَذَا لَا شَكَّ يُنَافِي الْإِيمَانَ كُلَّهُ أَوْ يُنَافِي كَمَالَهُ. فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِ مُعَادَاةُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ إِلَيْهِ وَأَنْ يُبْغِضَهُ وَأَنْ يَبْتَعِدَ عَنْهُ وَلَكِنْ هَذَا لَا يَمْنَعُ مِنْ نَصِيحَتِهِ وَدَعْوَتِهِ إِلَى الْحَقِّ." اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ أَهَمَّ الْمُهِمَّاتِ وَأَوَّلَ الْوَاجِبَاتِ تَوْحِيدَ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ وَتَوْحِيدُهُ إِفْرَادُ اللَّهِ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ التَّوْحِيدِ. فَلَا بُدَّ أَنْ تُفْرِدَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْمَحَبَّةِ أَنْ تَجْعَلَ لَهُ الْأَوْلَوِيَّةَ.

وَكَمَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ: "اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَلُومُ عَلَيْكَ أَنْ تُحِبَّ أَبَاكَ وَأَنْ تُحِبَّ أُمَّكَ أَوْ أَنْ تُحِبَّ أَخَاكَ أَوْ أَنْ تُحِبَّ أُخْتَكَ. اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا يَلُومُكَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنَّ اللَّوْمَ أَنْ تُقَدِّمَ مَحَبَّةَ غَيْرِ اللَّهِ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ. {وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة : ١٦٥] وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا لَقِيَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَأَلَهُ عَنْ كَيْفِيَّةِ مَوْجَدَتِهِ وَكَيْفِيَّةِ مَحَبَّتِهِ فِي قَلْبِهِ لَهُ فَقَالَ: "أَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي يَا رَسُولَ اللَّهِ." فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَلَا هَذِهِ يَا عُمَرُ" أَيْ حَتَّى هَذِهِ لَا يَقْبَلُهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَا هَذِهِ يَا عُمَرُ." فَقَالَ: "يا رَسُولَ اللَّهِ أَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ." فَقَالَ: "الْآنَ يَا عُمَرُ". أَيْ الْآنَ قَدْ كَمُلَ إِيمَانُكَ يَا عُمَرُ.

فَعَلَيْنَا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ نَتَّقِيَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي تَوْحِيدِنَا. وَأَنْ نَتَّقِيَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْغَايَةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَلَقَنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَأَنْ نَعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولُهُ وَمُصْطَفَاهُ وَخَلِيلُهُ وَمُجْتَبَاهُ، فَعَلَيْكَ أَنْ تُقَدِّمَ مَحَبَّةَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى جَمِيعِ الْمَحَابِّ. وَذَلِكَ بَعْدَ تَقْدِيمِ مَحَبَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. لِأَنَّ الْخُلَّةَ هِيَ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْمَحَبَّةِ. وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدْ وَضَعَ نَبِيَّهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَلِمَا لا تَضَعُ نَبِيَّكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ وَضَعَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. أَنْ تُقَدِّمَ مَحَبَّتَهُ كَمَا قَدَّمَ اللَّهُ مَحَبَّتَهُ. فَقَدَّمَ اللَّهُ مَحَبَّةَ نَبِيِّهِ عَلَى مَحَبَّةِ

خَلْقِهِ، عَلَى مَحَبَّةِ أَنْبِيَائِهِ، عَلَى مَحَبَّةِ رُسُلِهِ، عَلَى مَحَبَّةِ مَلَائِكَتِهِ، عَلَى مَحَبَّةِ سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ. فَلِمَا لا تُقَدِّمُ مَحَبَّةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَجْعَلُهَا قَبْلَ أَيِّ مَحَبَّةٍ مِنَ الْمَحَابِّ. {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة : ٢٤]

فَكُلُّ مَنْ قَدَّمَ مَحَبَّةً عَلَى غَيْرِ مَحَبَّةِ اللهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَحَبَّةِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهَذَا فَاسِقٌ مِنَ الْفَاسِقِينَ، وَهَكَذَا وَصَفَهُ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

فمَا أَحْوَجَ المَرْءَ إِلَى أَنْ يَنْظُرَ في عَقِيدَتِهِ، إِلَى أَنْ يَنْظُرَ في تَوْحِيدِهِ، إِلَى أَنْ يَنْظُرَ في إِيمَانِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ أَصْلُ الأُصُولِ، وَالَّذِي يَنْبَنِي عَلَيْهِ فيَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ وَأَحْوَالٍ وَمَقَامَاتٍ. وَإِذَا انْهَارَ الأَصْلُ انْهَارَ مَا بَعْدَهُ، وَإِذَا قَامَ الأَصْلُ قَامَ بِهِ مَا بَعْدَهُ.

فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَسْعَى في الحَيَاةِ يَظُنُّ أَنَّهُ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ، وَأَنَّهُ عَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَهُوَ في حَقِيقَةِ أَمْرِهِ مُرَاءٍ مِنَ المُرَائِينَ، وَمُسَمِّعٌ مِنَ المُسَمِّعِينَ، وَعَلَى ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَفي غَفْلَةٍ لَا يَعْلَمُ مَدَاهَا إِلَّا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ.

وَالنَّاسُ يُجَدِّدُونَ ثِيَابَهُمْ، وَيُجَدِّدُونَ مَطْعومَاتِهِمْ، وَيُجَدِّدُونَ مَسَاكِنَاتِهِمْ، وَيُجَدِّدُونَ مَرْكُوبَاتِهِمْ، وَقَلَّ مَنْ يَنْظُرُ في إِيمَانِهِ لِيَسْعَى في تَجْدِيدِهِ؛ لِأَنَّ الإِيمَانَ يَخْلَقُ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ. وَكَانُوا قَدِيمًا إِذَا جَالَسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَالُوا: "تَعَالَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا". وَكَانُوا يَقُولُونَ: "هَيَّا نُؤْمِنُ بِنَا سَاعَةً"، أَيْ هَيَّا نَنْظُرُ في إِيمَانِنَا سَاعَةً. وَالنَّظَرُ في الإِيمَانِ لِتَجْدِيدِهِ وَإِصْلَاحِهِ، لِتَهْذِيبِهِ وَتَزْيِينِهِ، لِتَرْتِيبِهِ وَتَبْوِيبِهِ.

وَهَذِهِ الكُتُبُ الَّتِي تَرَكَهَا عُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ، هِيَ مِنْ هَذَا البَابِ، مِنْ بَابِ تَجْدِيدِ الإِيمَانِ، وَمِنْ بَابِ تَجْدِيدِ أَحْوَالِ المُؤْمِنِينَ، وَالنَّظَرِ في أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ. فَالْمَرْءُ يُصْبِحُ في صَبَاحِهِ يَقُولُ: "أَصْبَحْتُ عَلَى فِطْرَةِ الإِسْلَامِ، وَكَلِمَةِ الإِخْلَاصِ، وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ".

وَهُوَ في ذَلِكَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ صَادِقًا مِنَ الصَّادِقِينَ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا مِنَ الكَاذِبِينَ. فَالحَنِيفِيَّةُ هِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهِيَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. هَذِهِ هِيَ الحَنِيفِيَّةُ في تَعْرِيفِهَا.

وَأَمَّا الحَنِيفِيَّةُ في تَطْبِيقِهَا، فَمَيْلُ القَلْبِ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ الأَمِينُ وَأَصْحَابُهُ المُطَهَّرُونَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِلَ المَرْءُ إِلَى مَرْضَاةِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ. وَفي ذَلِكَ يَقُولُ شَيْخُ الإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: **"اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ**

وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَها كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.[سورة الذاريات: ٥٦].

وَمَعْنَى ﴿يَعْبُدُونِ﴾ أَيْ يُوَحِّدُونَ.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ، وَأَعْظَمُ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ الشِّرْكُ وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. [النساء: ٣٦]

فَإِذَا قِيلَ لَكَ مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا، فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ." هَذِهِ الأُصُولُ مَا أَحْوَجَنَا أَنْ نَقِفَ عِنْدَ حَقِيقَتِهَا، وَأَنْ نَنْظُرَ في تأصيلِها و تَأْسِيسِهَا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ النَّظَرِ في كَوْنِ المَرْءِ حَنِيفيا مُسْلِمًا عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا أَوْ غَيْرَ حَنِيفِيٍّ عَلَى مِلَّةٍ لَيْسَتْ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَلَا هِيَ بِمِلَّةِ النَّبِيِّ الأَمِينِ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ: "اعْلَمْ" وَهِيَ مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ أَوْ مِنْ بَابِ الأَمْرِ بِالعِلْمِ، وَأَفْضَلُ مَا تُحْمَلُ عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ مِنْ بَابِ الأَمْرِ بِالعِلْمِ؛ لِأَنَّ اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ لَمَّا أَمَرَنَا أَنْ نُوَحِّدَهُ أَمَرَنَا بِالعِلْمِ قَبْلَ تَوْحِيدِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ﴾.[سورة محمد: ١٩] بوَّبَ لَهَا البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بَابًا سَمَّاهُ: "بَابُ العِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ.

فَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ، لَا يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْتَقِدُوا، اعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ كَيْفَ رَبُّكُمْ أَنْ تُوَحِّدُوهُ.

ثُمَّ اسْتَهَلَّ المُصَنِّفُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ بَعْدَ الأَمْرِ بِالعِلْمِ الدُّعَاءَ بِالرُّشْدِ، وَمَنْ آتَاهُ اللهُ رُشْدَهُ فَقَدْ آتَاهُ اللهُ الخَيْرَ الكَثِيرَ. وَالرُّشْدُ الَّذِي يَجْعَلُ المَرْءَ يَضَعُ الأَشْيَاءَ في مَوَاضِعِهَا، وَأَنْ يَسْتَقِيمَ عَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَأَنْ يَرَى الحَقَّ حَقًّا فَيَتَبِعَهُ، وَأَنْ يَرَى البَاطِلَ بَاطِلًا فَيَجْتَنِبَهُ.

"أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ" اللَّهُمَّ أَرْشِدْنَا لِطَاعَتِكَ، وَوَفِّقْنَا لِاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّكَ، وَالقِيَامِ عَلَى دِينِكَ، وَالحِفَاظِ عَلَى شَرِيعَتِكَ.

"اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ."

"الحَنِيفِيَّةُ" **هِيَ المِلَّةُ المَائِلَةُ عَنِ الشِّرْكِ المَبْنِيَّةُ عَلَى الإِخْلَاصِ."** الرَّجُلُ الحَنِيفُ هُوَ الرَّجُلُ المَائِلُ، وَالمَيْلُ هُنَا لَيْسَ بِالعِوَجِ، وَإِنَّمَا المَيْلُ هُنَا لِلْبُعْدِ عَنِ التَّوَرُّطِ عَنِ الشِّرْكِ، فَلَا يَتْرُكُ نَفْسَهُ بِمَقْرَبَةٍ مِنَ الشِّرْكِ، وَلَكِنْ يَمِيلُ إِلَى التَّوْحِيدِ، لِذَلِكَ سُمِّيَ بِالحَنِيفِ.

وَالحَنِيفِيَّةُ هِيَ "مِلَّةُ" إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. أَيْ هِيَ طَرِيقُهُ الَّذِي سَارَ عَلَيْهِ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ نَبِيُّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

"وَإِبْرَاهِيمُ هو خَلِيلُ الرَّحْمَنِ وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ في كِتَابِهِ في قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾[النساء: ١٢٥]، وَهُوَ أَبُو الأَنْبِيَاءِ. وَقَدْ تَقَرَّرَ ذِكْرُ مَنْهَجِهِ في مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِ." فَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَحَبُّ الخَلْقِ إِلَى اللهِ ذِي الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ، لِأَنَّ الخُلَّةَ هِيَ أَعْلَى أَنْوَاعِ المَحَبَّةِ. وَانْظُرْ كَيْفَ وَصَلَ إِبْرَاهِيمُ بِالتَّوْحِيدِ وَبِإِقَامَةِ الدِّينِ عَلَى طَرِيقَةِ العَزِيزِ الحَمِيدِ بِتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ لِلْعَزِيزِ المَجِيدِ، كَيْفَ وَصَلَ إِلَى خُلَّةٍ هِيَ أَعْلَى أَنْوَاعِ المَحَبَّةِ. فَمَا أَحَبَّ اللهُ أَرْضَهُ وَلَا سَمَاءَهُ، وَلَا أَحَبَّ اللهُ خَلْقَهُ في أَرْضِهِ، وَلَا مَلَائِكَتَهُ في سَمَائِهِ كَمَا أَحَبَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُ قَامَ بِتَوْحِيدِ اللهِ حَقَّ القِيَامِ.

ففي زَمَانِ الغَفْلَةِ وَالشِّرْكِ لَمْ يَكُنْ في العَالَمِ كُلِّهِ إِلَّا إِبْرَاهِيمَ مُوَحِّدًا. وَهَكَذَا النَّاسُ في زَمَانِ الغُرْبَةِ، فَفي زَمَانِ الغُرْبَةِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ أُمَّةً في زَمَانِهِ وَعَصْرِهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ."

فَعَلَى المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ أَنْ يَجْتَهِدُوا في أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الفَضْلِ في زَمَانِ الظُّلْمِ، أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ العَدْلِ في زَمَانِ الجَوْرِ، أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ في زَمَانِ البِدَعِ، أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الذِّكْرِ في زَمَانِ الغَفْلَةِ.

فَهَذَا يَرْفَعُ أَقْدَارَهُمْ وَيُعْلِي شَأْنَهُمْ كَمَا أَعْلَى اللهُ شَأْنَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكَوْنِهِ في ذَلِكَ الزَّمَانِ في أَرْضِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ كَانَ مِنْ أَفْضَلِ المُوَحِّدِينَ.

بل لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مُوَحِّدٌ في الأَرْضِ إِلَّا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. الحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنَا بِذَلِكَ، وَهِيَ "أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ."

"أَنْ تَعْبُدَ اللهَ" هَذِهِ خَبَرٌ في قَوْله "أَنَّ الحَنِيفِيَّةَ" وَالعِبَادَةُ بِمَفْهُومِهَا العَامّ، التَّذَلُّلُ للهِ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ شَرَائِعُه." فَهَذَا مَفْهُومُ العُبُودِيَّةِ في الفَهْمِ العَامّ. **"وَأَمَّا مَفْهُومُ العُبُودِيَّةِ"** مِنْ حَيْثُ المَفْهُومُ الخَاصُّ لِلْعِبَادَةِ **"يَعْنِي تَفْصِيلَها قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: العِبَادَةُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ كَالخَوْفِ وَالخَشْيَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ."**

وَالعُبُودِيَّةُ: هي الخُضُوعُ وَالإِذْعَانُ وَالتَّسْلِيمُ وَالانْقِيَادُ للهِ بِالطَّاعَةِ وَلِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالمُتَابَعَةِ، وَالعُبُودِيَّةُ أَنْ تَكُونَ حَيَاةُ المَرْءِ مِنْ يَقَظَتِهِ إِلَى مَنَامِهِ، وَمِنْ مِيلَادِهِ إِلَى مَمَاتِهِ دَائِرَةً في فَلَكِ مَا يُحِبُّهُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ، فَأَكْلُكَ وَشَرَابُكَ، طَعَامُكَ وَشَرَابُكَ، لِبَاسُكَ، وَنَوْمُكَ، يَقَظَتُكَ وَمَنَامُكَ، كُلُّ

ذَلِكَ تَفْعَلُهُ طَاعَةً للهِ رَبِّ العَالَمِينَ. عَادَاتُكَ، غَايَاتُكَ، اهْتِمَامَاتُكَ، كُلُّ ذَلِكَ تَجْعَلُهَا للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

"وَالإِخْلَاصُ هوَ التَّنْقِيَةُ" أَيْ تَنْقِيَةُ العَمَلِ مِمَّا يَشُوبُهُ، **"وَالمُرَادُ بِهِ أَنْ يَقْصِدَ المَرْءُ بِعِبَادَتِهِ وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالوُصُولَ إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ، بِحَيْثُ لَا يَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ، لَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا."**

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ ما اهْتَدَينَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا. اللَّهُمَّ أَنْزِلًا سَكِينَةً عَلَيْنَا، وَثَبِّتِ الإِيمَانَ إِنْ لاقَينَا.

يَلْهَجُ المَرْءُ دَائِمًا وَأَبَدًا مُسْتَعِينًا بِاللهِ أَنْ يُقِيمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ عِبَادِهِ المُخْلِصِينَ، وَأَنْ يُوَفِّقَهُ لِمَرَاضِيهِ إِلَى أَنْ يَلْقَى وَجْهَهُ الكَرِيمَ. "الحَنِيفِيَّةُ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَهِيَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ". "وَبِذَلِكَ" أَيْ بِهَذَا الأَمْرِ "أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَها كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[سورة الذاريات: ٥٦] اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ، أَمَرَنَا أَنْ نَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]**

فَنَبِيُّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ أَنْ يَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَأُمَّتُهُ كَذَلِكَ مَأْمُورَةٌ بِمَا أُمِرَ بِهِ النَّبِيُّ الأَمِينُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَيَّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْفَظَ نَفْسَهُ وَأَنْ يَرْفَعَ شَأْنَهُ وَأَنْ يُعْلِيَ قَدْرَهُ عَلَيْهِ

أَنْ يَتَمَسَّكَ بِهَذِهِ المِلَّةِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢)﴾ [البقرة : ١٣٠-١٣٢]"**

هَذَا هُوَ حَالُ إِبْرَاهِيمَ أَسْلَمَ القَلْبَ وَالقَالَبَ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَظَلَّ طِيلَةَ حَيَاتِهِ سَائِرًا عَلَى هَذَا الضَّرْبِ العَظِيمِ قَائِمًا عَلَى مُقْتَضَيَاتِهِ خَاضِعًا مُذْعِنًا للهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَتَّى في آخِرِ لَحَظَاتِ حَيَاتِهِ مَشْغُولًا بِتَوْحِيدِ رَبِّهِ آمِرًا أَبْنَاءَهُ وَبَنِيهِ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَأَنْ يَتَمَسَّكُوا بِذَلِكَ حَتَّى يَلْقَوْا وَجْهَ اللهِ الكَرِيمَ.

الحَنِيفِيَّةُ عِبَادَ اللهِ قَائِمَةٌ عَلَى تَسْلِيمِ القَلْبِ وَالقَالَبِ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ. وَاللهُ رَبُّ العَالَمِينَ أَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يَكُونُوا مُخْلِصِينَ أَنْ يُخْلِصُوا لَهُ الدِّينَ فَأَمَرَ نَبِيَّهُ بِذَلِكَ وَأَمَرَ مَنْ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يُتَابِعُوهُ عَلَى ذَلِكَ. **"فَالحَنِيفِيَّةُ هِيَ عِبَادَةُ اللهِ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ بِهَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ وَخَلَقَهُمْ لِهَذَا الشَّأْنِ الجَلِيلِ فَقَالَ تَعَالَى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء : ٢٥] وَبَيَّنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في كِتَابِهِ أَنَّ الخَلْقَ إِنَّمَا خُلِقُوا لِهَذَا الشَّأْنِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[سورة الذاريات: ٥٦]** يَعْنِي إِلَّا لِيُوَحِّدُونَ.

فَالعِبَادَةُ هُنَا بِمَعْنَى التَّوْحِيدِ **"وَالتَّوْحِيدُ مِنْ مَعْنَى العِبَادَةِ وَإِلَّا فَقَدْ سَبَقَ لَكَ مَعْنَى العِبَادَةِ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ تُطْلَقُ وَأَنَّهَا أَعَمُّ مِنْ مُجَرَّدِ التَّوْحِيدِ فَالْتَّوْحِيدُ مِنَ العِبَادَةِ وَالعِبَادَةُ أَعَمُّ وَأَشْمَلُ.**

وَالعِبَادَةُ نَوْعَانِ:

- **عِبَادَةٌ كَوْنِيَّةٌ:وَهِيَ الخُضُوعُ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى الكَوْنِيِّ وَهَذِهِ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ الخَلْقِ لَا يَخْرُجُ عَنْهَا أَحَدٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فَهِيَ شَامِلَةٌ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ"** وَهَذِهِ يَرَاهَا الإِنْسَانُ في نَفْسِهِ فَجَوَارِحُهُ تَعْمَلُ بِلَا إِدْرَاكٍ مِنْهُ بَلْ بِتَسْخِيرِ اللهِ وَتَذْلِيلِ اللهِ لَهُ. فَالعَيْنُ تَرَى مِنْ غَيْرِ مَا مَعْرِفَةٍ بِكُنْهِ تِلْكَ الرُّؤْيَةِ، وَالأُذُنُ تَسْمَعُ مِنْ غَيْرِ مَا إِحَاطَةٍ بِكَيْفِيَّةِ سَمَاعِهِ، وَالمَعِدَةُ تَهْضِمُ الطَّعَامَ مِنْ غَيْرِ مَا مَعْرِفَةٍ بِطَرِيقَةِ سَيْرِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِتَسْخِيرِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَلَوْ أَمَرَ اللهُ الإِنْسَانَ أَنْ يَقُومَ عَلَى هَذِهِ الجَوَارِحِ بَدْءًا وَمُنْتَهَى لَجُنَّ جُنُونُهُ وَخَرَجَ عَنْ جَادَّةِ أَمْرِهِ وَطَلَبَ مُفَارَقَةَ الحَيَاةِ لِتَوِّهِ وَلَحْظِهِ لِأَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ ذَلِكَ، وَهَذَا كُلُّهُ قَائِمٌ بِتَدْبِيرِ اللهِ بِرُبُوبِيَّته بِأَمْرِهِ الكَوْنِيِّ إِذْ خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ فَأَمَرَهُمْ بِأَمْرِهِ الكَوْنِيِّ فَهُمْ قَائِمُونَ عَلَى مُقْتَضَى أَمْرِهِ: اللَّيْلُ والنَّهَارُ، والشَّمْسُ والقَمَرُ، الأَرْضُ والسَّمَاءُ، والبَحْرُ والمَاءُ والمُحِيطَاتُ، وَكَذَلِكَ الحَيَوَانَاتُ وَالنَّبَاتَاتُ وَالجَمَادَاتُ.

وَهَذِهِ العِبَادَةُ لَا تُغْنِي عَنِ الإِنْسَانِ شَيْئًا فَلَا يُؤْجَرُ المَرْءُ بِقُوَّةِ سَمْعِهِ، وَلَا بِدِقَّةِ بَصَرِهِ، وَلَا بِصِحَّةِ بَدَنِهِ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ اللهِ وَإِلَى اللهِ، وَأَمَّا العُبُودِيَّةُ الَّتِي يُحْمَدُ العَابِدُ عَلَيْهَا فَهِيَ

- **العِبَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ، وَهِيَ الخُضُوعُ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى الشَّرْعِيِّ."** العِبَادَةُ الشَّرْعِيَّةُ هِيَ الخُضُوعُ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى امْتِثَالًا رَغْبَةً وَرَهْبَةً انْقِيَادًا وَإِذْعَانًا، **"وَهَذِهِ خَاصَّةٌ بِمَنْ أَطَاعَ اللهَ تَعَالَى وَاتَّبَعَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾.[الفرقان: ٦٣]**

"فَالنَّوْعُ الأَوَّلُ: وَهُوَ العِبَادَةُ الكَوْنِيَّةُ لَا يُحْمَدُ الإِنْسَانُ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ بِغَيْرِ فِعْلِهِ، لَكِنْ قَدْ يُحْمَدُ عَلَى مَا يَحْصُلُ مِنْهُ مِنْ شُكْرٍ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَصَبْرٍ عِنْدَ البَلَاءِ. بِخِلَافِ النَّوْعِ الثَّانِي فَإِنَّهُ يُحْمَدُ عَلَيْهِ" لِكَوْنِهِ بِإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ. وَمَا أَكْثَرَ مَنْ ضَلَّ بِعَطَاءِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، فَكَمْ مِنْ صَاحِبِ مَالٍ طَغَى بِمَالِهِ، وَكَمْ مِنْ صَاحِبِ جَاهٍ وَسُلْطَانٍ تَكَبَّرَ بِجَاهِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَكَمْ مِنْ صَاحِبِ هَيْئَةٍ وَجَمَالٍ فُتِنَ بِهَيْئَتِهِ وَجَمَالِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ لَا دَخْلَ لَهُ فِيهِ أَصْلًا. فَالَّذِي جَعَلَ ذَلِكَ كَذَلِكَ هُوَ اللهُ. وَأَمَّا مَا يُحْمَدُ المَرْءُ عَلَيْهِ فَمَا يَكُونُ مِنْ شَأْنِهِ بِاخْتِيَارِهِ بِإِرَادَتِهِ بِانْصِيَاعِهِ لِرَبِّهِ وَامْتِثَالِهِ.

"وَالتَّوْحِيدُ لُغَةً مَصْدَرٌ وَحَّدَ يُوَحِّدُ أَيْ جَعَلَ الشَّيْءَ وَاحِدًا، وَهَذَا لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِنَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ: نَفْيُ الحُكْمِ عَمَّا سِوَى المُوحَّد وَإِثْبَاتُه له، فمَثلًا نقولُ:

إنه لا يَتِمُّ للإنسانِ التوحيدُ حتى يَشهدَ أن لا إله إلا الله فينفي الألوهيةَ عمَّا سُوى الله تعالى ويُثبتُها لله وَحدَه".

"وَفي الِاصْطِلَاحِ عَرَّفَهُ المُؤَلِّفُ بِقَوْلِهِ: "التَّوْحِيدُ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ".

وَتَعْرِيفُ الشَّيْءِ لُغَةً أَيْ عِنْدَ العَرَبِ الأَقْحَاحِ الَّذِينَ ذَكَرُوا هَذَا اللَّفْظَ بِمَعْنَاهُ وَمُرَادِهِمْ مِنْهُ. وَأَمَّا في الِاصْطِلَاحِ فَهُوَ عِنْدَ أَصْحَابِ الشَّأْنِ في ذَلِكَ العِلْمِ. فَالِاصْطِلَاحُ عِنْدَ النَّحْوِيِّينَ لَيْسَ كَالِاصْطِلَاحِ عِنْدَ البَلَاغِيِّينَ لَيْسَ كَالِاصْطِلَاحِ عِنْدَ أَصْحَابِ السِّيَرِ وَالمُحَدِّثِينَ فَكُلُّ قَوْمٍ لَهُمْ اصْطِلَاحٌ قَدْ اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ.

عُلَمَاءُ الأُصُولِ مِنْ أَهْلِ العَقِيدَةِ عَرَّفُوا التَّوْحِيدَ بِمَا اصْطَلَحُوا عَلَى تَعْرِيفِهِ فَقَالُوا: **"التَّوْحِيدُ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْءٍ، لَا تُشْرِكُ بِهِ نَبِيًّا مُرْسَلًا وَلَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا رَئِيسًا وَلَا أَحَدًا مِنَ الخَلْقِ، بَلْ تُفْرِدُهُ وَحْدَهُ بِالعِبَادَةِ."** هَذِهِ العِبَادَةُ الحَامِلُ عَلَيْهَا **"المَحَبَّةُ وَالتَّعْظِيمُ وَالرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ". "وَالشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ يَتَكَلَّمُ هُنَا عَنِ التَّوْحِيدِ الَّذِي بُعِثَتِ الرُّسُلُ لِتَحْقِيقِهِ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَصَلَ بِهِ الإِخْلَالُ مِنْ أَقْوَامِهِم"** لِأَنَّ هُنَاكَ مَنْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ بِمَا يَتَّفِقُ مَعَ بِدْعَتِهِ وَبِمَا يَتَّفِقُ مَعَ مِلَّتِهِ وَشَرِيعَتِهِ. وَأَمَّا التَّوْحِيدُ المَقْصُودُ هُنَا فَهُوَ **"إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا يَخْتَصُّ بِهِ."**

"وَأَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ" الَّتِي تَتَبَّعَ عُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ النُّصُوصَ في الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَوَجَدُوهَا لَا تَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الأَنْوَاعِ: **"أَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ ثلاثةٌ:**

- **الأول: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ: وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ بِالخَلْقِ وَالمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[الزمر: ٦٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.[فاطر: ٣] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الملك:١). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾.[الأعراف: ٥٤]"** فَكُلُّ مَا تَسِيرُ بِهِ في هَذِهِ الحَيَاةِ مِنْ بَدَنٍ وَمَالٍ وَزَوْجٍ وَأَوْلَادٍ كُلُّ ذَلِكَ مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. لَيْلُكَ الَّذِي خَلَقَهُ هُوَ اللهُ، وَنَهَارُكَ الَّذِي خَلَقَهُ هُوَ اللهُ، وَالشَّمْسُ الَّتِي تَنْعَمُ بِهَا الَّذِي خَلَقَهَا هُوَ اللهُ، وَالقَمَرُ الَّذِي تَسِيرُ في ضَوْئِهِ في لَيْلِكَ الَّذِي خَلَقَهُ هُوَ اللهُ. فَتِلْكَ المَخْلُوقَاتُ مِنْ حَوْلِكَ، الخَالِقُ لَهَا هُوَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ. خَلَقَكَ، وَخَلَقَ أَبَاكَ، وَخَلَقَ جَدَّكَ وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَخَلَقَ لَكَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مِيلَادِكَ إِلَى مَمَاتِكَ، فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ.
- **الثاني: تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ: وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالعِبَادَةِ بِأَنْ لَا يَتَّخِذَ الإِنْسَانُ مَعَ اللهِ أَحَدًا يَعْبُدُهُ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ كَمَا يَعْبُدُ اللهَ تَعَالَى**

وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ." طَالَمَا أَنَّهُ هُوَ الخَالِقُ وَحْدَهُ فَهُوَ المَعْبُودُ وَحْدَهُ، طَالَمَا أَنَّهُ هُوَ المُحْيِي المُمِيتُ وَحْدَهُ فَهُوَ المَأْلُوهُ وَالمَرْغُوبُ وَحْدَهُ.

- **الثالث: تَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: "وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا سَمَّى بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ بِإِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ وَنَفْيِ مَا نَفَاهُ، من غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ."** اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ لَا يُحِيطُ بِهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ، أَعْلَمُ بِصِفَاتِهِ، أَعْلَمُ بِذَاتِهِ، أَعْلَمُ بِأَسْمَائِهِ فِي حَقِيقَتِهِ، لِذَا يَنْبَغِي عَلَى المَرْءِ أَنْ يُسَمِّيَ اللهَ بِأَسْمَائِهِ وَأَنْ يَصِفَهُ بِصِفَاتِهِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَيُثْبِتُ للهِ ذَاتًا لَيْسَ كَمِثْلِهَا ذَاتٌ، وَيُثْبِتُ للهِ صِفَاتٍ لَيْسَ كَمِثْلِهَا صِفَاتٌ، "وَكُلُّ مَا جَاءَ عَنِ اللهِ بِبَالِكَ فَاللَّهُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ." لِأَنَّ عَدَمَ الإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ، وَالوُقُوفُ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي الذَّاتِ هُوَ عَيْنُ العَقْلِ، وَالتَّفْكِيرُ فِي الذَّاتِ طَرِيقٌ إِلَى الإِشْرَاكِ، فَلَابُدَّ لِلْمَرْءِ أَنْ يَقِفَ وَأَنْ يُلْزِمَ حَدَّهُ فِي هَذَا البَابِ مِنْ غَيْرِ مَا تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ مَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

"وَالمُؤَلِّفُ هُنَا يُرِيدُ بِتَوْحِيدِ الأُلُوهِيَّةِ الَّذِي هُوَ التَّوْحِيدُ الَّذِي ضَلَّ فِيهِ المُشْرِكُونَ." أَيْ تَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ هُوَ النَّوْعُ الَّذِي ضَلَّ فِيهِ المُشْرِكُونَ **"الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ النَّبِيُّ المَأْمُونُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَبَاحَ دِمَاءَهُمْ**

وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَسَبَى نِسَاءَهُمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ". فَاحْمَدْ عَبْدَ اللهِ رَبَّكَ أَنْ جَعَلَكَ مُوَحِّدًا، فَبِالتَّوْحِيدِ حُفِظَ دَمُكَ، وَحُفِظَ عِرْضُكَ، وَحُفِظَ وَلَدُكَ وَحُفِظَ مَالُكَ، وَأَرْضُكَ، وَوَطَنُكَ، فَهَذَا مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَى المُوَحِّدِينَ.

"وَأَكْثَرُ مَا يُعَالِجُ الرُّسُلُ أَقْوَامَهُمْ عَلَى هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّوْحِيدِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾.[سورة النحل: ٣٦]" فَمَا مِنْ نَبِيٍّ أَرْسَلَهُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ وَلَا رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ إِلَّا وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَوَا أَسَفَاهُ المُسْلِمُونَ اليَوْمَ يَنْصَرِفُونَ عَنْ هَذَا البَابِ مِنْ أَبْوَابِ العِلْمِ وَهُوَ فَرِيضَةٌ مَفْرُوضَةٌ، وَشَرِيعَةٌ مَشْرُوعَةٌ وَطَرِيقَةٌ مُتَّبَعَةٌ. فَنَبِيُّكم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلُ مَا دَعَا قَوْمَهُ دَعَاهُمْ إِلَى هَذَا النَّوْعِ إِلَى تَوْحِيدِ الإِلَهِيَّةِ، فَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ: "قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا". "قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَدِينُ لَكُمْ بِهَا العَرَبُ وَالعَجَمُ جَمِيعًا". ولا انتفاعَ لأَحَدٍ بِعَمَلٍ كَائِنًا مَنْ كَانَ إِلَّا بِتَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ عَلَى حَقِيقَتِهِ. فَالعِبَادَةُ لَا تُقْبَلُ إِلَّا بِصِحَّةِ التَّوْحِيدِ، وَالعِبَادَةُ أَصْلًا لَا تَصِحُّ إِلَّا لِلْعَزِيزِ المَجِيدِ. **"وَمَنْ أَخَلَّ بِهَذَا التَّوْحِيدِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَإِنْ أَقَرَّ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ. فَلَوْ فُرِضَ أَنَّ رَجُلًا يُقِرُّ إِقْرَارًا كَامِلًا بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَلَكِنْ يَذْهَبُ إِلَى القَبْرِ فَيَعْبُدُ صَاحِبَهُ أَوْ يَنْذِرُ لَهُ قُرْبَانًا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ كَافِرٌ خَالِدٌ فِي النَّارِ مُخَلَّدًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ**

بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.[سورة المائدة: ٧٢]

وَإِنَّمَا كَانَ التَّوْحِيدُ أَعْظَمَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ لِأَنَّهُ الأَصْلُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ الدِّينُ كُلُّهُ، وَلِهَذَا بَدَأَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، وَأَمَرَ مَنْ أَرْسَلَهُ لِلدَّعْوَةِ أَنْ يَبْدَأَ بِهِ." فَأَمَرَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ أَنْ يَبْدَأَ بِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَأَمَرَ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يَدْعُوَ أَهْلَ خَيْبَرَ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ. وَمَا مِنْ قَائِدٍ عَلَى سَرِيَّةٍ إِلَّا وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُهُ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ لِتَوْحِيدِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وَضِدُّ التَّوْحِيدِ الشِّرْكُ بِاللهِ، فَهُوَ أَعْظَمُ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ. وَقَدْ جَاءَ القُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَيُحَذِّرُ مِنْهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[النساء: ٣٦].

فَالشِّرْكُ أَعْظَمُ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ، وَذَلِكَ **"لِأَنَّ أَعْظَمَ الحُقُوقِ هُوَ حَقُّ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَإِذَا فَرَّطَ فِيهِ الإِنْسَانُ فَقَدْ فَرَّطَ فِي أَعْظَمِ الحُقُوقِ وَهُوَ تَوْحِيدُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. لِذَا قَالَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ لُقْمَانُ لِوَلَدِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.[لقمان: ١٣] وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.[النساء: ٤٨]**

وَبَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ أَضَلَّ الضَّلَالِ أَنْ يَقَعَ النَّاسُ في الإِشْرَاكِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: **﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.[النساء: ١١٦]**

وَالجَنَّةُ طَيِّبَةٌ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا طَيِّبٌ، وَالمُشْرِكُ خَبِيثٌ، فَمَنْ تَوَرَّطَ في الشِّرْكِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ. وَفي ذَلِكَ يَقُولُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ: **{إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} [المائدة : ٧٢]**

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَظَلَمُوا أَبْنَاءَهُمْ وَظَلَمُوا إِخْوَانَهُمْ وَظَلَمُوا مُجْتَمَعَاتِهِمْ لَمَّا تَوَرَّطُوا في الشِّرْكِ، فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْصَارٌ مِنْ دُونِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ. وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَغْفِرُ لِلْمُذْنِبِينَ ذُنُوبَهُمْ وَلِأَصْحَابِ الكَبَائِرِ كَبَائِرَهُمْ إِلَّا الشِّرْكَ. قَالَ تَعَالَى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.[النساء: ٤٨]**

وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الشِّرْكِ، فَبَيَّنَ أَنَّهُ أَعْظَمُ مِنَ الزِّنَا وَأَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَأَعْظَمُ مِنْ شُرْبِ الخَمْرِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أَعْظَمُ الذَّنْبِ أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ"**. متفق عليه.

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **"مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ"**.

فَمَا أَحْوَجَ المُسْلِمِينَ إِلَى أَنْ يُفَتِّشُوا في أَطْوَاءِ ضَمَائِرِهِمْ وَحَنَايَا قُلُوبِهِمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُخْرِجُوا مَا فِيهِ مِنْ دَقِيقِ الشِّرْكِ وَجَلِيلِهِ وَحَقِيرِهِ، لِأَنَّ **"شَيْءٌ"** هُنَا نَكِرَةٌ تُفِيدُ مُطْلَقَ الشِّرْكِ، فَكُلُّ مَا دَقَّ أَوْ صَغُرَ مِنَ الشِّرْكِ هَذَا يُفْسِدُ عَلَى الإِنْسَانِ دِينَهُ وَيُفْسِدُ عَلَى المَرْءِ إِيمَانَهُ وَيَكُونُ سَبَبًا في رَدِّ أَعْمَالِهِ عَلَيْهِ.

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ مَا يَنْبَغِي عَلَى المَرْءِ أَنْ يَعْلَمَهُ عَادَ إِلَى مَا كَانَ بِصَدَدِهِ وَهُوَ الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ فَقَالَ:**"فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَعْلَمَهَا؟ فَقُلْ:**

فَذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ الأُصُولَ الثَّلَاثَةَ، وَبَيَّنَ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الأُصُولَ جَمْعُ أَصْلٍ، وَهُوَ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَمِنْ ذَلِكَ: أَصْلُ الجِدَارِ وَهُوَ أَسَاسُهُ، وأَصْلُ الشَّجَرَةِ الَّذِي يَتَفَرَّعُ مِنْهُ الأَغْصَانُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.[إبراهيم: ٢٤] وَالشِّرْكُ عِبَادَ اللهِ هُوَ مُوبِقٌ لِلْأَعْمَالِ. الشِّرْكُ عِبَادَ اللهِ سَبَبُ إِيبَاقِ العَبْدِ في النَّارِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ".** وَدَعْوَةُ النِّدِّ أَيْ دَعْوَةُ مَنْ يَظُنُّ فِيهِ أَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ. وَقَدِ **"اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى بِالعِبَادَةِ وَنَهْيِهِ عَنِ الشِّرْكِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾.[النساء: ٣٦]**

فَأَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِعِبَادَتِهِ وَنَهَى عَنِ الشِّرْكِ بِهِ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ العِبَادَةِ لَهُ وَحْدَهُ، فَمَنْ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ فَهُوَ كَافِرٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَمَنْ عَبَدَ اللهَ وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ فَهُوَ كَافِرٌ مُشْرِكٌ، وَمَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ فَهُوَ مُسْلِمٌ مُخْلِصٌ.

وَالشِّرْكُ نَوْعَانِ:

- **شِرْكٌ أَكْبَرُ: وَهُوَ كُلُّ شِرْكٍ أَطْلَقَهُ الشَّارِعُ وَكَانَ مُتَضَمِّنًا لِخُرُوجِ الإِنْسَانِ عَنْ دِينِهِ."** فَكُلُّ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَى غَيْرِهِ يَظُنُّ فِيهِ مَا يُظَنُّ في اللهِ فَقَدْ وَقَعَ في الشِّرْكِ، وَلَوْ قَرَّبَ مِمَّا يُقَرَّبُ إِلَى اللهِ شَيْئًا يَسِيرًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾[الزلزلة : ٧-٨] فَمَنْ عَمِلَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنَ الشِّرْكِ فَقَدْ خَرَجَ بِتِلْكَ الذَّرَّةِ مِنْ جَنَابِ التَّوْحِيدِ وَبِخَاصَّةٍ في الشِّرْكِ الأَكْبَرِ.
- **النوعُ الثاني: شِرْكٌ أَصْغَرُ: وَهُوَ كُلُّ عَمَلٍ قَوْلِيٍّ أَوْ فِعْلِيٍّ أَطْلَقَ عَلَيْهِ الشَّرْعُ وَصْفَ الشِّرْكِ وَلَكِنَّهُ لَا يُخْرِجُ مِنَ المِلَّةِ.**

وَعَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَحْذَرَ مِنَ الشِّرْكِ مِنْ أَكْبَرِهِ وَأَصْغَرِهِ وَدَقِيقِهِ وَجَلِيلِهِ. فَقَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.[النساء: ٤٨]

فَإِذَا مَا عَلِمْتَ عَبْدَ اللهِ خُطُورَةَ الشِّرْكِ وَعِظَمَ التَّوْحِيدِ، وَعَلِمْتَ عَبْدَ اللهِ أَنَّ هَذَا مِمَّا يَجِبُ عَلَيْكَ، فَعَلَيْكَ يَا عَبْدَ اللهِ وَعَلَيْكِ يَا أَمَةَ اللهِ أَنْ يَكُونَ لَكَ فِي هَذَا البَابِ سَهْمٌ مِنَ العِلْمِ وَأَنْ تُقِيمَ دِينَكَ عَلَى أُصُولِهِ الَّتِي لَا قِيَامَ لَكَ إِلَّا بِهِ.

"فَإِذَا قِيلَ لَكَ مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا، فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، ومَعْرِفَةُ العَبْدِ نَبِيَّهُ، ومَعْرِفَةُ العَبْدِ دِينَهُ"

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.[إبراهيم: ٢٤]. فَبَيَّنَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ فُرُوعَ الشَّجَرَةِ وَأَنَّ ثَمَرَتَهَا إِنَّمَا ذَلِكَ كُلُّهُ نِتَاجُ أَصْلِهَا الثَّابِتِ. كَذَلِكَ الأَعْمَالُ وَالأَقْوَالُ وَالأَحْوَالُ وَالمَقَامَاتُ لَا يَكُونُ لَهَا وُجُودٌ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا إِلَّا إِذَا أَقَامَهَا عَلَى أَصْلٍ قَوِيٍّ مَتِينٍ.

"وَالأُصُولُ جَمْعُ أَصْلٍ، وَالأَصْلُ هُوَ مَا يُبْنَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَمِنْ ذَلِكَ أَصْلُ الجِدَارِ وَهُوَ أَسَاسُهُ، وَأَصْلُ الشَّجَرَةِ الَّذِي يَتَفَرَّعُ مِنْهُ الأَغْصَانُ. وَهَذِهِ الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ يُشِيرُ بِهَا المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى الأَسْئِلَةِ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا المَرْءُ فِي قَبْرِهِ فَيُقَالُ لَكَ مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ." وهَذَا أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ المَرْءُ فَإِنَّهُ يُغَيِّرُ رَبَّهُ فِي بَدْءِ سَيْرِهِ إِلَى لِقَاءِ رَبِّهِ وَهَذَا اللِّقَاءُ غَيْرُ مَعْلُومٍ، وَالأَجَلُ مَحْتُومٌ، وَاللِّقَاءُ إِمَّا لِقَاءُ فَرَحٍ وَسُرُورٍ، أَوْ لِقَاءُ حُزْنٍ وَطَرَحٍ وَغَمٍّ وَهُمُومٍ. فَلِذَا عَلَى المَرْءِ أَنْ يَجْتَهِدَ فِي مَعْرِفَةِ جَوَابِ هَذِهِ الأَسْئِلَةِ. فَقَدْ ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ هَذِهِ الأُصُولَ هِيَ أَهَمُّ الأُصُولِ:

- مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ.
- مَعْرِفَةُ العَبْدِ دِينَهُ.
- مَعْرِفَةُ العَبْدِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"وَهَذِهِ المسألةُ تَأْتِي بِصِيغَةِ السُّؤَالِ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَنْتَبِهَ الإِنْسَانُ إِلَيْهَا لِأَنَّهَا مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ وَأُصُولٌ كَبِيرَةٌ. وَإِنَّمَا قَالَ إِنَّ هَذِهِ الأُصُولَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا لِأَنَّهَا هِيَ الأُصُولُ وَالأَسْئِلَةُ الَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا المَرْءُ في قَبْرِهِ. فَإِذَا مَا دُفِنَ" وَصَارَ وَحِيدًا شَرِيدًا وَصَارَ حَبِيسًا جَلِيسًا **"وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ فَسَأَلَاهُ مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَا نَبِيُّكَ".** فَأَيُّ عَقْلٍ يَسْتَحْضِرُ الإِجَابَةَ إِنْ لَمْ يَكُنِ الَّذِي يُثَبِّتُهُ هُوَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ؟ وَأَيُّ نَفْسٍ تَتَحَمَّلُ ذَلِكَ المَوْقِفَ حِينَمَا يُجَرَّدُ المَرْءُ مِنْ ثِيَابِهِ، وَحِينَمَا يُخْرَجُ المَرْءُ مِنْ بَيْنِ أَبْنَائِهِ وَحِينَ يُخْرَجُ المَرْءُ مِنْ دَارِهِ وَسُلْطَانِهِ مَحْمُولًا عَلَى الأَعْنَاقِ لِيُوارىٰ التُّرَابِ وَيُرْدَمُ عَلَيْهِ وَيُغْلَقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ فَيَجِدُ نَفْسَهُ وَحْدَهُ في ظُلْمَةٍ شَدِيدَةٍ وَفي كَرْبٍ كَارِبٍ وَفي هَمٍّ عَظِيمٍ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَانِ عَظِيمَانِ قَدِ امْتَدَّتْ أَشْعَارُهُمَا فَصَارَتْ وَرَاءَهُمَا يَجُرَّانِهَا عَلَى الأَرْضِ وَاشْتَدَّتْ أَعْيُنُهُمَا فَكَانَتْ كَالبَرَدِ وَامْتَدَّتْ أَنْيَابُهُمَا حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى التُّرَابِ، وَأَصْوَاتُهُمَا كَالرَّعِدِ القَاسِفِ. فَهَذَا مَنْظَرٌ فَظِيعٌ وَهَذَا شَأْنٌ عَظِيمٌ. وَالمُثَبَّتُ مَنْ ثَبَّتَهُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ، وَالمُؤَيَّدُ مَنْ أَيَّدَهُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ وَالمُوَفَّقُ إِنَّمَا يُوَفَّقُ بِطَاعَتِهِ وَالمَخْذُولُ إِنَّمَا خُذِلَ بِمَعْصِيَتِهِ.

"فَأَمَّا المُؤْمِنُ" فَإِذَا سُئِلَ عَنْ رَبِّهِ قَالَ رَبِّيَ اللهُ، وَإِذَا سُئِلَ عَنْ دِينِهِ قَالَ دِينِيَ الإِسْلَامُ، وَإِذَا سُئِلَ عَنْ نَبِيِّهِ قَالَ نَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"وَأَمَّا المُرْتَابُ" وَأَمَّا الفَاجِرُ وَأَمَّا المُنَافِقُ الَّذِي عَاشَ فِي الدُّنْيَا عِيشَةَ البَهَائِمِ لَا هَمَّ لَهُ وَلَا حَظَّ مِنْ حَيَاتِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِي الحَيَاةِ لَاعِبًا لَاهِيًا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ آكِلًا شَارِبًا، إِلَّا أَنْ يَكُونَ ضَاحِكًا هَازِلًا، **"فَيُقَالُ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهَا لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ"** فَلَا يُدْرِكُ رَبًّا كَانَ يَعْبُدُهُ، وَلَا يُدْرِكُ دِينًا كَانَ يَتْبَعُهُ وَلَا يُدْرِكُ نَبِيًّا كَانَ يُتَابِعُهُ، كُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ المُعْرِضِينَ. وَفِيهِ يَقُولُ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦)﴾ [طه : ١٢٤-١٢٦]

أَجْمَعَ المُفَسِّرُونَ أَنَّ المَعِيشَةَ الضَّنْكِ هِيَ شِدَّةُ الحِسَابِ فِي القَبْرِ، فَنَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ مِنْ قُلُوبٍ عَنِ المَوْتِ وَذِكْرِ القَبْرِ لَاهِيَةٍ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ عَنْ عُقُولٍ عَنْ ضَمَّةِ القَبْرِ وَشِدَّةِ المَوْتِ وَسَكْرَتِهِ لَاهِيَةٍ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِضَعْفِ الإِيمَانِ وَانْشِغَالِ المَرْءِ فِي السَّفَاسِفِ مِنَ الأُمُورِ فِي الحَيَاةِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ النَّاسَ قَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُمْ وَغُشِيَ عَلَى عُقُولِهِمْ وَانْصَرَفُوا عَنْ دِينِهِمْ، فَلَا الْعِلْمُ يَتَعَلَّمُونَهُ وَلَا لِلْوَعْظِ يَسْمَعُونَهُ وَلَا فِي كُتُبِ أَهْلِ العِلْمِ يَقْرَؤُونَ. فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

قَالَ الشارحُ رَحِمَهُ اللهُ: **"وَمَعْرِفَةُ اللهِ تَكُونُ بِأَسْبَابٍ مِنْهَا النَّظَرُ وَالتَّفَكُّرُ فِي مَخْلُوقَاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَتِهِ وَمَعْرِفَةِ عَظِيمِ سُلْطَانِهِ وَتَمَامِ قُدْرَتِهِ وَعِظَمِ حِكْمَتِهِ"** وَعِظَمِ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[الأعراف: ١٨٥]

أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ذَلِكَ الكَوْنِ الفَسِيحِ المُتَرَامِيَةِ أَطْرَافُهُ العَظِيمَةِ أَنْحَاؤُهُ؟ هَذَا كُلُّهُ خَلْقُ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مُبَيِّنًا أَنَّ النَّظَرَ في الخَلْقِ مِمَّا يَكُونُ سَبَبًا في الوَعْظِ وَالاتِّعَاظِ فَقَالَ: **﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.[سبأ: ٤٦]**

عِبَادَةُ التَّفَكُّرِ:يَتَفَكَّرُ المَرْءُ في نَفْسِهِ، يَتَفَكَّرُ المَرْءُ في طَعَامِهِ، يَتَفَكَّرُ المَرْءُ في مَنَامِهِ، يَتَفَكَّرُ المَرْءُ في مَتَاعِهِ، يَتَفَكَّرُ المَرْءُ في وَلَدِهِ، يَتَفَكَّرُ المَرْءُ في خَلْقِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

هَذَا التَّفَكُّرُ لَا يُهْدَى إِلَيْهِ، وَلَا يُوَفَّقُ إِلَيْهِ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ أَصْحَابُ العُقُولِ المُفَكِّرَةِ، وَأَصْحَابُ القُلُوبِ السَّلِيمَةِ.

وَفي ذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾.[آل عمران: ١٩٠]**

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ**﴾.[**يونس: ٦]** إِذَا مَرَّ عَلَى المَرْءِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَرَّتْ عَلَى المَرْءِ آيَاتُ اللهِ العَزِيزِ القَفَّارِ وَلَمْ يَتَأَثَّرِ المَرْءُ بِهِ وَلَمْ يَزْدَادْ بِهَا إِيمَانُهُ، فَلَيْسَ مِنْ أُولِي الأَلْبَابِ وَلَيْسَ مِنَ المُتَّقِينَ. قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ **[البقرة: ١٦٤]**

يَا مَنْ تَدَّعُونَ العِلمَ، يَا مَنْ تَدَّعُونَ العَقْلَ وَالفَهْمَ، أَيْنَ تَدَبُّرُكُمْ؟ أَيْنَ تَفْكِيرُكُمْ في مَخْلُوقَاتِ رَبِّكُمْ؟ أَيْنَ تَفْكِيرُكُمْ وَتَدَبُّرُكُمْ لِلْآيَاتِ الَّتِي تَتْرَى أَمَامَ أعيُنِكُمْ وَتَتْرَى عَلَى أَسْمَاعِكُمْ؟ لِمَاذَا لَا تَعْقِلُونَ؟ وَلِمَاذَا لَا تَتَدَبَّرُونَ؟ وَلِمَاذَا بِهَذِهِ الآيَاتِ إِيمَانًا لَا تَزْدَادُونَ؟ كُلُّ ذَلِكَ لِمَا رَانَ عَلَى القَلْبِ مِنْ ذُنُوبٍ وَغَفْلَةٍ وَسَكْرَةٍ، {كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين : ١٤]

"**وَمِنْ أَسْبَابِ مَعْرِفَةِ العَبْدِ رَبَّهُ النَّظَرُ في آيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ**" وَهِيَ الوَحْيُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. "**فَيَنْظُرُ في هَذِهِ الآيَاتِ، وَمَا فِيهَا مِنَ المَصَالِحِ العَظِيمَةِ الَّتِي لَا تَقُومُ حَيَاةُ الخَلْقِ في الدُّنْيَا، وَلَا في الآخِرَةِ إِلَّا بِهَا**" فَإِذَا نَظَرَ المَرْءُ في آيَاتِ اللهِ في كِتَابِهِ "**وَتَأَمَّلَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ العِلْمِ وَالحِكَمَةِ**" وَأَنَّهَا مِنْ لَدُنْ رَبٍّ عَظِيمٍ حَكِيمٍ عَلِيمٍ عَلَى مَصَالِحِ

العِبَادِ حَرِيصٍ بِعِبَادِهِ رَءُوفٍ رَحِيمٍ. **"وَوجَدَ إنتظَامَهَا وَمُوَافَقَتَهَا لِمَصَالِحِ العِبَادِ عَرَفَ بِذَلِكَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ"** في تَوَدُّدِهِ في مَحَبَّتِهِ لِخَلْقِهِ أَنْ شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الشَّرَائِعِ مَا يُقِيمُ حَيَاتَهُمْ وَيُسْعِدُهُمْ في قُبُورِهِمْ وَيُعَافِيهِمْ عِنْدَ مَعَادِهِمْ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّةَ رَبِّهِ قَالَ تَعَالَى:﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾**[سورة النساء: ٨٢]**

وَمِمَّا يُوَصِّلُ المَرْءَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ **"مَا يُلْقِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في قَلْبِ المُؤْمِنِ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَتَّى كَأَنَّهُ يَرَى رَبَّهُ رَأْيَ عَيْنٍ".** وَهَذِهِ زِيَادَةٌ في الإِيمَانِ فَإِذَا مَا أَسْلَمَ المَرْءُ قَلْبًا وَقَالَبًا وَاتَّجَهَ إِلَى اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ رَاغِبًا رَاهِبًا وَحَرَصَ عَلَى العِلْمِ النَّافِعِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ أَتَتْهُ فُيُوضَاتٌ مِنَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَكَرَامَاتٌ تَنْزِلُ في قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ وَتَثْبِيتَاتٌ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ سَائِرُونَ. هَذِهِ مِنَّةُ اللهِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ فَيصِلُوا إِلَى مُرَاقَبَةِ اللهِ ثُمَّ أَصِلُوا بَعْدَ المُرَاقَبَةِ إِلَى المُشَاهَدَةِ فَيَعْبُدُونَ اللهَ بِالإِحْسَانِ الَّذِي قَالَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ"** أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب.

فَيَبْدَأُ المَرْءُ بِتَسْلِيمِ قَلْبِهِ وَقَالَبِهِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَينْصَاعَ إِلَى أَوَامِرِهِ وَيَخْضَعَ إِلَى تَرْكِ نَوَاهِيهِ وَيَخْرَجَ مِنْ دَاعِيَةِ نَفْسِهِ وَهَوَاهُ إِلَى دَاعِيَةِ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ وَحِينَئِذٍ تَنْزِلُ عَلَيْهِ البَرَكَاتُ وَتُحِيطُهُ الكَرَامَاتُ فَيَجْعَلُ اللهُ في قَلْبِهِ فُيُوضَاتٍ

فَيصَلَ بِهَا إِلَى دَرَجَةِ الإِحْسَانِ فَاعْبُدُوا اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ بِالعَيَانِ كَأَنَّهُ يَرَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

وَأَمَّا **"الأَصْلُ الثَّانِي فَهُوَ مَعْرِفَةُ دِينِهِ الَّذِي كُلِّفَ العَمَلَ بِهِ، وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَمَصَالِحِ الخَلْقِ، وَدَرْءِ المَفَاسِدِ عَنْها، وَدِينُ الإِسْلَامِ مَنْ تَأَمَّلَهُ حَقَّ التَّأَمُّلِ تَأَمُّلًا مَبْنِيًّا عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَرَفَ أَنَّهُ دِينُ الحَقِّ وَأَنَّهُ الدِّينُ الَّذِي لَا تَقُومُ مَصَالِحُ الخَلْقِ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ تَقِيسَ الإِسْلَامَ بِمَا عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ فَإِنَّ المُسْلِمِينَ قَدْ فَرَّطُوا في أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، وَارْتَكَبُوا مَحَاذِيرَ عَظِيمَةٍ حَتَّى كَأَنَّ العَائِشَ بَيْنَهُمْ في بَعْضِ بِلَادِ المُسْلِمِينَ يَعِيشُ في جَوٍّ غَيْرِ إِسْلَامِيٍّ."**

فَالإِسْلَامُ لَا يُعْرَفُ مِنْ خِلَالِ أَهْلِهِ وَإِنَّمَا الإِسْلَامُ يُعْرَفُ مِنْ خِلَالِ أَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ وَشَرْعِهِ وَقَضَائِهِ وَأَحْكَامِهِ وَتَكَالِيفِهِ. فَالدِّينُ الإِسْلَامِيُّ دِينٌ قَدْ أَحَاطَ بِالإِنْسَانِ بِكُلِّ جَوَانِبِ حَيَاتِهِ يَحْمِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، يَحْمِيهِ مِنْ شَيَاطِينِ الجِنِّ وَالإِنْسِ، يَحْمِيهِ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ وَالأَهْوَاءِ، يَحْمِيهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ المُذِلَّةِ وَمِنَ الشُّبُهَاتِ المُضِلَّةِ.

كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ لَا يَنْخَرِطَ مَعَ الضَّالِّينَ وَأَنْ لَا يَسِيرَ في رِكَابِ الهَالِكِينَ. **"فَدِينُ الإِسْلَامِ العَظِيمُ مُتَضَمِّنٌ لِجَمِيعِ المَصَالِحِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا الأَدْيَانُ السَّابِقَةُ وَيَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ بِكَوْنِهِ صَالِحًا مُصْلِحًا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ. وَمَعْنَى كَوْنِهِ صَالِحًا مُصْلِحًا لِكُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ أَنَّ التَّمَسُّكَ بِهِ لَا يُنَافِي**

مَصَالِحَ الأُمَّةِ في أَيِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ. فَدِينُ الإِسْلَامِ يَأْمُرُ بِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ وَيَنْهَى عَنْ كُلِّ عَمَلٍ طَالِحٍ، فَهُوَ يَأْمُرُ بِكُلِّ خُلُقٍ فَاضِلٍ وَيَنْهَى عَنْ كُلِّ خُلُقٍ سَافِلٍ".

فَمَا أَحْوَجَ المُسْلِمِينَ أَنْ يَرَوْا في الإِسْلَامِ إِطْلَاقًا لِحُرِّياتهم لَيْسَتْ تِلْكَ الحُرِّيَّةَ المَزْعُومَةَ، وَلَكِنَّهَا الحُرِّيَّةُ الَّتِي تَكُونُ في تَمَامِ العُبُودِيَّةِ حَيْثُ يَخْرُجُ المَرْءُ مِنْ أَسْرِ الشَّهَوَاتِ، وَمِنْ أَسْرِ الشُّبُهَاتِ وَمِنْ أَسْرِ الدُّنْيَا بِفِتَنِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ مُلْذَاتٍ. فَلَا تَسْتَأْسِرُهُ شَهْوَةٌ وَلَا تُضِلُّهُ شُبْهَةٌ وَلَا يَتَقَيَّدُ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ هَذِهِ الدُّنْيَا وَإِنَّمَا يَعِيشُ في رِحَابِ هَذَا الدِّينِ يَنْطَلِقُ خَارِجَ الحُدُودِ الضَّيِّقَةِ، خَارِجَ حُدُودِ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ خَارِجَ حُدُودِ البَدَنِ وَالأَبْنَاءِ وَالأَهْلِ وَالمُجْتَمَعِ فَيَحْيَا الحَيَاةَ بِقَلْبٍ قَدْ تَعَلَّقَ بِاللهِ لَا بِأَحَدٍ سِوَاهُ.

يَحْيَا الحَيَاةَ يَجْعَلُ صَبَاحَهُ وَمَسَاءَهُ وَمَالَهُ وَأَهْلَهُ وَوَلَدَهُ وَعَمَلَهُ كُلَّ ذَلِكَ مُسَخَّرًا لِطَاعَةِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ قَائِمًا عَلَى تَحْكِيمِ دِينِ الإِسْلَامِ العَظِيمِ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَنْبَغِي عَلَى المَرْءِ أَنْ يُحِيطَ بِهِ في دُنْيَا اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

"وَأَمَّا الأَصْلُ الثَّالِثُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ الإِنْسَانِ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" لِذَا يَنْبَغِي عَلَى المُسْلِمِينَ أَنْ يَقُومُوا بِدِرَاسَةِ سِيرَةِ النَّبِيِّ الأَمِينِ، يَنْبَغِي عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَتَعَلَّمَ أَخْلَاقَ نَبِيِّهِ في هَدْيِهِ وَسَمْتِهِ وَدَلِّهِ وَأَمْرِهِ مِنْ

أَجْلِ أَنْ يَأْخُذَ ذَلِكَ خُلُقًا يَتَخَلَّقُ بِهِ وَنِبْرَاسًا يَتَمَسَّكُ بِهِ وَأُسْوَةً يَتَأَسَّى بِهِ وَقُدْوَةً يَقْتَدِي بِهِ.

فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ التَّطْبِيقَ العَمَلِيَّ لِهَذَا الدِّينِ فَمَا مِنْ صَغِيرٍ وَلَا كَبِيرٍ وَلَا فَرْضٍ وَلَا سُنَّةٍ إِلَّا وَقَدْ قَامَ بِهِ النَّبِيُّ الأَمِينُ؛ وَمَا مِنْ خُلُقٍ فَاضِلٍ وَلَا سُلُوكٍ مُسْتَقِيمٍ إِلَّا وَقَدْ تَخَلَّقَ بِهِ النَّبِيُّ الأَمِينُ. فَالْمَرْءُ يَحْتَاجُ إِلَى دِرَاسَةِ حَيَاةِ النَّبِيِّ رَجُلًا كَانَ أَوِ امْرَأَةً، ذَكَرًا كَانَ أَوِ أُنْثَى، حَاكِمًا كَانَ أَوِ مَحْكُومًا لِأَنَّ **"حَيَاةَ النَّبِيِّ هِيَ دِرَاسَةٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ العِبَادَةِ وَالأَخْلَاقِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ وَالجِهَادِ في سَبِيلِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ جَوَانِبِ حَيَاتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ."**

"لِذَا يَنْبَغِي لِكُلِّ إِنْسَانٍ يُرِيدُ أَنْ يَزْدَادَ مَعْرِفَةً بِنَبِيِّهِ وإِيمَانًا بِهِ أَنْ يُطَالِعَ مِنْ سِيرَتِهِ مَا تَيَسَّرَ لَهُ في حَرْبِهِ وَسَلْمِهِ وَشِدَّتِهِ وَرَخَائِهِ" وَفَقْرِهِ وَغِنَاهُ وَحُزْنِهِ وَفَرَحِهِ وَأَخْذِهِ وَعَطَائِهِ أَنْ يَدْرُسَ سِيرَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جَمِيعِ أَحْوَالِهِ حَتَّى يَكُونَ مِنَ المُتَّبِعِينَ لِلرَّسُولِ الأَمِينِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَأَنْ يَتَوَفَّى عَلَى ذَلِكَ لِيَكُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ إِلَى أَنْ يَلْقَى اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ.

وَهَذَا مَا يَنْبَغِي عَلَى المُسْلِمِ فَإِذَا قِيلَ لَكَ في قَبْرِكَ أَوْ قَبْلَ مَوْتِكَ حِينَ تُسْأَلُ عَنْ عَقِيدَتِكَ: **"فَإِذَا قِيلَ لَكَ مَنْ رَبُّكَ فَقُلْ رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعَمِهِ"** حِينَ يُسْأَلُ المَرْءُ عَنْ رَبِّهِ فَيقُول: **"رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي"** أَيِ الَّذِي خَلَقَنِي وَأَمَدَّنِي وَرَزَقَنِي وَأَحْيَانِي وَالَّذِي يُمِيتُنِي.

"وَالتَّرْبِيَةُ هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الرِّعَايَةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا تَقْوِيمُ المُرَبِّي وَيُشْعَرُ كَلَامِ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الرَّبَّ مَأْخُوذٌ مِنَ التَّرْبِيَةِ لِأَنَّهُ قَالَ "الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعَمِهِ "فَكُلُّ العَالَمِينَ قَدْ رَبَّاهُمُ اللهُ بِنِعَمِهِ وَأَعَدَّهُمْ لِمَا خُلِقُوا لَهُ وَأَمَدَّهُمْ بِرِزْقِهِ. قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في مُحَاوَرَةِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾ [طه : ٤٩-٥٠].

فَكُلُّ أحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ قَدْ رَبَّاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِنِعَمِهِ وَنِعَمُ اللهِ كَثِيرَةٌ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى قَالَ تَعَالَى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.[النحل: ١٨]

فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَكَ وَأَعَدَّكَ وَرَزَقَكَ وَأَمَدَّكَ فَهُوَ سُبْحَانَهُ المُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ." فَإِذَا طَالَمَا أَنَّهُ رَبِّي فَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ **"هُوَ الَّذِي أَعْبُدُهُ، وَأَتَذَلَّلُ لَهُ خُضُوعًا وَمَحَبَّةً رَغْبَةً وَتَعْظِيمًا أَفْعَلُ مَا يَأْمُرُنِي بِهِ وَأَتْرُكُ مَا يَنْهَانِي عَنْهُ، فَلَيْسَ لِي أَحَدٌ أَعْبُدُهُ سِوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ"** لَيْسَ أَحَدٌ أَرْجُوهُ سِوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ أَحَدٌ أَخَافُهُ سِوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

وَقَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.[البينة: ٥]

فَاللَّهُ رَبِّي وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾.[الفاتحة: ٢].

"اسْتَدَلَّ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ لِكَوْنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُرَبِّيًا لِجَمِيعِ الخَلْقِ بِقَوْلِهِ ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢] يَعْنِي الوَصْفَ بِالكَمَالِ وَالجَلَالِ وَالعَظَمَةِ للهِ تَعَالَى {رَبِّ العَالَمِينَ} أَيْ مُرَبِّيهِمْ بِالنِّعَمِ وَخَالِقِهِمْ وَمَالِكِهِمْ وَالمُدَبِّرِ لَهُمْ كَمَا شَاءَ.

" فَكُلُّ مَا سِوَى اللهِ عَالَمٌ وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ،فَإِذَا قِيلَ لَكَ بِمَا عَرَفْتَ رَبَّكَ فَقُلْ بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا."

العَالَمُ كُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ وَسُمُّوا عَالَمًا لِأَنَّهُمْ عَلَمٌ عَلَى خَالِقِهِمْ وَمَالِكِهِمْ وَمُدَبِّرِهِمْ. فَفِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ وَأَنَّ المُجِيبَ بِهَذَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ. وإِذَا كَانَ رَبِّي وَأَوْجَبَ عَلَيَّ أَنْ أَعْبُدَهُ وَحْدَهُ أَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ" أَيْ أَنَا وَاحِدٌ مِنْ هَذَا العَالَمِ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَرَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ.

"فَإِذَا قِيلَ لَكَ بِأَيِّ شَيْءٍ عَرَفْتَ رَبَّكَ" فَقُلْ عَرَفْتُهُ بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ. وَهَذَا يُكَذِّبُ تِلْكَ المَقُولَةَ الشَّائِعَةَ الَّتِي يَقُولُونَ عَرَفْنَا اللهَ بِالعَقْلِ، فَلَقَدْ كَانَ المُشْرِكُونَ عِنْدَهُمْ عُقُولٌ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَعْرِفُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَكِنَّ أَهْلَ الإِيمَانِ عَرَفُوا اللهَ رَبَّ العَالَمِينَ بِآيَاتِهِ الكَوْنِيَّةِ وَآيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ.

"فإذَا قِيلَ لَكَ بِمَا عَرَفْتَ رَبَّكَ" وَكَيْفَ عَرَفْتَ رَبَّكَ "فَقُلْ" عَرَفْتُهُ "بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ". **"وَالآيَاتُ جَمْعُ آيَةٍ وَهِيَ العَلَامَةُ عَلَى الشَّيْءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُبَيِّنُهُ، آيَاتُ اللهِ تَعَالَى نَوْعَانِ:**

- **كَوْنِيَّةٌ**
- **شَرْعِيَّةٌ**

فَالكَوْنِيَّةُ: هِيَ المَخْلُوقَاتُ وَالشَّرْعِيَّةُ: هِيَ الوَحْيُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى رُسُلِهِ. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ قَوْلُ المُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللهُ "بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ" مِنْ بَابِ عَطْفِ الخَاصِّ عَلَى العَامِّ إِذَا فَسَّرْنَا الآيَاتِ بِأَنَّهَا الآيَاتُ الكَوْنِيَّةُ وَالشَّرْعِيَّةُ أَوْ مِنْ بَابِ عَطْفِ المُبَايِنِ المُغَايِرِ إِذَا خَصَّصْنَا الآيَاتِ بِالآيَاتِ الشَّرْعِيَّةِ.

وَعَلَى كُلٍّ فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُعْرَفُ بِآيَاتِهِ الكَوْنِيَّةِ وَهِيَ المَخْلُوقَاتُ العَظِيمَةُ وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ الصَّنْعَةِ وَبَالِغِ الحِكْمَةِ وَكَذَلِكَ يُعْرَفُ بِآيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ وَمَا فِيهَا مِنَ العَدْلِ وَالاجْتِمَاعِ عَلَى المَصَالِحِ وَدَفْعِ المَفَاسِدِ." قَالَ القَائِلُ:

"وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ".

"هَذِهِ الآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى" فَهَذِهِ الآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ **"وَكَمَالِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ".**

"فَالشَّمْسُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِكَوْنِهَا تَسِيرُ سَيْرًا مُنْتَظِمًا بَدِيعًا مُنْذُ أَنْ خَلَقَهَا اللهُ وَإِلَى أَنْ يَأْذَنَ اللهُ تَعَالَى بِخَرَابِ العَالَمِ. فَهِيَ تَسِيرُ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة يس: ٣٨] وَهِيَ مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى بِحَجْمِهَا وَآثَارِهَا، أَمَّا حَجْمُهَا فَعَظِيمٌ كَبِيرٌ وَأَمَّا آثَارُهَا فَمَا يَحْصُلُ مِنْهَا مِنَ المَنَافِعِ لِلْأَجْسَامِ وَالأَشْجَارِ وَالأَنْهَارِ وَالبِحَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الشَّمْسِ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ العَظِيمَةِ إِلَى مَدَى البُعْدِ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّنَا نَجِدُ حَرَارَتَهَا تِلْكَ الحَرَارَةَ العَظِيمَةَ. ثُمَّ انْظُرْ مَاذَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنَ الإِضَاءَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي يَحْصُلُ بِهَا تَوْفِيرُ أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ عَلَى النَّاسِ، فَإِنَّ النَّاسَ فِي النَّهَارِ يَسْتَغْنُونَ عَنْ كُلِّ إِضَاءَةٍ وَيَحْصُلُ بِهَا مَصْلَحَةٌ كَبِيرَةٌ لِلنَّاسِ مِنْ تَوْفِيرِ أَمْوَالِهِم، وَيُعَدُّ هَذَا مِنَ الآيَاتِ الَّتِي لَا نُدْرِكُ إِلَّا اليَسِيرَ مِنْهَا." إِنَّ النَّاسَ يَحْتَاجُونَ إِلَى طَاقَاتٍ عَظِيمَةٍ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُضِيئُوا بُيُوتَهُمْ وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يُدْفِئُوا حُجُرَاتِهِمْ. فَكَيْفَ بِقُدْرَةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى إِضَاءَةِ الكَوْنِ كُلِّهِ وَعَلَى تَغْيِيرِ حَرَارَتِهِ بِهَذِهِ الآيَةِ. فَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَةِ خَلْقِ الشَّمْسِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ.

"وَكَذَلِكَ القَمَرُ مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ حَيْثُ قَدَّرَهُ اللهُ مَنَازِلَ لِكُلِّ لَيْلَةٍ مَنْزِلَهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] فَهُوَ يَبْدُو صَغِيرًا ثُمَّ يَكْبُرُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا حَتَّى يَكْمُلَ ثُمَّ يَعُودُ إِلَى

النَّقْصِ. وَهُوَ يُشْبِهُ الإِنْسَانَ حَيْثُ أَنَّهُ يُخْلَقُ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَرَقَّى مِنْ قُوَّةٍ إِلَى قُوَّةٍ حَتَّى يَعُودَ إِلَى الضَّعْفِ مَرَّةً أُخْرَى، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ. "

إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَخْرَجَ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ وَهِيَ أُمَّةُ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، هَذِهِ الْأُمَّةُ تَرَبَّتْ عَلَى أُصُولٍ أَصِيلَةٍ، وَرَكَائِزَ مَتِينَةٍ فَكَانَتْ جِبَالًا شَامِخَةً، وَكَانَتْ أَوْتَادًا رَاسِخَةً، وَأَظْهَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهَا دِينَ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمَ فِي زَمَانٍ كَثُرَ فِيهِ الشِّرْكُ وَعَمَّ وَطَمَّ وَعَاثَ النَّاسُ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا.

وَلَكِنْ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةِ مِنْ حَوْلِهِ تَغَيَّرَ الْعَالَمُ كُلُّهُ مِنَ الشِّرْكِ إِلَى الْإِيمَانِ وَمِنَ الْفُجُورِ وَالْعِصْيَانِ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْخُضُوعِ وَالْإِذْعَانِ، وَذَلِكَ لِمَا صَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فِي تَرْبِيَةِ هَذَا الْجِيلِ، وَتَحْكِي لَنَا أُمُّنَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَيْفَ تُرَبَّى هَذَا الْجِيلُ؟ وَذَلِكَ لَمَّا جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أُمِّنَا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ يَا أُمِّ: "أُرِيدُ مُصْحَفَكِ" فَقَالَتْ: "لِمَا".

قَالَ: "كَيْ أُؤَلِّفَ عَلَيْهِ النَّاسَ" أَيْ كَيْ أَجْمَعَ عَلَيْهِ النَّاسَ. فَقَالَتْ: "وَمَا يُضَيِّرُكَ أَنْ يَجْتَمِعَ النَّاسُ عَلَى مُصْحَفِ عَائِشَةَ أَمْ عَلَى مُصْحَفِ عُثْمَانَ أَمْ عَلَى مُصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَمْ عَلَى مُصْحَفِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، وَاللَّهِ إِنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ نَزَلَ ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَلَمَّا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ

نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا لَنْ نَدَعَ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَنْ نَدَعَ الزِّنَا أَبَدًا".

فَبَيَّنَتْ أُمُّنَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَبُّ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى لَوَازِمِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَتَعَلَّقَتْ قُلُوبُهُمْ وَارْتَبَطَتْ نُفُوسُهُمْ بِمَا يَكُونُ بَعْدَ مُغَادَرَتِهِمْ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ. وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ يَطْرَأُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ فَأَقْرَبُ شَيْءٍ إِلَيْكَ هُوَ الْمَوْتُ لِأَنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى يَأْتِي، غَدًا تَدْرِي مَتَى يَأْتِي وَبَيْنَكَ وَبَيْنَهُ سَاعَاتٌ وَبَيْنَكَ وَبَيْنَهُ أَزْمَانٌ، وَكَذَلِكَ الْأُسْبُوعُ الْقَادِمُ، وَكَذَلِكَ الشَّهْرُ الْقَادِمُ، وَأَمَّا الْمَوْتُ فَلَا تَدْرِي مَتَى يَأْتِي إِلَيْكَ لِذَا حَرَصَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عَلَى أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ هَذِهِ السَّاعَةُ، وَهُمْ عَلَى أَتَمِّ اسْتِعْدَادٍ وَمَا دَفَعَهُمْ لِذَلِكَ إِلَّا الرُّؤْيَةُ الْوَاضِحَةُ وَالْبُرْهَانُ الْيَقِينِيُّ عَلَى مَا يَحْدُثُ بَعْدَ خُرُوجِ الرُّوحِ مِنَ الْبَدَنِ.

فَبَيَّنَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا هُمْ مُقْدِمُونَ عَلَيْهِ: مِنْ نَزْعِ الرُّوحِ وَسَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَسُؤَالِ الْقَبْرِ، وَمُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، وَالْعَذَابِ فِي الْقَبْرِ أَوِ النَّعِيمِ. فَكَانُوا يَخَافُونَ أَشَدَّ الْخَوْفِ مِنْ تِلْكَ اللَّحْظَةِ حَتَّى إِنَّ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا ذُكِرَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ لَمْ يَتَأَثَّرْ، وَإِذَا ذُكِرَ بِالْقَبْرِ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ. فَقِيلَ لَهُ: يَا عُثْمَانُ، نُذَكِرُكَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَلَا تَبْكِي، وَ نُذَكِرُكَ بِالْقَبْرِ فَنَرَى مَا نَرَى مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ عَلَيْكَ. فَقَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ كَانَ يَسِيرًا فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ، وَإِنْ

كَانَ عَسِيرًا فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ". وَالْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَأَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ الْمَرْءُ عَلَيْهِ فِي قَبْرِهِ يُحَاسَبُ عَلَى مُعْتَقَدِهِ. لِذَا حَرَصَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى تَأْسِيسِ هَذَا الْمُعْتَقَدِ فِي نُفُوسِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَعَاشُوا عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُمْ سَيَلْقَوْا رَبَّ الْعَالَمِينَ، عَاشُوا عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُمْ لِهَذِهِ الدُّنْيَا مُفَارِقُونَ، عَاشُوا عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُمْ لِأَمْوَالِهِمْ تَارِكِينَ، عَاشُوا عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُمْ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ مُغَادِرِينَ. فَكَانُوا يَحْرِصُونَ عَلَى تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنْ تَأْتِيَ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي أَفْضَلِ أَحْوَالِهِمْ.

وَهَذَا مَا انتَبَهَ إِلَيْهِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَرَكَتَهَا فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ، الْعُلَمَاءُ جَمِيعًا يَشْرَحُونَهَا وَيَتَنَاوَلُونَهَا بَسْطًا وَاخْتِصَارًا، بَيَانًا وَتَوْضِيحًا، إِذْ رَكَّزَ فِيهَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْجَلَلِ، عَلَى الْأَسْئِلَةِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي سَيُسْأَلُ الْعَبْدُ عَلَيْهَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَهَذِهِ الْأَسْئِلَةُ لَا يُجَابُ عَلَيْهَا بِكَثْرَةِ حِفْظٍ، وَلَا تَرْدِيدِ لِسَانٍ، وَلَا إِثْبَاتِ ذَلِكَ فِي عَقْلٍ وَبَيَانٍ، وَإِنَّمَا الطَّرِيقُ إِلَى ذَلِكَ هُوَ قُوَّةُ الْإِيمَانِ. {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [ابراهيم : ٢٧]

هَذِهِ الْأُصُولُ هِيَ الْأُصُولُ الَّتِي كَسَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رِسَالَتَهُ عَلَيْهَا. فَقَالَ: **"فَإِذَا قِيلَ لَكَ ما الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى**

الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا، فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ وَدِينَهُ وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ."

- الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.
- الْأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ.
- الْأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ النَّبِيِّ الْأَمِينِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

فَأَمَّا الْأَصْلُ الْأَوَّلُ فَالَّذِي سَيُسْأَلُ الْعَبْدُ عَنْهُ فِي قَبْرِهِ حِينَ يَقُولُ لَكَ مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ: يَقُولَانِ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَمَا أَنْتَ قَائِلٌ؟ فَأَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ لَكَ كَيْفَ تَصِلُ إِلَى الْعِلْمِ الَّذِي يَدْفَعُكَ إِلَى الْعَمَلِ، حَتَّى إِذَا سُئِلْتَ لَمْ تَتَلَعْثَمْ وَلَمْ تَتَرَدَّدْ، وَإِنَّمَا تَكَلَّمْتَ بِلِسَانٍ فَصِيحٍ وَقَلْبٍ مُتَيَقِّنٍ غَيْرِ مُرْتَابٍ.

قال المصنف رحمه الله: **"فَإِذَا قِيلَ لَكَ مَنْ رَبُّكَ، فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّى جَمِيعِ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ. وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة:٢]. وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.**

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَا عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمْ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ" أَيِ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ هِيَ آيَاتُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْلُهُ:**{وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [فصلت : ٣٧]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف : ٥٤]

"وَالرَّبُّ هوَ الْمَعْبُودُ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)} [البقرة : ٢١-٢٢]

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: "الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ" وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا مِثْلُ: الْإِسْلَامِ، والْإِيمَانِ، والْإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَالِاسْتِغَاثَةُ، وَالِاسْتِعَاذَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا."

أَهْلُ الْحَقِّ وَالسُّنَّةِ لَا يُطْلِقُونَ الْأَقْوَالَ وَإِنَّمَا كُلُّ قَوْلٍ عَلَيْهِ دَلِيلٌ وَبُرْهَانٌ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ لَا يُثْبِتُونَ قَبْلَ أَنْ يَعْتَقِدُوا يَعْنِي يُثْبِتُ الْأَمْرَ قَبْلَ أَنْ يَعْتَقِدَهُ، فَيَسْتَدِلُّ قَبْلَ أَنْ يَعْتَقِدَ كَمَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ: "اسْتَدِلَّ قَبْلَ أَنْ تَعْتَقِدَ وَلَا تَعْتَقِدْ ثُمَّ تَسْتَدِلَّ فَتَضِلُ" يَقِفُونَ عَلَى الدَّلِيلِ فِي أَوَّلِ مَا يُقَرِّرُونَ الْقَاعِدَةَ فَإِذَا مَا اسْتَقَرَّ الدَّلِيلُ بَنَوْا عَلَى الدَّلِيلِ قَاعِدَةً يُؤَصِّلُونَ عَلَيْهَا الْأُصُولَ وَيُقَعِّدُونَ عَلَيْهَا الْأَحْكَامَ.

اللَّهُ رَبِّي الَّذِي رَبَّانِي بِنِعَمِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمَعْبُودُ فَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ. كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ؟ بِآيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ وَآيَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ. مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هِيَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ الدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [فصلت : ٣٧]**

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف : ٥٤]

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"فَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةُ وَهِيَ مِنَ الْعَلَامَاتِ الْبَيِّنَةِ الْمُبَيِّنَةِ**

لِمَدْلُولِهَا: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فِي ذَاتِهِمَا وَاخْتِلَافِهِمَا وَمَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهِمَا مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَتَقَلُّبَاتِ أَحْوَالِهِمْ وَكَذَلِكَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فِي ذَاتِهِمَا وَسَيْرِهِمَا وَانْتظامِهِمَا وَمَا يَحْصُل بِذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَدَفْعِ مَضَارِّهِمْ"

وَالنَّاسُ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَشْكُرُونَ، فَالْيَوْمُ الَّذِي لَا تَخْرُجُ الشَّمْسُ فِيهِ مِنْ مَشرِقِهَا أَوْ تَخْرُجُ غَيْرَ مُضِيئَةٍ وَلَا بَاعِثَةٍ لِحَرَارَتِهَا هَذَا يَوْمٌ لَا يَسْتَقِيمُ فِيهِ الْعَمَلُ، لَا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ فِيهِ الْحَرَكَةَ يَوْمٌ يَشْتَدُّ بَرْدُهُ، وَيَتَكَاثَفُ ضَبَابُهُ، وَتَكْثُرُ حَوَادِثُهُ وَكُلُّ ذَلِكَ لِفَقْدِ الشَّمْسِ، لِفَقْدِ ضَوْئِهَا وَحَرَارَتِهَا وَنُورِهَا، فَكَيْفَ لَوْ ظَلَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ شُهُورًا وَدُهُورًا لَانْعدَمَتِ الْحَيَاةُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ لَا يَحْمَدُونَ، وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ حِينَ يَخْرُجُوا مِنْ بُيُوتِهِمْ إِلَى أَعْمَالِهِمْ فَيَرَوُا إِشْرَاقَ الشَّمْسِ يَحْمَدُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ لِأَنَّ بِغَيْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ لَا تَسْتَقِيمُ الْحَيَاةُ.

بَلْ دُخُولُ اللَّيْلِ نِعْمَةٌ لِأَنَّ النَّهَارَ لَوِ امْتَدَّ سَرْمَدًا بِلَا هُدُوءٍ وَلَا سُكُونٍ وَلَا ظَلَامٍ لَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى اخْتِلَالٍ بَدَنِيٍّ، وَاخْتِلَالٍ بِيئِيٍّ، وَاخْتِلَالٍ نَفْسِيٍّ.

فَهَذِهِ الْآيَاتُ فِي ذَاتِهَا، وَفِي أَحْوَالِهَا، وَفِي آثَارِهَا دِلَالَةٌ وَدِلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الَّذِي خَلَقَهَا وَسَخَّرَهَا هُوَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَلَا يَقْدِرَ عَلَى ذَلِكَ مَلِكٌ مِنَ الْمُلُوكِ وَلَا حَاكِمٌ مِنَ الْحُكَّامِ وَلَا غَنِيٌّ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ. وَإِنَّهُمْ حِينَ يَفْقِدُونَ تِلْكَ النِّعْمَةَ يَرْفَعُوا أَكُفَّ الضَّراعة وَيُظْهِرُوا الْعَجْزَ وَالْخَوَرَ أَمَامَ هَذَا الْأَمْرِ.

هَذِهِ الْآيَاتُ الَّذِي خَلَقَهَا هُوَ اللَّهُ. لِمَاذَا تَعْبُدُ مَنْ دُونِ اللَّهِ وَلِمَاذَا تُعَظِّمُ مَنْ دُونِ اللَّهِ؟ فَلَمَّا ذَكَرَ أَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَعَلَى أُلُوهِيَّتِهِ، نَهَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُفْعَلَ مَعَهَا مَا يُفْعَلُ مَعَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ **" فَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْعِبَادَةَ أَنْ يَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ أَوْ يَسْجُدُوا لِلْقَمَرِ وَإِنْ بَلَغُوا مَبْلَغًا عَظِيمًا فِي نُفُوسِهِمَا لِأَنَّهُمَا لَا يَسْتَحِقَّانِ الْعِبَادَةَ لِكَوْنِهِمَا مَخْلُوقَيْنِ وَإِنَّمَا الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَهُنَّ"**.

فَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِآيَاتِ الْخَلْقِ وَالْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ، وَآيَاتٍ تَدُلُّ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ فِي الْأَمْرِ بِصَرْفِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

"وَمِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف : ٥٤]

"هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" آيَاتٌ مُتَكَاثِرَةٌ:

- **أولًا: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهَا فِي لَحْظَةٍ بِقَوْلِهِ كُنْ فَتَكُونُ وَلَكِنْ رَبَطَ الْمُسَبِّبَاتِ بِأَسْبَابِهَا كَمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ.**

- **ثَانِيًا: مِنْ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ أَيْ عَلا عَلَيْهِ عُلُوًّا خَاصًّا بِهِ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَهَذَا عُنْوَانُ كَمَالِ الْمُلْكِ وَالسُّلْطَانِ.**
- **الْآيَةُ الثَّالِثَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: "أَنَّهُ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ أَيْ يَجْعَلُ اللَّيْلَ غِشَاءً لِلنَّهَارِ أَيْ غِطَاءً لَهُ فَهُوَ كَالثَّوْبِ يُسْدَلُ عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ فَيُغَطِّيهِ وَهَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ."** هَذَا النَّهَارُ الَّذِي قَدْ عَمَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ بِضِيَائِهِ وَنُورِهِ وَشَمْسِهِ مَنِ الَّذِي يَمْلِكُ أَنْ يَصْرِفَ ذَلِكَ كُلَّهُ أَنْ يُصْرِفَ ذَلِكَ فَتَغِيبَ الشَّمْسُ وَيَأتي الْقَمَرَ مَنِ الَّذِي حَرَّكَ هَذَا وَأَتَى بِذَلِكَ وَلَا قُدْرَةَ لِأَحَدٍ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ فَكَيْفَ فِي تَصْرِيفِهِمَا وَكَيْفَ فِي تَدْبِيرِ شَأْنِهِمَا.
- **الْآيَةُ الْخَامِسَةُ: "عُمُومُ مُلْكِهِ وَتَمَامُ سُلْطَانِهِ حَيْثُ كَانَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ لَا لِغَيْرِهِ"** فَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي خَلَقَ وَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي يَأْمُرُ، يَأْمُرُ اللَّيْلَ أَنْ يَخْرُجَ بِظَلَامِهِ وَيَأْمُرُ النَّهَارَ أَنْ يَخْرُجَ بِنُورِهِ، فَإِذَا مَا قَضَى اللَّهُ قَضَاءَهُ فِي نِهَايَةِ يَوْمٍ أَمَرَ اللَّهُ اللَّيْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِظَلَامِهِ وَأَمَرَ اللَّهُ النَّهَارَ أَنْ يَخْرُجَ بِضَوْئِهِ، مَنِ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِنَّهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.
- مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ: **"عُمُومُ رُبُوبِيَّتِهِ لِلْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ".** فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ لِهَذَا الْخَلْقِ، وَهُوَ الْمَالِكُ لِهَذَا

الْمُلْكِ فَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ عَنْ مُلْكِهِ وَلَا أَمْرِهِ وَلَا تَدْبِيرِهِ. وَالْمُؤْمِنُ حِينَ يَعْرِفُ ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا اسْتَعْصَى عَلَيْهِ شَيْءٌ أَوْ عَجَزَ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى شَيْءٍ فَإِنَّهُ يَلْجَأُ إِلَى مَالِكِهِ، وَمُدَبِّرِ أَمْرِهِ وَمُصَرِّفِهِ.

وَهَكَذَا كَانَ أَصْحَابُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَكَذَا كَانَ قَبْلَهُمْ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَوْلِيَاؤُهُ، فَهَذَا يُوشَعُ بْنُ نُونٍ وَهُوَ رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ وَنَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ حِينَ خَرَجَ يُقَاتِلُ -يُجَاهِدُ- فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاسْتَطَالَ الْجِهَادُ وَأَوْشَكَتِ الشَّمْسُ عَلَى الْغُرُوبِ. وَإِذَا أَوْشَكَتِ الشَّمْسُ تَوَقَّفَ الْجِهَادُ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ أَمْسِكْ عَلَيْنَا الشَّمْسَ حَتَّى تَقْضِيَ فِيهِمْ قَضَاءَكَ". فَأَمْسَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الشَّمْسَ بِمَاذَا؟ بِدَعْوَةِ هَذَا النَّبِيِّ وَمَا دَعَا ذَلِكَ إِلَّا بِيَقِينِهِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

وَحِينَمَا نَنْظُرُ كَذَلِكَ فِي أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي مَاتَتْ دَابَّتُهُ وَهُوَ فِي صَحْرَاءَ شَاسِعَةٍ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: "يَا رَبِّ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا مَلْجَأَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ وَلَا حَاجَةَ لِي إِلَّا بِكَ وَمِنْكَ يَا رَبِّ إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ عَلَيَّ يدًا."

فَأَحْيَى اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهُ دَابَّتَهُ فَرَكِبَهَا ثُمَّ عَادَ بِهَا إِلَى بَيْتِهِ. فَلَمَّا عَادَ إِلَى الْبَيْتِ قَالَ: يَا بُنَيَّ حُلَّ السَّرْجَ فَإِنَّهَا عَارِيَةٌ. فَمَا إِنْ حَلَّ وَلَدُهُ السَّرْجَ حَتَّى عَادَتِ الدَّابَّةُ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ إِلَى الْمَوْتِ حَيْثُ أَحْيَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَرَامَةً لَهُ.

وَأَصْحَابُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ عِلْمَ يَقِينٍ. فَإِذَا اسْتَصْعَبَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ لَجَأُوا إِلَى مَالِكِهِ وَمُصَرِّفِهِ. أَبُو مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيُّ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ يُجَمِّدُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَهُمُ الْمَاءَ فَيَسِيرَانِ عَلَيْهِ بِجُنُودِهِمَا كَمَا يَسِيرَانِ عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِصِدْقٍ فِي اللَّجأِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ لَمَّا حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ بِالْبَحْرِ الْخَضِمِ الْهَائِلِ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: "يَا رَبِّ اللَّهُمَّ إِنَّا جُنْدُكَ أَتْبَاعُ نَبِيِّكَ، مَا أَتَيْنَا هَا هُنَا إِلَّا لِنَشْرِ دِينِكَ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِكَ، اللَّهُمَّ احْمِلْنَا، اللَّهُمَّ احْمِلْنَا، اللَّهُمَّ احْمِلْنَا. ثُمَّ قَالَ لِلْجُنْدِ: "مُرُّوا عَلَى الْمَاءِ وَأَنَا لَكُمْ ضَامِنٌ." فَمَرُّوا فَلَمْ يُصَبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَمْ يُصَبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ وَمَرُّوا عَلَى الْمَاءِ كَأَنَّهُمْ يَسِيرُونَ عَلَى الْأَرْضِ. مَنِ الَّذِي جَمَّدَ الْمَاءَ لِهَذَا الصَّحَابِيِّ وَلِهَذَا التَّابِعِيِّ وَلِمَنْ بَعْدَهُمَا مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنَّهُ الْيَقِينُ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِنَّهُ الْيَقِينُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْكَوْنَ مَخْلُوقٌ الَّذِي خَلَقَهُ هُوَ اللَّهُ، وَالَّذِي يُدَبِّرُ أَمْرَهُ هُوَ اللَّهُ وَالَّذِي يُصَرِّفُهُ هُوَ اللَّهُ.

"فَيُشِيرُ الْمُؤَلِّفُ إِلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف : ٥٤]

فَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ أَيُّهَا الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ هُوَ الَّذِي يُعْبَدُ لِاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ مَنْ عُبِدَ فَهُوَ رَبٌّ، فَالْآلِهَةُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَاتَّخَذَهَا عِبَادُهَا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَيْسَتْ أَرْبَابًا لَمْ تَخْلُقْ وَلَمْ تَمْلِكْ وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُصَرِّفَ، وَأَمَّا الرَّبُّ فَهُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ." وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَمَّا ذَكَرَ خَلْقَهُ وَأَمْرَهُ قَالَ سُبْحَانَهُ: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف : ٥٤] فَهُوَ الرَّبُّ وَهُوَ الْمَعْبُودُ، فَالرَّبُّ الَّذِي خَلَقَ وَالْإِلَهُ الَّذِي يُعْبَدُ جَزَاءً وِفَاقًا {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [الرحمن : ٦٠].

"وَالدَّلِيلُ" عَلَى أَنَّ الرَّبَّ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة : ٢١]

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ} النِّدَاءُ مُوَجَّهٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ مِنْ بَنِي آدَمَ أَمَرَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَا يَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا" لَا مَلَكًا مُقَرَّبًا وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا وَلَا حَجَرًا مُعَبَّدًا. "وَيُبَيِّنُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا اسْتَحَقَّ الْعِبَادَةَ لِكَوْنِهِ هُوَ الْخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ."

{الَّذِي خَلَقَكُمْ}. فَهَذِهِ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ تُعَلِّلُ مَا سَبَقَ أَيْ يَعْبُدُوهُ لِأَنَّهُ رَبُّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْ أَجْلِ كَوْنِهِ الرَّبَّ الْخَالِقَ كَانَ لِزَامًا عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ؛ وَلِهَذَا نَقُولُ يَلْزَمُ عَلَى كُلِّ مَنْ أَقَرَّ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ وَإِلَّا كَانَ مُتَنَاقِضًا." إِذَا اعْتَرَفْتَ أَنَّ الَّذِي خَلَقَهُ هُوَ اللَّهُ وَأَنَّ الَّذِي رَزَقَهُ هُوَ اللَّهُ، وَأَنَّ

الَّذِي يُحْيِي لَكَ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا هُوَ اللَّهُ، وَالَّذِي يُخْرِجُ لَكَ مِنَ الضَّرْعِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا سَائِغًا خَالِصًا لِلشَّارِبِينَ هُوَ اللَّهُ. فَلِمَاذَا لَا تَعْبُدُهُ؟

أَتَرْضَى ذَلِكَ مِنِ امْرَأَتِكَ أَنْ تَقُومَ عَلَى شَأْنِهَا ثُمَّ هِيَ تَخْضَعُ وَتُذْعِنُ لِغَيْرِكَ؟ أَتَرْضَى ذَلِكَ مِنْ وَلَدِكَ أَنْ تُنْفِقَ عَلَيْهِ وَأَنْ تُرَبِّيَهُ وَأَنْ تَقُومَ عَلَى شَأْنِهِ ثُمَّ هُوَ يَسْمَعُ وَيُطِيعُ لِأَخِيكَ لَا لِأَحَدٍ آخَرَ؟ لَا تَرْضَى ذَلِكَ مِنْهُ. فَلِمَاذَا تَرْضَى ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ لِرَبِّكَ وَهُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؟ وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَيَّنَ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَادَةَ أَنْتَ الْمُنْتَفِعُ بِهَا أَثَرُهَا يَعُودُ عَلَيْكَ، اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مُنْذُ أَنْ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا، وَلَوْ كَانَ أَوَّلُكُمْ وَآخِرُكُمْ وَإِنْسُكُمْ وَجِنُّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِ اللَّهِ شَيْئًا.

فَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا تَزِيدُهُ طَاعَةُ الطَّائِعِينَ، وَلَا تَنْقُصُهُ مَعْصِيَةُ الْعَاصِينَ وَإِنَّمَا الزِّيَادَةُ لَكَ أَنْتَ، لِذَا قَالَ لَكَ **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة : ٢١] أَيْ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَحْصُدُوا عَلَى التَّقْوَى"** وَالتَّقْوَى هِيَ سَبِيلُ وِقَايَتِكُمْ مِنْ لَوَاءِ الدُّنْيَا وَمَتَاعِبِهَا وَعَيْشِهَا الضَّنْكِ وَكَذَلِكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآخِرَةِ، وَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ فَلَابُدَّ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُتَّبِعِينَ لِأَوَامِرِهِ، وَالْمُجْتَنِبِينَ لِنَوَاهِيهِ.

ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعْضَ آيَاتِهِ فِي خَلْقِهِ **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)}** [البقرة : ٢٢] **أَيْ جَعَلَ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَمِهَادًا نَسْتَمْتِعُ فِيهَا فِي سَيْرِنَا وَبِنَائِنَا وَزَرْعِنَا مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلَا تَعَبٍ كَمَا يَنَامُ الْإِنْسَانُ عَلَى فِرَاشِهِ"** الْمُمَهَّدِ الْمُهَيَّأِ، وَجَعَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ السَّمَاءَ فَوْقَنَا بِنَاءً **"فَالْسَّمَاءُ فَوْقَ الْأَرْضِ بِنَاءٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ وَهِيَ سَقْفٌ مَحْفُوظٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ} [الأنبياء : ٣٢]**

اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَنْزَلَ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ لِتَكُونَ الْحَيَاةُ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَلَوْ مَنَعَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ذَلِكَ الْمَاءَ لَانْعَدَمَتِ الْحَيَاةُ بِكُلِّ صُوَرِهَا، فَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: **{وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ } فَأَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْعُلْوِّ من السَّحَابِ مَاءً طَهُورًا"** وَشَرَابًا وَحَيَاةً لِلْأَنَاسِي، بَلْ لِلْحَيَوَانَاتِ بَلْ قِيَامٌ كَذَلِكَ لِلْجَمَادَاتِ. فَهَذَا الْمَاءُ **{لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} [النحل : ١٠]** فَجَعَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْمَاءَ سَبَبًا فِي إِخْرَاجِ الثَّمَرَاتِ وَهَذِهِ الثَّمَرَاتُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ تَكُونُ سَبَبًا فِي حَيَاةِ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ.

فإذَا كَانَتْ نِعَمُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكُمْ سَابِغَةً وَمِنَنُهُ عَلَيْكُمْ وَافِيَةً لِمَاذَا لَا تُوَحِّدُوه **"الَّذِي خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ لَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا تَعْبُدُونَهَا كَمَا تَعْبُدُونَ اللَّهَ أَوْ تُحِبُّونَهَا كَمَا تُحِبُّونَ اللَّهَ فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ لَائِقٍ بِكُمْ لَا عَقْلًا وَلَا شَرْعًا."**

فَهَلْ تَعْلَمُونَ لَهُ نِدًّا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ؟ لَا، إِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا نِدَّ لَهُ وَلَا كُفُؤَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ لَهُ.

وَمَنْ قَالَ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ كِتَابٌ غَيْرُ كِتَابِ اللهِ، أَوْ أُرْسِلَ رُسُلٌ غَيْرُ رُسُلِ اللهِ لَمْ يَأْتِنَا خَبَرٌ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ رُسُلِ اللهِ، وَلَمْ يَأْتِنَا خَبَرٌ أَنَّ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ عَنْ غَيْرِ رُسُلِ اللهِ، وَهُنَا إِذَا كَانَتِ الْقَضِيَّةُ لَمْ تَجِدْ مُنَازِعًا فَلَابُدَّ لِلتَّسْلِيمِ لِعَدَمِ وُجُودِ الْمُنَازِعِ. فَكَيْفَ وَالْآيَاتُ تَتْرَى فِي إِثْبَاتِ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

يَقُولُ اللهُ **{فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} "أَيْ تَعْلَمُونَ"** عِلْمَ يَقِينٍ **"أَنَّهُ لَا نِدَّ لَهُ وَأَنَّ بِيَدِهِ الْخَلْقَ وَالرِّزْقَ وَالتَّدْبِيرَ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكًا فِي الْعِبَادَةِ."**

"قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ." طَالَمَا أَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ فَهُوَ الْمَعْبُودُ.

"ابْنُ كَثِيرٍ" هوَ عِمَادُ الدِّينِ أَبوْ الْفِدَاءِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُمَرَ الْقُرَشِيُّ الدِّمَشْقِيُّ الْحَافِظُ الْمَشْهُورُ صَاحِبُ التَّفْسِيرِ وَالتَّارِيخِ وَهُوَ مِنْ تَلَامِيذِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ. تُوُفِّيَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مِنْ هِجْرَةِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

اسْتَدَلَّ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِكَلَامِ ابْنِ كَثِيرٍ عَلَى: **"أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ".** وَذَلِكَ لِمَا جَاءَنَا مِنْ بَيَانِ مِنَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. **"فَبَيَّنَ فِيمَا يَأْتِي شَيْئًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَقَالَ وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ مِثْلُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ."** فَالْخَالِقُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

مَا هِيَ هَذِهِ الْعِبَادَةُ؟ قَالَ: **"وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا: مِثْلُ الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْإِحْسَانِ، وَمِنْهُ الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَالِاسْتِغَاثَةُ، وَالِاسْتِعَاذَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا كُلُّهَا لله تعالى"** لَا تَكُونُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ.

هَذِهِ الثَّلَاثَةُ "الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ وَالْإِحْسَانُ" هِيَ الدِّينُ. كَمَا جَاءَ ذَلِكَ فِيمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ. إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ

إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ. قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا."

قَالَ: "صَدَقْتَ." قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ." قَالَ: "صَدَقْتَ" قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ." قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: "مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ". قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: "أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاةِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ". ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا" يَعْنِي هَذَا مِنْ كَلَامِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. "ثُمَّ قَالَ لِي" أَيِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟" قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ "فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ".

" فَجَعَلَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ" الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَالْإِحْسَانَ "هِيَ الدِّينَ، وَذَلِكَ أَنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِلدِّينِ كُلِّهِ." هَذَا فِي عُمُومِ الْمَسْأَلَةِ يَعْنِي حِينَمَا تَذْكُرُ الْأَمْرُ إِجْمَالًا تَأْتِي بِكُلِّيَاتِهِ وَلَكِنَّ هَذِهِ الْكُلِّيَاتِ تَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ حَتَّى لَا يَقَعَ النَّاسُ فِي حَرَجٍ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ

وَجَلَّ مُبَيِّنًا لِلْمُجْمَلِ فِي كِتَابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. فَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْوَاعَ الْعِبَادَةِ الَّتِي تَدْخُلُ تَحْتَ الْإِسْلَامِ وَتَحْتَ الْإِحْسَانِ ذَكَرَهَا الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ بِأَنْوَاعِهَا الْمُتَعَدِّدَةِ فَقَالَ: **"وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ.وَمِنْهُ"**

"وَمِنْهُ" أَيْ مِنَ الدِّينِ.

"وَمِنْهُ الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالْإِنَابَةُ، وَالِاسْتِعَانَةُ، وَالِاسْتِغَاثَةُ، وَالِاسْتِعَاذَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا كُلُّهَا لله تعالى" **أَيْ كُلَّ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ مِمَّا ذَكَرَ وَغَيْرُه لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَلَا يَحِلُّ صَرْفُهَا لِغَيْرِ اللهِ".** هَذِهِ الْعِبَادَاتُ كُلُّهَا لِلَّهِ لَا يَجُوزُ صَرْفُ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ اللهِ. فَمَنْ خَافَ مِنْ صَاحِبِ قَبْرٍ أَنْ يَضُرَّهُ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَنْ رَجَا مِنْ مَقْبُورٍ أَنْ يَنْفَعَهُ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى أَحَدٍ غَيْرَ اللهِ حَيًّا كَانَ أَوْ مَيْتًا فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. هَذِهِ عِبَادَاتٌ لَا تُصْرَفُ لِغَيْرِ اللهِ.

الْمُصَنِّفُ يَسِيرُ عَلَى طَرِيقَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ يَأْتِي بِالْأَمْرِ وَبِالْمَسْأَلَةِ ثُمَّ يُدَلِّلُ عَلَيْهَا، الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ وَالْإِحْسَانُ أُمُورٌ هِيَ وَاضِحَةٌ وُضُوحَ الشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، وَلَكِنَّ مَا ذَكَرَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ يُدَلِّلُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الدِّينِ وَأَنَّ هَذَا يَدْخُلُ فِي عِبَادَةِ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

مَا الدَّلِيلُ عَلَى الدُّعَاءِ؟ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ عِبَادَةٌ لِلَّهِ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن : ١٨]**. فَاسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَبِقَوْلِهِ:**{وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون : ١١٧]**. فَانْظُرْ كَيْفَ بَيَّنَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ مَنْ يَدْعُو مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا دَلِيلَ عَلَى فِعْلِهِ، فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ لِأَنَّهُ مِنَ الْكَافِرِينَ.

قال الشارِحُ رحمه الله **"وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّ الْمَسَاجِدَ وَهِيَ مَوَاضِعُ السُّجُودِ أَوْ أَعْضَاءُ السُّجُودِ لِلَّهِ، وَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ: {فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} [الجن: ١٨] أَيْ لَا تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ فَتَسْجُدُوا لَهُ.**

وَوجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ مَنْ يَدْعُو مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَإِنَّهُ كَافِرٌ لِأَنَّهُ قَالَ: {إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}. [المؤمنون: ١١٧] وَفِي قَوْلِهِ: {لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بُرْهَانٌ عَلَى تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ، فَهَذِهِ الصِّفَةُ {لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} صِفَةٌ كَاشِفَةٌ مُبَيِّنَةٌ لِلْأَمْرِ وَلَيْسَتْ صِفَةً مُقَيِّدَةً تُخْرِجُ مَا فِيهِ بُرْهَانٌ، لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ."

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ مِنَ الْآيَاتِ مَا ذَكَرَ: **"وَفِي الْحَدِيثِ الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ".**

قال الشارِحُ رُحمه الله**"هَذَا شُرُوعٌ مِنَ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَدِلَّةِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي قَوْلِهِ: "وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا مِثْلُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ وَمِنْهُ الدُّعَاءُ". فَبَدَأَ رَحِمَهُ اللَّهُ بِذِكْرِ الْأَدِلَّةِ عَلَى الدُّعَاءِ، وَسَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَفْصِيلُ أَدِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ.**

وَاسْتَدَلَّ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِمَا يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ" وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ الدَّعْوَاتِ بَابُ فَضْلِ الدُّعَاءِ، وَقَالَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَهُوَ عِنْدَ التَّحْقِيقِ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ. وَالْأَصَحُّ مِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ".**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وَكَذَلِكَ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] فَدَلَّتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ مِنَ الْعِبَادَةِ وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا صَحَّ أَنْ يُقَالَ {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} فَمَنْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِشَيْءٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ سَوَاءٌ كَانَ الْمَدْعُوُّ حَيًّا أَوْ مَيْتًا. وَمَنْ دَعَا حَيًّا بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ يَا فُلَانُ أَطْعِمْنِي وَيَا فُلَانُ اسْقِنِي فَلَا شَيْءَ فِيهِ، وَمَنْ دَعَا مَيْتًا أَوْ غَائِبًا بِمِثْلِ هَذَا فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ لِأَنَّ الْمَيْتَ أَوِ الْغَائِبَ لَا يُمْكِنُ أَنْ**

يَقُومَ بِمِثْلِ هَذَا. فَدُعائُهُ إِيَّاهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِذَلِكَ الْمَيْتِ تَصَرُّفًا فِي الْكَوْنِ فَيَكُونُ بِذَلِكَ مُشْرِكًا." نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله : **"وَاعْلَمْ أَنَّ الدُّعَاءَ نَوْعَانِ:**

- **دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ.**
- **دُعَاءُ عِبَادَةٍ.**

فَدُعَاءُ الْمَسْأَلَةِ: هوَ دُعَاءُ الطَّلَبِ أَيْ طَلَبُ الْحَاجَاتِ وَهُوَ عِبَادَةٌ إِذَا كَانَ مِنَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ الِافْتِقَارَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَاللُّجُوءَ إِلَيْهِ، وَاعْتِقَادَ أَنَّهُ كَرِيمٌ قَادِرٌ وَاسِعُ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ، ويَجُوزُ إِذَا صَدَرَ مِنَ الْعَبْدِ لِمِثْلِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ إِذَا كَانَ الْمَدْعُوُّ يَعْقِلُ الدُّعَاءَ وَيَقْدِرُ عَلَى الْإِجَابَةِ كَمَا سَبَقَ فِي قَوْلِ الْقَائِلِ يَا فُلَانُ أَطْعِمْنِي.

وَأَمَّا دُعَاءُ الْعِبَادَةِ فَإِنَّهُ يُتَعَبَّدُ بِهِ لِلْمَدْعُوِّ طَلَبًا لِثَوَابِهِ وَخَوْفًا مِنْ عِقَابِهِ وَهَذَا لَا يَصِحُّ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَصَرْفُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ أَكْبَرُ مُخْرِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ وَعَلَيْهِ يَقَعُ الْوَعِيدُ فِي قَوْلِهِ {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}. [غافر: ٦٠]" وَفَصْلُ الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ حِينَمَا رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَوَحَّدَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ اعْتَقَدَ اعْتِقَادًا جَازِمًا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الْقَائِمَ تَصَرُّفًا وَتَدْبِيرًا وَمِلْكًا وَخَلْقًا عَلَى هَذَا الْخَلْقِ الْهَائِلِ فِي تِلْكَ الْحَيَاةِ الْمُتَرَامِيَّةِ الْأَطْرَافِ هُوَ اللَّهُ، فَحِينَ يَلْجَأُ إِلَى مَخْلُوقٍ يَسْأَلُهُ مَا

يَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُوصَفُ بِمَا يُوصَفُ بِهِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَهَذَا حَلَّ لِعَقْدِ التَّوْحِيدِ. فَتَوْحِيدُهُ قَدِ انْحَلَّ وَعُقْدَتُهُ قَدِ انْفَكَّتْ فَخَرَجَ مِنَ التَّوْحِيدِ إِلَى الشِّرْكِ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرِ.

وَمِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي لَا تُصْرَفُ لِغَيْرِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ **"الْخَوْفُ: وَهُوَ الذُّعْرُ وَهُوَ انْفِعَالٌ يَحْصُلُ بِتَوَقُّعِ مَا فِيهِ هَلَاكٌ أَوْ ضَرَرٌ أَوْ أَذًى، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ خَوْفِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ وَأَمَرَ بِخَوْفِهِ وَحْدَهُ."** وَالْخَوْفُ جَاءَ دَلِيلُهُ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**{فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران : ١٧٥]** فَدَلِيلُ الْخَوْفِ عَلَى أَنَّهُ عِبَادَةٌ لَا تُصْرَفُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَوْلُهُ: **{فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران : ١٧٥]**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وَالْخَوْفُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:**

- **"خَوْفٌ طَبِيعِيٌّ"** أَمْرٌ يَحْدُثُ لِلْإِنْسَانِ بِلَا تَحَكُّمٍ فِيهِ **"كَخَوْفِ الْإِنْسَانِ مِنَ السَّبُعِ وَالنَّارِ وَالْغَرَقِ وَهَذَا لَا يُلَامُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ قَالَ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ {فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ} [القصص : ١٨]**. الَّذِي يَخَافُ مِنْ جُنْدِ فِرْعَوْنَ.

"لَكِنْ إِذَا كَانَ هَذَا الْخَوْفُ كَمَا ذَكَرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ سَبَبًا لِتَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ كَانَ حَرَامًا لِأَنَّ مَا كَانَ سَبَبًا لِتَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ فَهُوَ

حَرَامٌ وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى {فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران : ١٧٥]

الْخَوْفُ الطَّبِيعِيُّ هُوَ مَا يُسَمَّى بِالْخَوْفِ الْجَبَلِيِّ الَّذِي يَطْرَأُ عَلَى الْجِبِلَّةِ بِلَا تَوَقُّعٍ فَيَحْدُثَ بِمُجَرَّدِ رُؤْيَةِ مَا يُذْعِرُ الْإِنْسَانَ كَأَنْ يَسِيرَ الْمَرْءُ فِي طَرِيقٍ فَيَقْطَعُ عَلَيْهِ ذَلِكَ الطَّرِيقَ كَلْبٌ عَقُورٌ، هَذَا يَحْدُثُ فِي الْبَدَنِ اضْطِرَابًا وَذُعْرًا وَهَذَا أَمْرٌ جِبِلِّيٌّ يَعْنِي الْجِبِلَّةَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ بِطَبِيعَةِ الْبَدَنِ هَذَا لَا شَيْءَ فِيهِ. لَكِنْ إِذَا كَانَ هَذَا الْخَوْفُ كَانَ سَبَبًا فِي تَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ فَإِنَّهُ يَصِيرُ كَبِيرًا مِنَ الْكَبَائِرِ.

وَأَمَّا الْخَوْفُ الْمَذْكُورُ هُنَا فَهُوَ الْخَوْفُ مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا أَنْ يَكُونَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وَالْخَوْفُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ مَحْمُودًا وَيَكُونُ غَيْرَ مَحْمُودٍ. فَالْمَحْمُودُ مَا كَانَتْ غَايَتُهُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ بِحَيْثُ يَحْمِلُكَ عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ. فَإِذَا حَصَلَتْ هَذِهِ الْغَايَةُ سَكَنَ الْقَلْبُ وَاطْمَأَنَّ وَغَلَبَ عَلَيْهِ الْفَرَحُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَالرَّجَاءُ لِثَوَابِهِ"**

وَخَوْفُ مِنَ اللَّهِ وَلَكِنَّهُ **"غَيْرُ مَحْمُودٍ"**. وَهَذَا الَّذِي يَجْعَلُ الْمَرْءَ يَائِساً قَانِطاً مِنْ رُوحِ اللَّهِ فَهَذَا خَوْفٌ مَذْمُومٌ؛ لِأَنَّ الْخَوْفَ النَّافِعَ هوَ الَّذِي يَحْمِلُكَ إِلَى اللَّهِ وَالْخَوْفُ الضَّارَّ الَّذِي يَصْرِفُكَ عَنِ اللَّهِ وَالْيَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ وَالْقُنُوطُ مِنْ

رَحْمَةِ اللَّهِ هَذَا يَصْرِفُ الْمَرْءَ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى **"فَيَتَحَسَّرُ الْعَبْدُ وَيَنْكَمِشُ وَرُبَّمَا يَتَمَادَى فِي الْمَعْصِيَةِ لِقُوَّةِ يَأْسِهِ"** وَلَا يَرْجُو مِنَ اللَّهِ رَحْمَةً وَلَا يَرْجُو مِنَ اللَّهِ مَغْفِرَةً وَهُوَ بِذَلِكَ يَقُولُ قَدْ أَنْكَرَ صِفَاتِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَقْوَالَهُ الَّتِي ذَكَرَهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَكُونَ عَلَيْهَا حِينَ يَغْلِبُ عَلَيْنَا الذَّنْبُ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:{۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر : ٥٣] فَهَذَا خَوْفٌ غَيْرُ مَحْمُودٍ وَهَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ يَأْتِي الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ يَقُولُ لَوْ أَنْتَ فَعَلْتَ وَفَعَلْتَ وَفَعَلْتَ أَتَرَى أَنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لَكَ مَا فَعَلْتَ مَعَ فُلَانٍ، أَيَغْفِرُ لَكَ مَا فَعَلْتَ مَعَ فُلَانَةَ، أَيَغْفِرُ لَكَ وَأَنْتَ ذُنُوبُكَ كَثِيرَةٌ أَنْتَ مَهْزُومٌ لَقَدْ صِرْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَا يَنْفَعُكَ تَوْبَةٌ، وَلَا تَنْفَعُكَ أَوْبَةٌ، وَلَا يَنْفَعُكَ اسْتِغْفَارٌ فَيَقْنَطُ وَيَتَمَادَى فِي الْمَعْصِيَةِ، وَيَكْفُرُ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله:

- **النَّوْعُ الثَّانِي مِنَ أَنْوَاعِ الْخَوْفِ وَهُوَ خَوْفُ الْعِبَادَةِ أَنْ يَخَافَ أَحَدًا يَتَعَبَّدُ بِالْخَوْفِ مِنْهُ فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى وَصَرْفُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى شِرْكٌ أَكْبَرُ"**. {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن : ٤٦]. فَحِينَ يَقُولُ قَائِلٌ الْخَوْفُ مِنَ الْوَلِيِّ الْفُلَانِيِّ هَذَا يَكُونُ سَبَبًا فِي

الْقُرْبِ مِنْهُ فَهَذَا شِرْكٌ؛ لِأَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ فُلَانًا يَنْفَعُ وَيَضُرُّ، أَنَّ فُلَانًا يُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِعِبَادَةٍ لَا يَجُوزُ التَّقَرُّبُ بِهَا إِلَّا إِلَى اللَّهِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله:

- **النَّوْعُ الثَّالِثُ: خَوْفُ السِرّ كَأَنْ يَخَافَ صَاحِبَ الْقَبْرِ أَوْ وليّا بَعِيدًا عَنْهُ لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ لَكِنَّهُ يَخَافُه مُخَافَةَ سِرٍّ فَهَذَا أَيْضًا ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ مِنَ الشِّرْكِ"** الرَّجُلُ فِي قَبْرِهِ وَلَا يَعْلَمُ حَالَهُ إِلَّا اللَّهُ مُعَذَّبًا أَوْ مُنَعَّمًا، مُيَسَّرًا أَوْ مُعْسِرًا. وَهَذَا الَّذِي خَافَ مِنْ صَاحِبِ الْقَبْرِ يَخْشَاهُ وَيَرْتَعِدُ حَتَّى إِنَّهُ إِذَا قِيلَ لَهُ احْلِفْ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَتَجَرَّأُ عَلَى الْحَلِفِ بِاللَّهِ كَذِبًا وَزُورًا، وَإِذَا قِيلَ لَهُ احْلِفْ بِالْوَلِيِّ الْفُلَانِيِّ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ لِمَاذَا؟ يَقُولُ لَا، الْوَلِيُّ لَا يَتْرُكُ هَذَا الْأَمْرَ يُعَاقِبُنِي وَأَنَا أَخَافُ مِنْهُ حَتَّى لَوْ أَبْطَنَ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ وَلَمْ يُظْهِرْ فَقَدْ تَوَرَّطَ فِي الشِّرْكِ لِأَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ يَنْفَعُ وَيَضُرُّهُ غَيْرَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال المُصَنِّفُ رَحِمَهُ الله: **"وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف : ١١٠]**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الرَّجَاءُ طَمَعُ الْإِنْسَانِ فِي أَمْرٍ قَرِيبِ الْمَنَالِ وَقَدْ يَكُونُ فِي أَمْرٍ بَعِيدِ الْمَنَالِ تَنْزِيلًا لَهُ مَنْزِلَةَ الْقَرِيبِ، وَالرَّجَاءُ الْمُتَضَمِّنُ لِلذُّلِّ وَالْخُضُوعِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصَرْفُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى شِرْكٌ إمّا وإمّا**

أكبرُ." الرَّجَاءُ قَدْ يَكُونُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا حَرَجَ فِيهَا كَأَنْ يَنْزِلَ إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ يُرِيدُ أَنْ يُقْرِضَهُ مَالًا، وَهُوَ يَرْجُو مِنْ هَذَا الرَّجُلِ أَنْ يَقْضِيَ لَهُ أَمْرَهُ فَهَذَا رَجَاءٌ مَأْذُونٌ فِيهِ لَا شَيْءَ فِيهِ. وَلَكِنْ أَنْ يَرْجُوَا مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَمْرٍ وَهَذَا الْأَمْرُ فِي أَصْلِهِ مَرْدُودٌ إِلَى اللَّهِ يَرْجُو أَنْ يَنْفَعَهُ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ بِهَذَا الْأَمْرِ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"فَالرَّجَاءُ الْمُتَضَمِّنُ لِلذُّلِّ وَالْخُضُوعِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصَرْفُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى شِرْكٌ إِمَّا أَصْغَرُ وَإِمَّا أَكْبَرُ بِحَسَبِ مَا يَقُومُ بِقَلْبِ الرَّاجِي، وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف : ١١٠]"**

فَاسْتَدَلَّ بِالْآيَةِ عَلَى أَنَّ الرَّجَاءَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي لَا تُصْرَفُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله**"وَاعْلَمْ أَنَّ الرَّجَاءَ الْمَحْمُودَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَجَا ثَوَابَهَا أَوْ تَابَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ وَرَجَا قَبُولَ تَوْبَتِهِ. فَأَمَّا الرَّجَاءُ بِلَا عَمَلٍ"** فَهُوَ كَطَلَبِ الشَّجَرِ بِلَا بَذْرَةٍ وَلَا تَعَبٍ **"فَهُوَ غُرُورٌ وَتَمَنٍّ مَذْمُومٌ."** فَالَّذِي يَرْجُو اللَّهَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ آخِذًا بِأَسْبَابِ ذَلِكَ الرَّجَاءِ.

وَمِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ التَّوَكُّلُ: قال المصنف رحمه الله: **"وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. [المائدة: ٢٣] وَقَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: ٣]"**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"التَّوَكُّلُ عَلَى الشَّيْءِ: هوَ الِاعْتِمَادُ عَلَيْهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى الِاعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كِفَايَةٌ وَحَسْبُهُ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ وَعَلَامَاتِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. [المائدة: ٢٣]**

وَإِذَا صَدَقَ الْعَبْدُ فِي اعْتِمَادِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَهَمَّهُ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: ٣] أَيْ كَافِيهِ، ثُمَّ طَمْأَنَ الْمُتَوَكِّلَ بِقَوْلِهِ {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} [الطلاق : ٣] فَلَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ.

التَّوَكُّلُ أَنْوَاعٌ:

- **الأولُ: التَّوَكُّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ وَعَلَامَاتِ صِدْقِهِ وَهُوَ وَاجِبٌ لَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ إِلَّا بِهِ.**
- **الثَّانِي: توَكُّلُ السِّرِّ بِأَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى مَيِّتٍ فِي جَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ فَهَذَا شِرْكٌ أَكْبَرُ لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ إِلَّا مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِهَذَا الْمَيِّتِ**

تَصَرُّفًا سِرِّيًّا فِي الْكَوْنِ وَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْمُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ نَبِيًّا أَوْ وَلِيًّا أَوْ طَاغُوتًا عَدُوًّا لِلَّهِ تَعَالَى.

- **النَّوْعُ الثَّالِثُ التَّوَكُّلُ عَلَى الْغَيْرِ فِيمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ الْغَيْرُ مَعَ الشُّعُورِ بِعُلُوِّ مَرْتَبَتِهِ وَانْحِطَاطِ مَرْتَبَةِ الْمُتَوَكِّلِ عَنْهُ مِثْلَ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فِي حُصُولِ الْمَعَاشِ وَنَحْوِهِ فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ لِقُوَّةِ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهِ وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا لَوْ اعْتَمَدَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ سَبَبٌ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي قَدَّرَ ذَلِكَ عَلَى يَدِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا بَأْسَ بِهِ إِذَا كَانَ لِلْمُتَوَكَّلِ عَلَيْهِ أَثَرٌ صَحِيحٌ فِي حُصُولِهِ."**

هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَنَازَعَ فِيهَا عُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ هَلْ يُوصَفُ الِاعْتِمَادُ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأُمُورِ الَّتِي يَقْدِرُ عَلَيْهَا بِالتَّوَكُّلِ قَالُوا لَا وَإِنَّمَا الْأَصْلُ التَّوْكِيلُ أَوِ الِاعْتِمَادُ. فَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَنَازَعَ فِيهَا عُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ بَيْنَ مُقِرٍّ لِهَذَا الْوَصْفِ وَغَيْرِ مُقِرٍّ لِهَذَا الْوَصْفِ. وَقَالَ التَّوَكُّلُ عِبَادَةٌ لِأَنَّهُ مِنْ أَمْرِ الْقَلْبِ توَكُّلُ عِبَادَةِ الْقَلْبِ فَلَا يَصِحُّ صَرْفُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ.

وَالْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ وَالِاعْتِمَادُ عَلَى السَّبَبِ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهُ سَبَبٌ جَعَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْوُصُولِ إِلَى الْمُرَادِ هَذَا لَا يُسَمَّى توَكُّلًا، وَإِنَّمَا يُسَمَّى اعْتِمَادًا، وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ التَّابِعِينَ إِلَى بَعْضِ التَّابِعِينَ فِي قَضَاءِ حَاجَةٍ فَقَالَ لَهُ جِئْتُ إِلَيْكَ فِي أَمْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِقَضَائِهِ قَضَاهُ وَكَانَ لَكَ الْأَجْرُ، وَإِنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ لَمْ يُقْضَ وَكَانَ لَكَ الْعُذْرُ. فَرَدَّ الْأَمْرَ أَوَّلًا وَآخِرًا إِلَى مَنْ؟ إِلَى اللَّهِ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَعْنِي قَالَ لَهُ: "أَنَا أَتَيْتُ إِلَيْكَ فِي أَمْرٍ أَنْتَ سَبَبٌ فِيهِ وَالْمُسَبِّبُ وَالْبَاعِثُ لَكَ عَلَى قَضَائِهِ هُوَ اللَّهُ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُقْضَى عَلَى يَدَيْكَ، وَأَمَّا إِذَا عَجَزْتَ فَلَيْسَ لِأَنَّكَ لَمْ تُرِدْ قَضَاءَهُ وَلَكِنْ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يُقَدِّرْ أَنْ يُقْضَى عَلَى يَدَيْكَ.

قَالَ الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ عَلَّامَةُ الزَّمَانِ الشَّيْخُ بْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: **"التَّوَكُّلُ عَلَى الْغَيْرِ"** وَهُوَ النَّوْعُ الرَّابِعُ **" التَّوَكُّلُ عَلَى الْغَيْرِ فِيمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ الْمُتَوَكِّلُ بِحَيْثُ يُنِيبُ غَيْرَهُ فِي أَمْرٍ تَجُوزُ فِيهِ النِّيَابَةُ فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ بِدَلَالَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ."** وَالصَّوَابُ فِيهِ أَنْ يُقَالَ التَّوْكِيلُ لَا التَّوَكُّلُ وَقَدْ جَاءَ الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ **"بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ، فَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ} [يوسف : ٨٧]**

وَوَكَّلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّدَقَةِ عُمَّالًا وَحُفَّاظًا، وَوَكَّلَ فِي إِثْبَاتِ الْحُدُودِ وَإِقَامَتِهَا، وَوَكَّلَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَدْيِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، وَوَكَّلَهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِجُلُودِهَا وَجِلَالِهَا وَأَنْ يَنْحَرَ مَا بَقِيَ مِنَ الْمِئَةِ بَعْدَ أَنْ نَحَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ، وَأَمَّا الْإِجْمَاعُ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ فَمَعْلُومٌ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ." فَهَذَا يُسَمَّى بِالتَّوْكِيلِ لَا التَّوَكُّلِ لِأَنَّ وَكَّلَ مُضَارِعُهَا يُوَكِّلُ وَمَصْدَرُهَا توْكِيلًا. وَأَمَّا التَّوَكُّلُ فَمَاضِيهَا تَوَكَّلَ وَمُضَارِعُهَا يَتَوَكَّلُ وَمَصْدَرُهَا توَكُّلًا. فَهَذَا الْأَمْرُ ذَكَرَهُ بَعْضُ عُلَمَائِنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ أَنَّ الْمَرْتَبَةَ

الثَّالِثَةَ وَالْمَرْتَبَةَ الرَّابِعَةَ يُقَالُ فِيهَا التَّوْكِيلُ لَا التَّوَكُّلُ. ثُمَّ ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"ودَلِيلُ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالْخُشُوعِ قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]**

قَالَ الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"الرَّغْبَةُ: مَحَبَّةُ الْوُصُولِ إِلَى الشَّيْءِ الْمَحْبُوبِ.**

والرَّهْبَةُ: الْخَوْفُ الْمُثْمِرُ لِلْهَرَبِ مِنَ الْمَخُوفِ، فَهِيَ خَوْفٌ مُقْرونٌ بِعَمَلٍ." فَالْخَوْفُ الْمُقْتَرِنُ بِعَمَلٍ هَذَا مِنَ الرَّهْبَةِ.

"وَأَمَّا الْخُشُوعُ: فَهُوَ الذُّلُّ وَالتَّطَامُنُ لِعَظَمَةِ اللَّهِ بِحَيْثُ يَسْتَسْلِمُ لِقَضَائِهِ الْكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْخُلَّصَ مِنْ عِبَادِهِ بِأَنَّهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى رَغَبًا وَرَهَبًا مَعَ الْخُشُوعِ لَهُ وَالدُّعَاءُ هُنَا شَامِلٌ لِدُعَاءِ الْعِبَادَةِ وَدُعَاءِ الْمَسْأَلَةِ. فَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَهُ وَطَمَعًا فِي ثَوَابِهِ مَعَ خَوْفِهِمْ مِنْ عِقَابِهِ وَآثَارِ ذُنُوبِهِمْ.

وَالْمُؤْمِنُ يَنْبَغِي أَنْ يَسْعَى إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ" كَالطَّائِرِ لَا يَطِيرُ إِلَّا بِجَنَاحَيْهِ، فَلَوْ كُسِرَ جَنَاحٌ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَطِيرَ وَلَا أَنْ يُحَلِّقَ فِي السَّمَاءِ. وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يَسِيرُ إِلَى اللَّهِ بِجَنَاحَيِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَلَا يَزُولُ الْخَوْفُ مِنْهُ وَلَا الرَّجَاءُ. فَهُوَ يَرْجُو فَضْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَخَافُ ذَنْبَهُ.

وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ يَغْلِبُ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ عَلَى الْآخَرِ. فَإِذَا مَا فَتَحَ اللَّهُ لَهُ فِي طَاعَتِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يُغَلِّبَ الرَّجَاءَ. فإِذَا فَتَرَ وَمَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْغَفْلَةِ وَالرُّكُونِ وَالْمَعْصِيَةِ فَلْيُغَلِّبْ جَانِبَ الْخَوْفِ كَالطَّيْرِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَمِيلَ إِلَى جَانِبٍ خَفَضَ جَنَاحَهُ إِلَى ذَلِكَ الْجَانِبِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"قَالَ عُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ:.يُغَلِّبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ فِي حَالِ الْمَرَضِ، وَجَانِبَ الْخَوْفِ فِي حَالِ الصِّحَّةِ؛ لِأَنَّ الْمَرِيضَ مُنْكَسِرٌ ضَعِيفُ النَّفْسِ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُ فَيَمُوتَ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِي حَالِ الصِّحَّةِ يَكُونُ نَشِيطًا مُؤَمِّلًا طُولَ الْبَقَاءِ فَيَحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى الْأَشَرِ وَالْبَطَرِ فَيُغَلِّبُ جَانِبَ الْخَوْفِ لِيَسْلَمَ مِنْ ذَلِكَ."** فَالْمُؤْمِنُ يُغَلِّبُ الرَّجَاءَ فِي جَانِبِ الطَّاعَةِ وَعِنْدَ دُنُوِّ أَجَلِهِ لِيَنْشَطَ عَلَيْهَا وَيُؤَمِّلَ قَبُولَهَا وَيَرْجُو فَضْلَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ عِنْدَ لِقَائِهِ، وَيُغَلِّبُ الْخَوْفَ إِذَا هَمَّ بِالْمَعْصِيَةِ لِيَهْرُبَ مِنْهَا وَيَنْجُوَ مِنْ عِقَابِهَا، وَإِذَا كَانَ فِي حَالِ عُنْفُوَانِهِ وَصِحَّتِهِ وَشَبَابِهِ وَبَسْطِ مَالِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى حَيَاتِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكْسِرَ اسْتِئْسَادَ تِلْكَ الْأُمُورِ عَلَيْهِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وَقِيلَ يَكُونُ رَجَاؤُهُ وَخَوْفُهُ وَاحِدَةً سَوَاءً لِئَلَّا يَحْمِلَهُ الرَّجَاءُ عَلَى الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ، وَلِئَلَّا يَحْمِلَهُ الْخَوْفُ عَلَى الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. وَكِلَاهُمَا قَبِيحٌ مُهْلِكٌ لِصَاحِبِهِ".** وَالْمَرْءُ أدرى بِنَفْسِهِ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْمِلُهُ الرَّجَاءُ عَلَى الْإِسْرَاعِ فِي السَّعْيِ إِلَى السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، هُنَاكَ أُنَاسٌ يَحْمِلُهُمُ الرَّجَاءُ عَلَى مُلَازَمَةِ الطَّاعَةِ وَعَلَى فِعْلِ الْقُرُبَاتِ

وَعَلَى الْفَرَحِ بِمَا يَسَّرَ اللَّهُ مِنْ طَاعَاتٍ؛ لِأَنَّهُ إِذَا جَاءَهُ الْخَوْفُ أَصَابَهُ الْفَزَعُ وَالْهَلَعُ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسِيرَ مَعَ السَّائِرِينَ، وَلَكِنْ يَقْعُدُ بِهِ الشَّيْطَانُ يُذَكِّرُهُ ذُنُوبَهُ، وَيُذَكِّرُهُ مَا كَانَ مِنْ شَطَحَاتِه وَرُوْعَانَاتِه حَالَ شَبَابِهِ وَصِبَاهُ أَوْ حَالَ قُوَّتِهِ وَعُنْفُوَانِهِ فَيَقْعُدُ عَنْ طَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ وَالْمَرْءُ طَبِيبُ نَفْسِهِ.

ثُمَّ ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الْخَشْيَةَ وَقَالَ: **"وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى {فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} [البقرة : ١٥٠]"**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الْخَشْيَةُ: هِيَ الْخَوْفُ الْمَبْنِيُّ عَلَى الْعِلْمِ بِعَظَمَةِ مَنْ يَخْشَاهُ وَكَمَالِ سُلْطَانِهِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر : ٢٨]"** أَيِ الْعُلَمَاءُ الْعَالِمُونَ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ **"بِعَظَمَتِهِ وَكَمَالِ سُلْطَانِهِ فَهِيَ أَخَصُّ مِنَ الْخَوْفِ وَيتضِحُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا بِالْمِثَالِ: فَإِذَا خِفْتَ مِنْ شَخْصٍ لَا تَدْرِي هَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْكَ أَمْ لَا فَهَذَا خَوْفٌ، وَإِذَا خِفْتَ مِنْ شَخْصٍ تَعْلَمُ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْكَ فَهَذِهِ خَشْيَةٌ."** وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَعْلَمُ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَبِقُدْرَتِهِ وَأَمْرِهِ فِي خَلْقِهِ فَهُمْ يَخْشَوْنَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى غِرَّةٍ، يَخْشَوْنَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، يَخْشَوْنَ أَنْ يَكُونُوا قَدْ أَرَادُوا بِعَمَلٍ غَيْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَتَحْبَطَ تِلْكَ الْأَعْمَالُ وَيَعْلَمُوا قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى أَخْذِهِمْ وَعِقَابِهِمْ.

قَالَ الْشَارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَيُقَالُ فِي أَقْسَامِ أَحْكَامِ الْخَشْيَةِ مَا يُقَالُ فِي أَقْسَامِ أَحْكَامِ الْخَوْفِ"** يَعْنِي نَعُودُ بِالْخَشْيَةِ إِلَى أَمْرِ الْخَوْفِ فَالْخَشْيَةُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَلْزَمَهَا وَأَمَّا الْخَشْيَةُ مِنْ ذِي سُلْطَانٍ أَنْ يُصِيبَكَ بِضُرٍّ فَهَذِهِ مِنْ أُمُورِ الْعَادَاتِ وَهَذَا أَمْرٌ جَبَلِيٌّ، وَأَمَّا الْخَشْيَةُ مِنْ صَاحِبِ الْقَبْرِ أَوْ مِنْ عَاجِزٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ فَهَذَا شِرْكٌ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَمِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الْإِنَابَةُ قال المُصنِّف رحمه الله: **"وَدَلِيلُ الْإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى {وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} [الزمر : ٥٤]**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الْإِنَابَةُ هِيَ الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ مَعْنَى التَّوْبَةِ إِلَّا أَنَّهَا أَرَقُّ مِنْهَا لِمَا تُشْعِرُ بِهِ مِنَ الِاعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ وَاللُّجُوءِ إِلَيْهِ وَلَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى {وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} [الزمر : ٥٤]**

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ {وَأَسْلِمُوا لَهُ} الْإِسْلَامُ الشَّرْعِيُّ وَهُوَ الِاسْتِسْلَامُ لِأَحْكَامِ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةِ. ذَلِكَ أَنَّ الْإِسْلَامَ لِلَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ:

- **النَّوْعُ الْأَوَّلُ إِسْلَامٌ كَوْنِيٌّ وَهُوَ الِاسْتِسْلَامُ لِحُكْمِهِ الْكَوْنِيِّ وَهَذَا عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ وَبَرٍّ وَفَاجِرٍ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَكْبِرَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى {وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران : ٨٣]** كُلُّ مَا لَا خِيَارَ لَكَ فِيهِ هَذَا يَخْضَعُ لِلْإِسْلَامِ الْكَوْنِيِّ

طُولُكَ وَقِصْرُكَ وَحَرَكَةُ أَمْعَائِكَ وَمَا يَدُورُ دَاخِلَ بَدَنِكَ هَذَا كُلُّهُ خَاضِعٌ لِأَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَصْرِيفِهِ، مَا يَجْرِي حَوْلَكَ فِي السَّمَاءِ وَفِي الْأَرْضِ وَفِي النَّبَاتِ وَفِي الْبَحْرِ وَفِي الْحَيَوَانِ وَهَذَا لَا سُؤَالَ عَلَيْهِ، لَا تُسْأَلُ عَمَّا يَجْرِي فِي دَاخِلِكَ، وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا يَجْرِي فِي اللَّيْلِ عِنْدَ إِظْلَامِهِ وَلَا تُسْأَلُ عَمَّا يَكُونُ فِي النَّهَارِ عِنْدَ خُرُوجِ شَمْسِهِ، لَا يَقُولُ لَكَ رَبُّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَأَسْأَلُكَ عَنْ خُرُوجِ الشَّمْسِ، وَلَا يَقُولُ لَكَ رَبُّكَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَاذَا لَمْ تَقُمْ مِعْدَتُكَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْجَوَارِحَ وَهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ مُنْقَادَةٌ مُسَخَّرَةٌ مُذَلَّلَةٌ مُعَبَّدَةٌ مَرْبُوبَةٌ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. فَلَا يُحْمَدُ الْمَرْءُ عَلَى جَمَالِهِ، وَلَا يُحْمَدُ الْمَرْءُ عَلَى طُولِهِ، وَلَا يُحْمَدُ الْمَرْءُ عَلَى لَبَاقَتِهِ عِنْدَ كَلَامِهِ وَجَمِيلِ لِسَانِهِ. فَهَذِهِ أُمُورٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عُذُوبَةُ الصَّوْتِ، وَانْطِلَاقَةُ اللِّسَانِ كُلُّ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَلَكِنْ تُسْأَلُ عَمَّا تَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الْجَوَارِحَ فِيمَا خُلِقَ لَها.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله:

- **النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ الْإِسْلَامِ الْإِسْلَامُ الشَّرْعِيُّ وَهُوَ الِاسْتِسْلَامُ لِحُكْمِهِ الشَّرْعِيِّ وَهَذَا خَاصٌّ بِمَنْ قَامَ بِطَاعَتِهِ مِنْ الرُسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ بِإِحْسَانٍ. وَدَلِيلُهُ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ وَمِنْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا**

الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} [الزمر: ٥٤]

فَالْإِنَابَةُ وَالْإِسْلَامُ هُنَا إِنَّمَا هُمَا الشَّرْعِيَّانِ لَا الْكَوْنِيَّانِ.

ثُمَّ ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الِاسْتِعَانَةَ عَلَى أَنَّهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ فَقَالَ:

"وَدَلِيلُ الِاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة : ٥]

وفي الحديث "إذا استعنتَ فاستَعِنْ بالله"

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"الِاسْتِعَانَةُ هِيَ طَلَبُ الْعَوْنِ"** يَعْنِي تَطْلُبُ الْعَوْنَ عَلَى أَمْرٍ تَعْجِزُ عَلَى أَدَائِهِ

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وَهِيَ أَنْوَاعٌ:**

- **الأولُ؛ الاسْتِعَانَةٌ بِاللَّهِ: وَهِيَ الِاسْتِعَانَةُ الْمُتَضَمِّنَةُ لِكَمَالِ الذُّلِّ مِنَ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ وَتَفْوِيضِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، وَاعْتِقَادِ كِفَايَتِهِ. وَهَذِهِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى وَدَلِيلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة : ٥] وَوَجْهُ الِاخْتِصَاصِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّمَ الْمَعْمُولَ {إِيَّاكَ} وَقَاعِدَةُ اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ أَنَّ تَقْدِيمَ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ يُفِيدُ الْحَصْرَ وَالِاخْتِصَاصَ. وَعَلَى هَذَا يَكُونُ صَرْفُ هَذَا النَّوْعِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى شِرْكًا مُخْرِجًا عَنِ الْمِلَّةِ."** فالإستعانةُ محصورةٌ ومخصوصةٌ للهِ تباركَ وتعالى لا تَخرُجُ لأحدٍ غَيرِه فإخراجُها لأحدٍ غيرِ الله هذا شِركٌ.

- **"الثاني: الاسْتِعَانَةُ بِالْمَخْلُوقِ عَلَى أَمْرٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَهَذِهِ عَلَى حَسَبِ الْمُسْتَعَانِ عَلَيْهِ. فَإِنْ كَانَتْ عَلَى بِرٍّ فَهِيَ جَائِزَةٌ لِلْمُسْتَعِينِ مَشْرُوعَةٌ لِلْمُعِينِ لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ} [المائدة : ٢]"** تُرِيدُ أَنْ تُصْلِحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَتَأْتِي إِلَى رَجُلٍ تَقُولُ لَهُ أَنْتَ صَاحِبُ وَجْهٍ وَأَنَا أَسْتَعِينُ بِكَ فِي قَضَاءِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَوْ تَسْتَعِينُ بِإِنْسَانٍ عَلَى أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْكَ شَيْئًا تَعْجِزُ عَنْ حَمْلِهِ فَهَذِهِ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **" وإن كانت عَلَى إِثْمٍ فَهِيَ حَرَامٌ عَلَى الْمُسْتَعِينِ وَالْمُعِينِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} [المائدة : ٢].**

وإن كانت عَلَى مُبَاحٍ: فَهِيَ جَائِزَةٌ لِلْمُسْتَعِينِ وَالْمُعِينِ لَكِنَّ الْمُعِينَ قَدْ يُثَابُ عَلَى ذَلِكَ ثَوَابَ الْإِحْسَانِ إِلَى الْغَيْرِ، وَمِنْ ثَمَّ تَكُونُ فِي حَقِّهِ مَشْرُوعَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى:{وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة : ١٩٥]

النَّوْعُ الثَّالِثُ: الاسْتِعَانَةُ بِمَخْلُوقٍ حَيٍّ حَاضِرٍ غَيْرِ قَادِرٍ، فَهَذِهِ لَغْوٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهَا. مِثْلَ أَنْ يَسْتَعِينَ الْمُسْتَعِينُ بِشَخْصٍ ضَعِيفٍ عَلَى حَمْلِ شَيْءٍ ثَقِيلٍ".

يَعْنِي يَكُونُ عِنْدَكَ عَرَبَةٌ، هَذِهِ الْعَرَبَةُ تَوَقَّفَتْ فِي الطَّرِيقِ فَتَأْتِي إِلَى طِفْلٍ صَغِيرٍ تَقُولُ: يَا بُنَيَّ ادْفَعِ الْعَرَبَةَ وَأَنَا أُدِيرُهَا مِنْ دَاخِلِهَا، فَهَذَا لَغْوٌ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي اسْتَعَنْتَ بِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ.

"النوعُ الرَّابِعُ مِن أَنْوَاعِ الِاسْتِعَانَةِ الاسْتِعَانَةُ بِالْأَمْوَاتِ مُطْلَقًا أَو بِالْأَحْيَاءِ عَلَى أَمْرٍ غَائِبٍ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُبَاشَرَتِهِ، فَهَذَا شِرْكٌ لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ إِلَّا مِنْ شَخْصٍ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ تَصَرُّفًا خَفِيًّا فِي الْكَوْنِ." اسْتِعَانَةٌ بِالْأَمْوَاتِ، بِأَصْحَابِ الْقُبُورِ، بِأَصْحَابِ الْأَضْرِحَةِ.

يَدْعُونَهُمْ وَيَسْتَعِينُونَ بِهِمْ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ.

النوعُ الْخَامِسُ مِن أَنْوَاعِ الِاسْتِعَانَةِ: **"الاسْتِعَانَةُ بِالْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ الْمَحْبُوبَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَهَذِهِ مَشْرُوعَةٌ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: {اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة :١٥٣]**. فَالْمَرْءُ يَجْتَهِدُ فِي تَحْقِيقِ الصَّبْرِ، وَيَجْتَهِدُ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ على اعْتِبَارِ أَنَّهَا مِنَ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُعِينُهُ عَلَى سَيْرِهِ إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَالَّتِي تَكُونُ سَبَبًا فِي تَنَزُّلِ الْبَرَكَاتِ وَدَفْعِ الْمُضِرَّاتِ وَانْشِرَاحِ الصَّدْرِ فِي سَيْرِ الْعَبْدِ إِلَى اللهِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وَقَدِ اسْتَدَلَّ الْمُؤَلِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- لِلنَّوْعِ الْأَوَّلِ بِقَوْلِهِ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥]، وَقَوْلِهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»** فِي حَدِيثِ بنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-.

ثُمَّ ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ- الاسْتِعَاذَةَ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، فَذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: **"وَدَلِيلُ الِاسْتِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} [الفلق: ١}، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ} [الناس: ١]**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الاسْتِعَاذَةُ طَلَبُ الْإِعَاذَةِ، وَالْإِعَاذَةُ هِيَ الْحِمَايَةُ مِنْ مَكْرُوهٍ، فَالْمُسْتَعِيذُ مُحْتَمٍ بِمَنِ اسْتَعَاذَ بِهِ، وَمُعْتَصِمٌ بِهِ.**

وَالِاسْتِعَاذَةُ أَنْوَاعٌ:

الْأُولَى: اسْتِعَاذَةٌ بِاللهِ تَعَالَى، وَهِيَ الْمُتَضَمِّنَةُ لِكَمَالِ الِافْتِقَارِ إِلَيْهِ وَالِاعْتِصَامِ بِهِ مَعَ اعْتِقَادِ كِفَايَتِهِ، وَتَمَامِ حِمَايَتِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَاضِرٍ أَوْ مُسْتَقْبَلٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ بِشَرٍّ أَوْ غَيْرِ بَشَرٍ. وَدَلِيلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)} [الفلق : ١-٢]إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤)} [الناس : ١-٤] إِلَى آخِرِ السُّورَةِ.

النوعُ الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ الِاسْتِعَاذَةِ:

"الاسْتِعَاذَةُ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ كَالِاسْتِعَاذَةِ بِكَلَامِهِ وَعَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ»، وَقَوْلُهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»، وَقَوْلُهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دُعَاءِ الْأَلَمِ: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ

وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»، وَقَوْلُهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ»، وَقَوْلُهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ} [الأنعام : ٦٥] فَقَالَ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ».

وَأَمَّا النوعُ الثَّالِثُ مِنْ أَنْوَاعِ الِاسْتِعَاذَةِ: "الاسْتِعَاذَةُ بِالْأَمْوَاتِ أَو بِالْأَحْيَاءِ غَيْرِ الْحَاضِرِينَ الْقَادِرِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْعَوْذِ، فَهَذَا شِرْكٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} [الجن : ٦].

النوعُ الرَّابِعُ مِنْ أَنْوَاعِ الِاسْتِعَاذَةِ: "الاسْتِعَاذَةُ بِمَا يُمْكِنُ الْعَوْذُ بِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَوِ الْأَمَاكِنِ أَوْ غَيْرِهَا، فَهَذَا جَائِزٌ، وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذِكْرِ الْفِتَنِ: «مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْه، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ وَقَدْ بَيَّنَ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْمَلْجَأَ وَهَذَا الْمَعَاذَ فَقَالَ:«فَمَنْ كَانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِهِ، وَمَنْ كَانَ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِهِ، وَمَنْ كَانَ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِهِ».

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: «إِنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ فَأُتِيَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ». وَفِي صَحِيحِهِ أَيْضًا عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-

عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ».

وَلَكِنْ إِنِ اسْتَعَاذَ مِنْ شَرِّ ظَالِمٍ وَجَبَ إِيوَاؤُهُ وَإِعَادَتُهُ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ، وَإِنِ اسْتَعَاذَ لِيَتَوَصَّلَ إِلَى فِعْلٍ مَحْظُورٍ أَوِ الْهَرَبِ مِنْ وَاجِبٍ حَرُمَ إِيوَاؤُهُ."

وَمِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الاسْتِغَاثَةُ قال المصنّف رحمه الله: "وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى:{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} [الأنفال : ٩]

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: "الِاسْتِغَاثَةُ هِيَ طَلَبُ الْغَوْثِ، وَهُوَ الْإِنْقَاذُ مِنَ الشِّدَّةِ وَالْهَلَاكِ. وَالِاسْتِغَاثَةُ أَقْسَامٌ:

الاسْتِغَاثَةُ بِاللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَهَذَا مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ وَأَكْمَلِهَا، وَهُوَ دَأْبُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَدَلِيلُهُ مَا ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ -رَحِمَهُ اللهُ-: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} [الأنفال : ٩] وَكَانَ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ حِينَ نَظَرَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ فِي أَلْفِ رَجُلٍ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُمِئَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا. فَدَخَلَ الْعَرِيشَ يُنَاشِدُ رَبَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-" وَالْعَرِيشُ هُوَ مَكَانٌ جَعَلَهُ الصَّحَابَةُ لِلنَّبِيِّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبَاشِرُ مِنْ خِلَالِهِ الْمَعْرَكَةَ.

فَدَخَلَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَرِيشَ يُنَاشِدُ رَبَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- "رَافِعًا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ

هَذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ». وَمَا زَالَ يَسْتَغِيثُ بِرَبِّهِ رَافِعًا يَدَيْهِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مِنْكِبَيْهِ ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ: «يَا نَبِيَّ اللهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ». فَأَنْزَلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- هَذِهِ الْآيَةَ."

النوعُ الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ اسْتِغَاثَةٍ: **"الاسْتِغَاثَةُ بِالْأَمْوَاتِ أَوْ بِالْأَحْيَاءِ غَيْرِ الْحَاضِرِينَ الْقَادِرِينَ عَلَى الْإِغَاثَةِ، فَهَذَا شِرْكٌ لِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ تَصَرُّفًا خَفِيًّا فِي الْكَوْنِ، فَيَجْعَلُ لَهُمْ حَظًّا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ."** وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْمُصَرِّفُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْقَائِمُ الْمُدَبِّرُ لِأَمْرِ كُلِّ شَيْءٍ. **فَقَالَ سُبْحَانَهُ: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} [النمل : ٦٢]"**

هَذَا لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا اللهُ، فَكَيْفَ يُلْجَأُ إِلَى غَيْرِ اللهِ فِي الْإِتْيَانِ بِهِ؟ فَهَذَا شِرْكٌ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

النوعُ الثَّالِثُ مِنْ أَنْوَاعِ الاسْتِغَاثَةِ: **"الاسْتِغَاثَةُ بِالْأَحْيَاءِ الْعَالِمِينَ الْقَادِرِينَ عَلَى الْإِغَاثَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ كَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ وَقَدْ جَاءَ دَلِيلُ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ {فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ } [القصص : ١٥]".** فَهَذَا مَأْذُونٌ فِيهِ لَا حَرَجَ فِيهِ.

النوعُ الرَّابِعُ مِنْ أَنْوَاعِ الِاسْتِغَاثَةِ:

"الاسْتِغَاثَةُ بِحَيٍّ غَيْرِ قَادِرٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ لَهُ قُوَّةً خَفِيَّةً مِثْلَ أَنْ يَسْتَغِيثَ الْغَرِيقُ بِرَجُلٍ مَشْلُولٍ فَهَذَا لَغْوٌ وَسُخْرِيَةٌ بِمَنِ اسْتَغَاثَ بِهِ فَيُمْنَعُ مِنْهُ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ وَلِعِلَّةٍ أُخْرَى وَهِيَ الْغَرِيقُ رُبَّمَا اغْتَرَّ بِذَلِكَ غَيْرُهُ فَتَوَهَّمَ أَنَّ لِهَذَا الْمَشْلُولِ قُوَّةً خَفِيَّةً يُنْقِذُ بِهَا مِنَ الشِّدَّةِ". يَعْنِي الْغَرِيقُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لَيْسَ لِكَوْنِهِ لَغْوًا وَسُخْرِيَةً فَقَطْ وَلَكِنْ حَتَّى لَا يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ هَذَا الْمَشْلُولَ لَهُ قُوَّةٌ لِأَنَّ الْغَرِيقَ مَا كَانَ لَهُ أَنْ يَلْجَأَ إِلَيْهِ إِلَّا لِعِلْمِهِ بِقُوَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ فَيَكُونُ لِغَيْرِهِ فِتْنَةً.

مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الذَّبْحُ: قا المصنِّف رحمه الله: **"وَدَلِيلُ الذَّبْحِ قَوْلُهُ تَعَالَى {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ} [الأنعام : ١٦٢-١٦٣]**

وَمِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الذَّبْحُ إِزْهَاقُ الرُّوحِ بِإِرَاقَةِ الدَّمِ عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ وَيَقَعُ الذَّبْحُ عَلَى وُجُوهٍ:**

- **الأول : أَنْ يَقَعَ الذَّبْحُ عِبَادَةً بِأَنْ يُقْصَدَ بِهِ تَعْظِيمُ الْمَذْبُوحِ لَهُ وَالتَّذَلُّلُ لَهُ وَالتَّقَرُّبُ إِلَيْهِ فَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي شَرَعَهُ وَصَرْفُهُ لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ شِرْكٌ أَكْبَرُ وَدَلِيلُهُ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ**

اللهُ- وَهُوَ قَوْلُهُ:{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي} أَيْ ذَبَائِحِي {وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ} [الأنعام : ١٦٢-١٦٣]}" فَهَذَا الذَّبْحُ صَرْفُهُ لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ وَصَرْفُهُ لِلَّهِ قُرْبَةٌ وَطَاعَةٌ.

النوعُ الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ الذَّبْحِ: **"أَنْ يَقَعَ إِكْرَامًا لِضَيْفٍ أَوْ وَلِيمَةً لِعُرْسٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَهَذَا مَأْمُورٌ بِهِ إِمَّا وُجُوبًا أَوِ اسْتِحْبَابًا لِقَوْلِهِ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» وَقَوْلُهُ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ: «أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ»** فَهَذِهِ الذَّبَائِحُ إِمَّا يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَالْأُضْحِيَّةِ وَالْعَقِيقَةِ وَالْهَدْيِ وَالْكَفَّارَاتِ فَهَذِهِ ذَبَائِحُ مَشْرُوعَةٌ شَرَعَهَا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَوْقَاتٍ مَخْصُوصَةٍ، وَفِي أَعْمَالٍ مَخْصُوصَةٍ.

وأَمَّا النوعُ الثَّالِثُ: **"وَهُوَ أَنْ يَقَعَ الذَّبْحُ عَلَى وَجْهِ التَّمَتُّعِ بِالْأَكْلِ أَوِ الِاتِّجَارِ بِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهَذَا مِنْ قِسْمِ الْمُبَاحِ فَالْأَصْلُ فِيهِ الْإِبَاحَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)} [يس : ٧١-٧٢] وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مَطْلُوبًا أَوْ مَنْهِيًّا عَنْهُ حَسَبَمَا يَكُونُ وَسِيلَةً لَهُ"** فَالذَّبْحُ مِنْ أَجْلِ إِطْعَامِ الْجِنِّ هَذَا شِرْكٌ وَالذَّبْحُ مِنْ أَجْلِ صَرْفِ الْحَسَدِ وَالْعَيْنِ عَنِ الْبَيْتِ فَهَذَا شِرْكٌ فَهَذَا ذَبْحٌ لِلْإِطْعَامِ وَلَكِنْ وَرَاءَ الْإِطْعَامِ مَطْلُوبٌ غَيْرُ شَرْعِيٍّ.

وَمِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ النَّذْرُ قال المصنِّفُ رحمه الله: **"وَدَلِيلُ النَّذْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} [الانسان : ٧].**

النَّذْرُ عِبَادَةٌ. قال الشارِحُ رحمه الله: **"وَدَلِيلُ كَوْنِ النَّذْرِ مِنَ الْعِبَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} [الانسان : ٧]. وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللهَ أَثْنَى عَلَيْهِمْ لِإِيفَائِهِمُ النَّذْرَ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ يُحِبُّ ذَلِك، وَكُلُّ مَحْبُوبٍ لِلَّهِ مِنَ الْأَعْمَالِ فَهُوَ عِبَادَةٌ وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}.**

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّذْرَ الَّذِي امْتَدَحَ اللهُ تَعَالَى بِهِ هَؤُلَاءِ الْقَائِمِينَ هُوَ جَمِيعُ الْعِبَادَاتِ الَّتِي فَرَضَهَا اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فَإِنَّ الْعِبَادَاتِ الْوَاجِبَةَ إِذَا شَرَعَ فِيهَا الْإِنْسَانُ فَقَدِ الْتَزَمَ بِهَا وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [الحج : ٢٩]." فَالِالْتِزَامُ بِالْعِبَادَةِ هَذَا مِنْ بَابِ النَّذْرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ} [الحج : ٢٩]."

"وَالنَّذْرُ الَّذِي هُوَ إِلْزَامُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ مَا أَوْ إِلْزَامُهُ نَفْسَهُ بِطَاعَةٍ لِلَّهِ غَيْرِ وَاجِبَةٍ مَكْرُوهٌ وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِ عُلَمَائِنَا أَنَّهُ مُحَرَّمٌ لِأَنَّ النَّبِيَّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنِ النَّذْرِ وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ». وَمَعَ ذَلِكَ فَإِذَا نَذَرَ الْإِنْسَانُ طَاعَةً لِلَّهِ وَجَبَ عَلَيْهِ فِعْلُهَا لِقَوْلِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ».

فَالنَّذْرُ يُطْلَقُ عَلَى الْعِبَادَاتِ الْمَفْرُوضَةِ عُمُومًا، وَيُطْلَقُ عَلَى النَّذْرِ الْخَاصِّ وَهُوَ إِلْزَامُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- وَقَدْ قَسَّمَ الْعُلَمَاءُ النَّذْرَ الْخَاصَّ إِلَى أَقْسَامٍ وَمَحَلُّ ذَلِكَ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ".

فَياعَبْدَ اللَّهِ انْظُرْ فِي قَوْلِكَ وَفِي فِعْلِكَ وَنِيَّتِكَ وَحَرَكَةِ حَيَاتِكَ فَرُبَّ قَوْلٍ يُورِثُ جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ حِينَ يُصْرَفُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَرُبَّ قَوْلٍ يُورِثُ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِصَرْفِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. دُعَاءٌ وَاسْتِغَاثَةٌ وَنَذْرٌ وَاسْتِعَانَةٌ وَرَغْبَةٌ وَرَهْبَةٌ وَخَوْفٌ وَخَشْيَةٌ وَخُضُوعٌ هَذَا كُلُّهُ إِذَا صُرِفَ لِغَيْرِ اللَّهِ صَارَ شِرْكًا وَإِذَا صُرِفَ لِلَّهِ صَارَ تَوْحِيدًا.

ومِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَتِمُّ لِلْبِنَاءِ قِيَامٌ وَلَا يَرْتَفِعُ لَهُ بُنْيَانٌ حَتَّى تُقَامَ أُصُولُهُ وَتَثْبُتَ أَرْكَانُهُ، وَمِنْ أَهَمِّ الْأُصُولِ وَمِنْ أَهَمِّ الْأَرْكَانِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحُوطَهَا وَأَنْ يَرْعَاهَا وَأَنْ يَسْعَى إِلَى تَأْسِيسِهَا وَتَقْوِيمِهَا وَتَأْصِيلِهَا تِلْكَ الْأَسْئِلَةُ الَّتِي سَوْفَ يُسْأَلُ عَنْهَا فِي قَبْرِهِ حَيْثُ يُسْأَلُ عَنْ رَبِّهِ وَعَنْ دِينِهِ وَعَنْ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَدْ قَصَرَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ رِسَالَتَهُ عَلَى هَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ وَتَنَاوَلَ الْمُصَنِّفُ وَالشَّارِحُ الْأَصْلَ الْأَوَّلَ وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثُمَّ شَرَعَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي بَيَانِ الْأَصْلِ الثَّانِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ وَتِلْكَ الْمَعْرِفَةُ

لَا تَقُومُ عَلَى الْهَوَى وَالرَّأْيِ وَلَا الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ وَإِنَّمَا تَقُومُ عَلَى الدَّلِيلِ وَالْبُرْهَانِ.

فَمَا هُوَ الْإِسْلَامُ؟

قال المصنِّف رحمه الله: **"الْإِسْلَامُ: هُوَ الِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالِانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ. وهُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: الْإِسْلَامُ، والْإِيمَانُ، والْإِحْسَانُ وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ."** فَالْإِسْلَامُ بِهَذَا الْمَعْنَى هُوَ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: الْإِسْلَامُ، والْإِيمَانُ، والْإِحْسَانُ وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ، فَهَذَا اَلْأَصْلُ عِبَارَةٌ عَنْ مَرَاتِبَ ثَلَاثٍ: مَرْتَبَةُ اَلْإِسْلَامِ اَلظَّاهِرَة ومَرْتَبَةُ اَلْإِيمَانِ اَلْبَاطِنَةِ، وَمَرْتَبَةُ اَلْإِحْسَانِ اَلَّتِي هِيَ مِنْ أَصْرَحِ عَلَامَاتِ صِحَّةِ اَلْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَكُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ هَذِهِ اَلْمَرَاتِبِ لَهَا أَرْكَانٌ.

قال المصنِّف رحمه الله: **"فَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وإِقَامُ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وصَوْمُ رَمَضَانَ، وحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ.**

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]

"ومعناها: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ" مَعْنَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ "لَا إِلَهَ" نَفْيٌ "إِلَّا اللَّهُ" إِثْبَاتٌ. **"لَا إِلَهَ" نَافِيًا جميعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ**

"إِلَّا اللَّهُ" مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أَنَّهُ لا شَرِيكَ له فِي مُلْكِهِ، وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [الزخرف : ٢٦-٢٨]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَنْ لَا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[البينة: ٥]

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]

وَدَلِيلُ الْحَجِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.[سورة آل عمران: ٩٧]".

فَهَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْأَصْلِ الثَّانِي مِنْ أُصُولِ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ وَهَذَا الْخَطْبِ الْجَلِيلِ وَهُوَ الْغَايَةُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَى أَنْ يَبْعَثَهُمْ بَيْنَ يدَيهِ.

فَهَذِهِ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ الْإِحَاطَةُ بِهَا وَمَا مَرَّ ذِكْرُهُ فَهُوَ جُزْءٌ فِي الْأَصْلِ الثَّانِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ. وَالْإِسْلَامُ بِمَعْنَاهُ الْعَامِّ الشَّامِلِ الِاسْتِسْلَامِ لِلتَّوْحِيدِ **"أَيْ مِن الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ: "مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ" يَعْنِي أَنْ يَعْرِفَ دِينَ الْإِسْلَامِ بِأَدِلَّتِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ".**

فَدِينُ الْإِسْلَامِ بِمَعْنَاهُ الْعَامِّ **"وَإِنْ شِئْتَ فَقُلِ الْإِسْلَامُ هُوَ الِاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوْحِيدِ وَالِانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:**

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: وَهُوَ أَنْ يَسْتَسْلِمَ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ اسْتِسْلَامًا شَرْعِيًّا وَذَلِكَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ، وَهَذَا الْإِسْلَامُ وَالَّذِي يُحْمَدُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ وَيُثَابُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا الِاسْتِسْلَامُ الْقَدَرِيُّ فَلَا ثَوَابَ فِيهِ لِأَنَّهُ لَا حِيلَةَ لِلْإِنْسَانِ فِيهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.[سورة آل عمران: ٨٣]." هَذَا الْإِسْلَامُ الْعَامُّ الَّذِي هُوَ لَا أَجْرَ

فِيهِ وَلَا ثَوَابَ وَلَا فَضْلَ فِيهِ وَلَا مَنْقَبَةَ وَذَلِكَ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ فِي تَسْيِيرِهَا وَتَدْبِيرِهَا فِي قِيَامِهَا وَاسْتِقْرَارِهَا. وَأَمَّا الْإِسْلَامُ الَّذِي يُحْمَدُ الْمَرْءُ عَلَيْهِ فَهُوَ الَّذِي يَقُومُ **"بِفِعْلِ أَوَامِرِ اللَّهِ"** اِئْتِمَاراً **"وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ"** انْتِهَاءً **"لِأَنَّ الطَّاعَةَ فِيهِ طَاعَةٌ خَالِصَةٌ لِلَّهِ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَتَرْكِ نَوَاهِيهِ"** فَالِانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ أَيْ تَسْلِيمِ زِمَامِ الْقَلْبِ وَالْقَالَبِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَيَكونُ الْمَرْءُ قَادِرًا عَلَى فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ وَيُلْزِمُ نَفْسَهُ بِفِعْلِ الطَّاعَةِ وَيَكونُ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْ رِبْقَةِ الْإِسْلَامِ وَلَكِنْ يُلْزِمُ نَفْسَهُ بِذَلِكَ طَاعَةً لِلَّهِ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

فَالْإِسْلَامُ هُوَ الِانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ وَمِثَالُهَا مَا يَكُونُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَسَيِّدِهِ وَذَلِكَ حِينَ يُسَلِّمُ الْعَبْدُ نَفْسَهُ لِسَيِّدِهِ تَسْلِيمًا ظَاهِرًا وَتَسْلِيمًا بَاطِلًا فَيُحِبُّ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَيَسْعَى إِلَى قُرْبِهِ وَوُدِّهِ، وَقَدْ ضَرَبَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِهَذَا الْأَمْرِ مِثَالًا فَقَالَ: بَيْنَمَا مَلِكٌ عَظِيمٌ يُقَرِّبُ بَعْضَ عَبِيدِهِ فتكَلَّمَ مِنْ ذلكَ مَن تَكَلَّمَ وَقَالُوا: لِمَا يُقَرِّبُ هَذَا الْعَبْدَ وَنَحْنُ عَبِيدٌ مِثْلُهُ، فَإِذَا بِالْمَلِكِ يُبَيِّنُ لَهُمْ سَبَبَ تَقْرِيبِهِ لِذَلِكَ الْعَبْدِ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ إِذْ بِالْمَلِكِ يَنْظُرُ إِلَى جَبَلٍ عَظِيمٍ ينْظُرُ إِلَى أَعْلَاهُ، فَإِذَا بِذَلِكَ الْعَبْدِ يَأْخُذُ فَرَسَهُ رَاكِدًا وَيَتَعَرَّضُ لِلْمَشَاقِّ صَاعِدًا، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ أَتَى إِلَى ذَلِكَ الْمَلِكِ بِشَيْءٍ مِمَّا عَلَى الْجَبَلِ مِمَّا كَانَ عَلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ، وَقَالَ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ أَهَذَا الَّذِي أَرَدْتَ؟ فَقَالَ نَعَمْ هَذَا الَّذِي أَرَدْتُ. فَقَالَ لَهُمْ انْظُرُوا إِنَّنِي لَمْ آمُرْهُ وَلَمْ أَنْهاهُ، وَلَكِنَّهُ تَطَلَّعَ إِلَى مُرَادي مِنْ غَيْرِ مَا أَمْرٍ وَلَا نَهْيٍ بَلْ لِرَغْبَتِهِ فِي أَنْ يَصِلَ إِلَى مَا أُرِيدُهُ بِكُلِّ مَا يَمْلِكُهُ وَيُحِيطُهُ.

فَهَذَا مِثَالُ الْعَبْدِ مَعَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَسْعَى جَاهِدًا إِلَى مَرَاضِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَسْعَى جَاهِدًا إِلَى الِامْتِثَالِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَسْعَى جَاهِدًا إِلَى الْبُعْدِ عَنْ نَوَاهِي اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يَخَافُ أَنْ يَتَوَرَّطَ فِيهِ الشِّرْكُ، لِذَا الْمُسْلِمُ الْحَقُّ يَتَبَرَّأُ مِنَ الشِّرْكِ وَأهلِه **"وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْهُ"** بَاطِنًا **"وَأَنْ يَتَخَلَّى عَنْهُ"** ظَاهِرًا، **"وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ الْبَرَاءَةَ مِنْ أَهْلِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]** فَانْظُرْ كَيْفَ فَارَقُوا الشِّرْكَ وَفَارَقُوا أَهْلَهُ، وَلَوْ كَانَ أَهْلُهُ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِمْ.

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الْإِسْلَامَ إِجْمَالًا، دَخَلَ فِي بَيَانِهِ تَفْصِيلًا **"فَبَيَّنَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ وَهِيَ: الْإِسْلَامُ، والْإِيمَانُ، والْإِحْسَانُ.**

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ جَاءَ جِبْرِيلُ يَسْأَلُ النَّبِيَّ الْأَمِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، فَبَيَّنَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ. فَلَمَّا وَلَّى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ.". فَبَيَّنَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الدِّينَ وَالْإِسْلَامَ الظَّاهِرَ وَالْإِيمَانَ الْبَاطِنَ وَالْإِحْسَانَ الْمُتَوَلِّدَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

فَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ خَمْسَةٌ **"وَدَلِيلُ ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وإِقَامِ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وصَوْمِ رَمَضَانَ، وحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ."**. فَهَا هِيَ أَرْكَانُ الْإِسْلَامِ الْخَمْسُ الَّتِي ذَكَرَهَا الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فَقَالَ: **"فَأَرْكَانُ الْإِسْلَامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ."** بعدَ أَنْ ذَكَرَ هَذِهِ الْأَرْكَانَ أَتَى عَلَى كُلِّ رُكْنٍ مِنْهُ بِدَلِيلٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَمِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ الْعَدْنَانِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **"فَأَمَّا دَلِيلُ الشَّهَادَةِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى:﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]"**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ رُكْنٌ وَاحِدٌ"** لَا يَتَجَزَّأُ وَأَصْلٌ وَاحِدٌ لَا يَنْفَصِلُ. **"وَإِنَّمَا كَانَ رُكْنًا وَاحِدًا مَعَ أَنَّهُمَا مِنْ شِقَّيْنِ لِأَنَّ الْعِبَادَاتِ تَنْبَنِي عَلَى تَحْقِيقِهِمَا، فَلَا تُقْبَلُ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ مَا تَتَضَمَّنُهُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ."** لَا تُقْبَلُ الْعِبَادَةُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ وَاتِّبَاعِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مَا تَضَمَّنَهُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ

مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. اسْتَدَلَّ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ:.﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ شَهَادَةُ اللَّهِ لِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَشَهَادَةُ الْمَلَائِكَةِ، وَشَهَادَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِذَلِكَ وَأَنَّهُ تَعَالَى قَائِمٌ بِالْقِسْطِ أَيِ الْعَدْلِ. ثُمَّ قَرَّرَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ حَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُمْ شُهَدَاءُ مَعَهُ وَمَعَ الْمَلَائِكَةِ، وَالْمُرَادُ بِهِمْ أُولُو الْعِلْمِ بِشَرِيعَتِهِ وَيَدْخُلُ فِيهِمْ دُخُولًا أَوَّلِيًّا رُسُلَهُ الْكِرَامَ. فَهَذِهِ الشَّهَادَةُ أَعْظَمُ شَهَادَةٍ لِعِظَمِ الشَّاهِدِ وَالْمَشْهُودِ بِهِ، فَالشَّاهِدُ هُوَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَأُولُو الْعِلْمِ وَالْمَشْهُودُ بِهِ تَوْحِيدُ اللَّهِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ.**

وَتَقْرِيرُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وَمَعْنَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ: **"لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ، "لَا إِلَهَ" نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ "إِلَّا اللَّهُ" مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ"** قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَيْ لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ، فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَنْ يَعْتَرِفَ الْمُسْلِمُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ بِأَنَّهُ لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنَّهُ إِلَهٌ بِمَعْنَى مَأْلُوهٍ وَتَأَلُّهُهُ وَالتَّعَبُّدُ وَالْإِلَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ. وَجُمْلَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَفْيٍ وَإِثْبَاتٍ، فَأَمَّا النَّفْيُ فَهُوَ "لَا إِلَهَ" وَأَمَّا الْإِثْبَاتُ فَهُوَ "إِلَّا اللَّهُ".**

وَاللَّهُ هُوَ لَفْظُ الْجَلَالَةِ بَدَلٌ مِنْ خَبَرِ لَا الْمَحْذُوفِ وَتَقْدِيرُهُ لَا إِلَهَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ. وَبِتَقْدِيرِ الْخَبَرِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَهِيَ كَلِمَةُ حَقٍّ يَتَبَيَّنُ الْجَوَابُ عَنِ الْإِشْكَالِ التَّالِي وَهُوَ كَيْفَ يُقَالُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَعَ أَنَّ هُنَاكَ آلِهَةً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَقَدْ سَمَّاهَا اللَّهُ تَعَالَى آلِهَةً وَسَمَّاهَا عَابِدُوهَا آلِهَةً. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾.[هود: ١٠١]

فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ نُثْبِتَ الْأُلُوهِيَّةَ لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالرُّسُلُ يَقُولُونَ لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.[الأعراف: ٥٩].

وَهَذَا اسْتِشْكَالٌ، وَالْجَوَابُ عَلَى هَذَا الْإِشْكَالِ يَتَبَيَّنُ بِتَقْدِيرِ الْخَبَرِ فِي "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" فَنَقُولُ: هَذِهِ الْآلِهَةُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ هِيَ آلِهَةٌ لَكِنَّهَا آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ لَيْسَتْ آلِهَةً حَقٍّ وَلَيْسَ لَهَا مِنْ حَقِّ الْأُلُوهِيَّةِ شَيْءٌ. وَيَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]. وَيَدُلُّ لِذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) ﴾. [النجم : ١٩-٢٣]

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي بَيَانِ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ وَبَيَانِ تَفْنِيدِ ضَلَالِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ هَذِهِ آلِهَةٌ وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى **"عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:** ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ**﴾.[**يوسف: ٤٠] إِذَنْ فَمَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَيْ لَا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَمَّا الْمَعْبُودَاتُ سِوَاهُ فَإِنَّ أُلُوهِيَّتها الَّتِي يَزْعُمُهَا عَابِدُوهَا لَيْسَتْ حَقِيقِيَّةً أَيْ أُلُوهِيَّةٌ بَاطِلَةٌ"** فَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَا يُعْبَدُ إِلَّا بِالْحَقِّ لِأَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ، وَأَمَّا مَا دُونَهُ فَهُوَ يُعْبَدُ بِالْبَاطِلِ لِأَنَّهُ بَاطِلٌ. وَمَهْمَا تَسَمَّى هَؤُلَاءِ فَقَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾.[سورة النازعات: ٢٤]

وَمَهْمَا قَالَ مَنْ قَالَ كَقَارُونَ حِينَ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾.[القصص: ٧٨]. فَهَذِهِ أَقْوَالٌ لَا تُغْنِي وَلَا تُسْمِنُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ. فَفَنَى هَؤُلَاءِ وَفَنِيَتْ أَمْوَالُهُمْ وَبَارَ هَؤُلَاءِ وَبَارَتْ أَعْمَالُهُمْ. وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْبَاقِي الَّذِي لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ، هُوَ الْمَالِكُ الَّذِي لَا يَزُولُ مُلْكُهُ، وَالْحَاكِمُ الَّذِي لَا يُنْقَضُ أَمْرُهُ، فَهَذَا فِي بَيَانِ أَنَّ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ" أي لا مَعْبُودَ حَقٌّ إِلَّا اللَّهُ وَمَا دُونَهُ فَهِيَ مَعْبُودَاتٌ بَاطِلَةٌ وَإِنْ سُمِّيَتْ آلِهَةً.

تَفْسِيرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَهِيَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧)**﴾ **[الزخرف : ٢٦-٢٧]**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"إِبْرَاهِيمُ هُوَ خَلِيلُ اللَّهِ إِمَامُ الْحُنَفَاءِ وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُوهُ آزَرُ"** يَتَبَرَّأُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَبِيهِ وَمِنْ قَوْمِهِ يَتَبَرَّأُ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. **"فَبَرَاءٌ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مِنَ الْبَرَاءَةِ وَهِيَ أَبْلَغُ مِنْ بَرِيءٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾[الزخرف: ٢٦] يُوَافِقِي"** وَيُوَازِي قَوْلَ الْقَائِلِ **"لَا إِلَهَ"** وَهَذَا يَقُولُهَا لِأَبِيهِ.

"إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي" أَيْ **خَلَقَنِي ابْتِدَاءً عَلَى الْفِطْرَةِ يُوَافِقِي قَوْلَهُ "إِلاَّ اللَّهَ" فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ. وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.[الأعراف: ٥٤] فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ حَصْرُ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَلَهُ الْخَلْقُ وَحْدَهُ وَلَهُ الْأَمْرُ الْكَوْنِيُّ وَالشَّرْعِيُّ وَحْدَهُ.**

﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧] **أَيْ سَيَدُلُّنِي عَلَى الْحَقِّ وَيُوَفِّقُنِي لَهُ.**

{وَجَعَلَهَا} أَيْ **هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَهِيَ الْبَرَاءَةُ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ إِلَّا اللَّهُ.**

جَعَلَهَا فِي **{عَقِبِهِ}** أَيْ **فِي ذُرِّيَّتِهِ (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)** أَيْ **إِلَيْهَا مِنَ الشِّرْكِ.**

بَعْدَ أَنِ اسْتَدَلَّ الْمُصَنِّفُ عَلَى تِلْكَ الْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ فِي بَيَانِ التَّوْحِيدِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الشِّرْكِ فِي بَيَانِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ**

شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤]

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُنَاظَرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى"** يَقُولُ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **{تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}** هَذِهِ الْكَلِمَةُ **{أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ}** فَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ هِيَ مَعْنَى **"لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"** وَمَعْنَى **(سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ)** أَيْ إِنَّنَا نَحْنُ وَإِيَّاكُمْ سَوَاءٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

{سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ}

{فَإِنْ تَوَلَّوْا} أَيْ إِنْ أَعْرَضُوا عَمَّا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ.

{فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} أَيْ فَأَعْلِنُوا لَهُم، وَأَشْهِدُوهُم أَنَّكُمْ مُسْلِمُونَ لِلَّهِ بَرِيئُونَ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعِنَادِ وَالتَّوَلِّي عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْعَظِيمَةِ وَهِيَ **"لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ."**

وَأَمَّا **"دَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"قَوْلُهُ: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أَيْ مِنْ جِنْسِكُمْ بَلْ هُوَ مِنْ بَيْنِكُمْ أَيْضًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]".**

قَولُهُ تَعَالَى: **﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾** أَيْ مِنْ جِنْسِكُمْ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرُّسُلَ تَكُونُ مِنْ أَقْوَامِهِمْ لَا يَأْتُونَ لَهُمْ مِنْ خَارِجٍ وَإِنَّمَا مِنْ أَقْوَامِهِمْ.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ حَرِيصٌ عَلَى مَصَالِحِكُمْ. فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ بَيَانٌ لِصِفَاتِ الْأَنْبِيَاءِ أَنَّهُمْ مِنْ أَقْوَامِهِمْ وَأَنَّهُ يَعِزُّ عَلَيْهِ عِنَادُ مَنْ عَانَدَ، وَضَلَالُ مَنْ ضَلَّ أَيْ يَشُقُّ عَلَيْهِ مَا شَقَّ عَلَيْكُمْ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ حَرِيصٌ عَلَى مَنْفَعَتِكُمْ وَدَفْعِ الضَّرَرِ عَنْكُمْ"**

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. هَكَذَا يَكُونُ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ وَهَكَذَا يَكُونُ الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ **"ذُو رَأْفَةٍ وَرَحْمَةٍ بِالْمُؤْمِنِينَ وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَأْمُورٌ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ، وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقٌّ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾[الفتح: ٢٩] وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. [الأعراف: ١٥٨]. وَالْآيَاتُ**

فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ تَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ." وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ جَعَلَ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي كُلِّ آيَةٍ وَمَكَانٍ حُجَّةً وَبُرْهَانًا عَلَى نُبُوَّةِ النَّبِيِّ الْعَدْنَانِ إِذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا وَرَسُولًا لَطَعَنَ فِي نُبُوَّتِهِ أُولَئِكَ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَجْرُءُوا عَلَى الطَّعْنِ فِي نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ وَإِنَّمَا يُشَكِّكُونَ فِيمَا جَاءَ بِهِ، وَهَذَا يَدُلُّكَ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى ثُبُوتِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْعُرْفِ وَالْعَادَةِ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَة.

فَمَا مَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟ قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ وَأَنْ لَا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ."**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"فَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ وَالْإِيمَانُ بِالْقَلْبِ بِأَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْقُرَشِيَّ الْهَاشِمِيَّ رَسُولُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦] وَلَا عِبَادَةَ لِلَّهِ تَعَالَى إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَفِي ذَلِكَ يَمْتَنُّ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِبَعْثَةِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وَمُقْتَضَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ أَنْ تُصَدِّقَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَخْبَرَ."** فَمَا جَاءَ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّكَ رَأَيْتَهُ

بِعَيْنِكَ بَلْ عَيْنُهُ أَصْدَقُ لَكَ مِنْ عَيْنِكَ لِأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ بِالْوَحْيِ مُثْبَتٌ بِتَثْبِيتِ اللَّهِ، وَالْمَرْءُ قَدْ يَزِلُّ أَوْ يَضِلُّ فِيمَا يَحوطُ بِهِ وَفِيهِ.

"فَمُقْتَضَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ أَنْ تُصَدِّقَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَخْبَرَ." وَقَدْ ضَرَبَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ، مِنْ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حَادِثَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ لَمَّا قَالَ لَهُ كُفَّارُ مَكَّةَ: "أَرَأَيْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ مَا يَزْعُمُ صَاحِبُكَ؟" قَالَ: "مَا الَّذِي قَالَ؟" قَالُوا: "قَالَ إِنَّهُ قَدْ أُسْرِيَ بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى فِي لَيْلَةٍ ثُمَّ عَادَ." قَالَ: "أَقَالَ ذَلِكَ؟" قَالُوا: "نَعَمْ." قَالَ: "لَئِنْ كَانَ قَدْ قَالَهُ فَقَدْ صَدَقَ، إِنَّا لَنُصَدِّقُهُ فِي أَمْرِ السَّمَاءِ، أَفَلَا نُصَدِّقُهُ فِي أَمْرِ الْأَرْضِ". فَلَمْ يَتَلَكَّأْ وَلَمْ يَتَبَاطَأْ لِأَنَّهُ اعْتَقَدَ صِدْقَ خَبَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَهَذِهِ مِنْ **"مُقْتَضَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ أَنْ تُصَدِّقَ رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا أَخْبَرَ."**

" وَأَنْ تَمْتَثِلَ أَمْرَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَأَنْ تَجْتَنِبَ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَنْ لَا تُعْبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ. وَمُقْتَضَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ أَيْضًا أَنْ لَا تَعْتَقِدَ أَنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقًّا فِي الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا فِي تَصْرِيفِ الْكَوْنِ، وَلَا أَنَّ لَهُ حَقًّا فِي الْعِبَادَةِ، بَلْ هُوَ عَبْدٌ لَا يُعْبَدُ وَرَسُولٌ لَا يُكَذَّبُ، وَلَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ شَيْئًا مِنَ النَّفْعِ أَوِ الضُّرِّ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾.[الأنعام: ٥٠] فَهُوَ عَبْدٌ مَأْمُورٌ يَتَّبِعُ مَا أُمِرَ بِهِ. قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)﴾ [الجن : ٢١-٢٢]."

وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي بَيَانِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ شَيْئًا، بَلْ لَا يَعْرِفُ مَا الَّذِي يَكُونُ فِي طَيَّاتِ الْمَاضِي، وَلَا مَا الَّذِي سَوْفَ تُعْرَضُ لَهُ فِي الْغَدِ. **"قَالَ سُبْحَانَهُ:** ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وَبِهَذَا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا اللَّهُ، لَا يَسْتَحِقُّهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا مَنْ دُونَهُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ **[الأنعام : ١٦٢-١٦٣]."**

فَهَذَا إِعْلَانٌ عَنْ حَقِيقَةِ الْعِبَادَةِ: لَا يُعْبَدُ إِلَّا اللَّهُ، لَا يُعْبَدُ أَحَدٌ دُونَهُ بِشَيْءٍ مِمَّا يَخُصُّ الْعِبَادَةَ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِنَفْسِهِ، وَأَمَّا نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **"فَحَقُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُنْزِلَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهَا وَهُوَ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ"** فَاللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّبِيِّ الْأَكْرَمِ.

وَأَمَّا الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ فَهِيَ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَهُمَا مِنَ الدِّينِ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[البينة: ٥] فَبَيَّنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَأَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ **"وَهَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَاتِ فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِيهِ مُخْلِصًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَنِيفًا مُتَّبِعًا لِشَرِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ لِأَنَّ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَلَكِنَّهُمَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَصَّ عَلَيْهِمَا لِمَا لَهُمَا مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ فَالصَّلَاةُ عِبَادَةُ الْبَدَنِ وَالزَّكَاةُ عِبَادَةُ الْمَالِ وَهُمَا قَرِينَتَانِ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"** وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ تَكُونُ خَالِصَةً لِلَّهِ وَحْدَهُ وَالْإِخْلَاصُ هُوَ الدِّينُ الَّذِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ **"فَدِينُ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ دِينُ الْمِلَّةِ الْقَيِّمَةِ الَّتِي لَا اعْوِجَاجَ فِيهَا لِأَنَّهُ دِينُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَدِينُ اللَّهِ مُسْتَقِيمٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **[الأنعام : ١٥٣]"** قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ خَطَّ خَطًّا مُسْتَقِيمًا وَجَعَلَ عَلَى جَنْبَتَيْهِ خُطُوطًا مُعْوَجَّةً وَقَالَ: "هَذَا صِرَاطُ اللَّهِ وَهَذِهِ سُبُلٌ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِنْهَا شَيْطَانٌ مَنْ أَجَابَهُ قَذَفَ بِهِ إِلَى النَّارِ".

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"فَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ كَمَا تَضَمَّنَتْ ذِكْرَ الْعِبَادَةِ وَالصَّلَاةِ فَقَدْ تَضَمَّنَتْ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ وَأَنَّهُ هُوَ الْإِخْلَاصُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ**

غَيْرِ مَيْلٍ إِلَى الشِّرْكِ فَمَنْ لَمْ يُخْلِصْ لِلَّهِ لَمْ يَكُنْ مُوَحِّدًا وَمَنْ جَعَلَ عِبَادَتَهُ لِغَيْرِ اللَّهِ كَانَ مُشْرِكًا."

ثُمَّ تَعَرَّضَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لِلرُّكْنِ الرَّابِعِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ الصِّيَامُ فَقَالَ: **"وَدَلِيلُ الصِّيَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]** فَهَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلُ وُجُوبِ الصِّيَامِ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرًا مُبَاشِرًا وَكَتَبَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْأَمْرَ فَرِيضَةً مَفْرُوضَةً وَشَرِيعَةً مَشْرُوعَةً فَكَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَقَدْ كُتِبَ كَذَلِكَ عَلَيْهِمْ.

يسْتَدَلُّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أُمُورٍ عِدَّةٍ:

- **"أولا: أَهَمِّيَّةُ الصِّيَامِ حَيْثُ فَرَضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِنَا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادَةِ الصِّيَامِ وَأَنَّهَا عِبَادَةٌ لَازِمَةٌ لِكُلِّ أُمَّةٍ.**
- **ثانيا: التَّخْفِيفُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ حَيْثُ إِنَّهَا لَمْ تُكَلَّفْ وَحْدَهَا بِالصِّيَامِ الَّذِي قَدْ يَكُونُ فِيهِ مَشَقَّةٌ عَلَى النُّفُوسِ وَالْأَبْدَانِ.**
- **ثالثا: الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَكْمَلَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ دِينَهُ حَيْثُ أَكْمَلَ لَهَا الْفَضَائِلَ الَّتِي سَبَقَتْ لِغَيْرِهَا."**

ثُمَّ بَيَّنَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ الرُّكْنَ الْخَامِسَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَهُوَ الْحَجُّ. ثُمَّ سَاقَ الدَّلِيلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: **"وَدَلِيلُ الْحَجِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.[آل عمران: ٩٧]"** عِبَادَةُ الْحَجِّ عِبَادَةٌ مِنَ الْعِبَادَاتِ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَرَّةً وَاحِدَةً عَلَى الْعَبْدِ فِي عُمُرِهِ، فَإِنْ أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهَا مَاتَ فَهُوَ مِنْ بَابِ النَّافِلَةِ وَالْقُرْبَةِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَبِهَا كَانَتْ فَرِيضَةُ الْحَجِّ. وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران: ٩٧]، فَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلَا حَجَّ عَلَيْهِ. ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ عِظَمَ هَذَا الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ تَرَكَ الْحَجَّ مِمَّنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا يَكُونُ كَافِرًا، وَلَكِنَّ الْكُفْرَ هُنَا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ عَلَى قَوْلِ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ لِقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ: "كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ."**

فَيا عَبْدَ اللَّهِ دِينَكَ دِينَكَ، فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمُكَ وَدَمُكَ، فَإِنْ يَسْلَمْ لَكَ دِينُكَ يَسْلَمْ لَكَ لَحْمُكَ وَدَمُكَ، وَإِلَّا فَإِنَّهَا نَارٌ لَا تُطْفَأُ وَجَسَدٌ لَا يَبْلَى وَنَفْسٌ لَا تَمُوتُ.

الدِّينُ هُوَ قَضِيَّةُ الْحَيَاةِ بَلْ أَعْظَمُ قَضِيَّةٍ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، فَمِنْ أَجْلِهِ خَلَقَ اللَّهُ الْكَوْنَ، وَمِنْ أَجْلِهِ خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَ وَالْجَانَّ، وَمِنْ أَجْلِهِ أَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ الْكُتُبَ، وَخَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ خَلْقِ الْإِنْسِ وَالْجَانِّ.

فهَذِهِ قَضِيَّةُ الْقَضَايَا وَأَعْظَمُ الْمَهَامِّ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْشَغِلُوا بِهِ، وَإِنَّهَا لَنِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ وَمِنَّةٌ جَلِيلَةٌ أَنْ تَكُونَ صَاحِبَ دِينٍ، أَنْ تَكُونَ صَاحِبَ عَقِيدَةٍ تَرْبِطُكَ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، تَرْبِطُكَ بِخَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَأَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِم.

فَيَا مَنْ تُفَرِّطُونَ فِي أَدْيَانِكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، يَا مَنْ تُفَرِّطُونَ فِي إِسْلَامِكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَا مَنْ تُفَرِّطُونَ فِي صِيَامِكُمْ وَصَلَاتِكُمْ وَزَكَاتِكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَلَا يزَالُ الْمَرْءُ يُفَرِّطُ فِي أَمْرٍ مِنْ أَوَامِرِ اللَّهِ، وَيَتَجَرَّأُ عَلَى نَهْيٍ مِنْ نَوَاهِيهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الدِّينِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَتَأَخَّرُ حَتَّى يُؤَخِّرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَالنَّوَافِلُ هِيَ بَابُ الْمُحَافَظَةِ عَلَى الْفَرَائِضِ، فَمَنْ قَامَ بِالنَّافِلَةِ أَدَاءً وَمُحَافَظَةً فَهُوَ عَلَى الْفَرِيضَةِ أَتَمُّ أَدَاءً وَأَحْفَظُ، وَمَنْ تَهَاوَنَ فِي النَّوَافِلِ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى التَّهَاوُنِ فِي الْفَرَائِضِ. وَكَمَا قَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا: "مَنْ شَغَلَتْهُ الْفَرِيضَةُ عَنِ النَّافِلَةِ فَهُوَ مَعْذُورٌ، وَمَنْ شَغَلَتْهُ النَّافِلَةُ عَنِ الْفَرِيضَةِ فَهُوَ مَغْرُورٌ".

فَاجْتَهِدْ فِي الْإِتْيَانِ بِالنَّوَافِلِ، وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَصْرِفَكَ النَّوَافِلُ عَنِ الْفَرَائِضِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِنْ أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ."

فَالْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ عِبَادَ اللَّهِ فَهَذِهِ الْفَرَائِضُ لَا يَعْلَمُ عِظَمَهَا وَلَا قَدْرَهَا إِلَّا اللَّهُ وَلَا يَغُرَّنَّكَ مَا جَاءَ فِي بَيَانِ بَعْضِ النَّوَافِلِ مِنْ فَضْلٍ كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا".

فَهَاتَانِ الرَّكْعَتَانِ مَعَ قَدْرِهِمَا فِي هَذَا الْفَضْلِ وَالْبَيَانِ وَلَكِنْ لَا يُسَاوِيَانِ شَيْئًا بِجَانِبِ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِذْ هَذَا مَثَلٌ عَلَى مَالِ الْعَبْدِ عِنْدَ أَدَاءِ فَرَائِضِهِ، إِذَا كَانَتِ النَّافِلَةُ بِهَذَا الْقَدْرِ وَإِذَا كَانَتِ النَّافِلَةُ بِهَذَا الْفَضْلِ فَالْفَرِيضَةُ أَعْظَمُ أَجْرًا وَأَعْظَمُ فَضْلًا لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَبِّ الْعِزَّةِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ."

إِنَّ الْمُسْلِمَ صَحِيحَ الْإِسْلَامِ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ حَقِيقَ الْإِيمَانِ لَحَرِيٌّ بِهِ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا عَلَى مَا يَصِحُّ بِهِ إِسْلَامُهُ، وَعَلَى مَا يَكْمُلُ بِهِ إِيمَانُهُ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ خَاطَبَنَا بِالْإِسْلَامِ فِي أَحْكَامِهِ وَخَاطَبَنَا بِالْإِيمَانِ فِي أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ. فَتَرَى الْآيَاتِ تَتْرى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} وَتَرَى الْآيَاتِ تُبَيِّنُ مَا يَنْبَغِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَالْإِيمَانُ شُعَبٌ وَمَرَاتِبُ لَا يَقُومُ قِيَامُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِقِيَامِ شُعَبِهِ وَمَرَاتِبِهِ وَلَا يَكمُلُ الْإِيمَانُ إِلَّا بِكَمَالِ شُعَبِهِ وَمَرَاتِبِهِ.

وَالْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ فِي الْأَصْلِ الثَّانِي هِيَ مَرْتَبَةُ الْإِيمَانِ. قال المصنّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الْإِيمَانُ وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ."**

الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا تَنَاوَلَ الْأُصُولَ الثَّلَاثَةَ ابْتِدَاءً بِالْأَصْلِ الْأَوَّلِ وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، ثُمَّ ثَنَّى بَعْدَ ذَلِكَ بِالْأَصْلِ الثَّانِي وَهُوَ مَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَتَكَوَّنُ مِنْ مَرَاتِبَ وَأَرْكَانٍ، فَالْمَرْتَبَةُ الْأُولَى هِيَ مَرْتَبَةُ الْإِسْلَامِ، وَالْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ مَرْتَبَةُ الْإِيمَانِ، وَالْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ هِيَ مَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ.

وَلَمَّا تَنَاوَلَ الْمَرْتَبَةَ الْأُولَى شَرَعَ فِي تَنَاوُلِ الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ، وَالْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ مَرْتَبَةُ الْإِيمَانِ وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ".

الْإِيمَانُ لَهُ أَرْكَانٌ يَقُومُ بِقِيَامِهَا وَيَنْهَارُ بِانْهِيَارِهِ، فَمَا هِيَ أَرْكَانُ الْإِيمَانِ؟

قال المصنِّف رَحِمَه الله: **"وأَرْكَانُه سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْكَانِ السِّتَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾.[البقرة: ١٧٧]**

وَدليلُ الْقَدَرِ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.[سورة القمر: ٤٩]"

فَالْآيَةُ الْأُولَى اشْتَمَلَتْ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ، وَالْإِيمَانِ بِالْكُتُبِ، وَالْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّينَ، وَالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَالْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا جَاءَتِ كدِليلٍ عَلَى ذِكْرِالْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْإِيمَانِ. اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ خَاطَبَ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾[النساء : ١٣٦].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} يَا مَنْ رَضِيتُمْ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا. حَقِّقُوا الْإِيمَانَ الْحَقَّ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَى وَجْهِ الصِّدْقِ.

فَالْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ مَرْتَبَةُ الْإِيمَانِ وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الدِّينِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الْإِيمَانُ فِي اللُّغَةِ التَّصْدِيقُ، وَفِي الشَّرْعِ اعْتِقَادٌ بِالْقَلْبِ وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ. وَهُوَ بِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً. (وَالْبِضْعُ) بِكَسْرِ الْبَاءِ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى التِّسْعة."** قَالَ عُلَمَاؤُنَا عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً" يَدُلُّ عَلَى مَا يَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ وَاقْتَرَبَ مِنَ الثَّمَانِينَ أَوْ مَا يَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ الْقَلِيلِ. إِذِ الْبِضْعُ يَشْمَلُ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى التِّسْعِ.

"وَالشُّعْبَةُ هِيَ الْجُزْءُ مِنَ الشَّيْءِ".

"الْإِيمَانُ بِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ".

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"إِمَاطَةُ الْأَذَى" أَيْ إِزَالَةُ الْأَذَى وَهُوَ مَا يُؤْذِي الْمَارَّةَ مِنْ أَحْجَارٍ وَأَشْوَاكٍ وَنُفَايَاتٍ وَقِمَامة وَمَا لَهُ رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ. "الْإِيمَانُ بِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ".**

"وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ" الْحَيَاءُ اخْتَصَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالذِّكْرِ لِمَا لَهُ مِنْ أَثَرٍ فِي قِيَامِ الْإِيمَانِ. قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَالْحَيَاءُ صِفَةٌ انْفِعَالِيَّةٌ تَحْدُثُ عِنْدَ الْخَجَلِ وَتَحْجُزُ الْمَرْءَ عَنْ فِعْلِ مَا يُخَالِفُ المُروءةُ.**

وَالْجَمْعُ بَيْنَ مَا تَضَمَّنَهُ كَلَامُ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْإِيمَانَ بِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَأَنَّ الْإِيمَانَ أَرْكَانُهُ سِتَّةٌ. أَنْ تَقُولَ: الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ الْعَقِيدَةُ أُصُولُهُ سِتَّةٌ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَحِينَ سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ: "الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.". فَالْجَمْعُ بَيْنَ تَعْرِيفِ الْإِيمَانِ مِنْ قِبَلِ قَوْلِ النَّبِيِّ عَدْنَانَ وَتَعْرِيفِ الْإِيمَانِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ، الْجَمْعُ بَيْنَ ذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ الدِّينُ بِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَأَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ أُصُولُ الْعَقِيدَةِ سِتَّةُ أَرْكَانٍ وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَأَمَّا الْإِيمَانُ الَّذِي يَشْمَلُ الْأَعْمَالَ وَأَنْوَاعَهَا وَأَجْنَاسَهَا فَهُوَ بِضْعَةٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً. وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الصَّلَاةَ إِيمَانًا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾.[البقرة: ١٤٣]"**

قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: يَعْنِي مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ **"صَلَاتَكُمْ"** أَيُّهَا الْمُصَلُّونَ. يَا مَنْ صَلَّيْتُمْ **"إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ"** فَصَلَاتُكُمْ مَأْجُورَةٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقِبْلَةَ لَمَّا تَحَوَّلَتْ حَزِنَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ عَلَى مَنْ مَاتَ وَمَنْ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ **"لِأَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرُوا بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ"** فَأَحْزَنَهُمْ ذَلِكَ فَنَزَلَ الْقُرْآنُ يُؤَكِّدُ أَنَّ مَا مَرَّ مِنْ أَعْمَالِهِمْ هُوَ كَذَلِكَ فِي مِيزَانِ حَسَنَاتِهِمْ.

وَالْإِيمَانُ أَرْكَانٌ سِتَّةٌ: **"أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ"** قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:**

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ بِوُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدْ دَلَّ عَلَى وُجُودِهِ تَعَالَى الْفِطْرَةُ وَالْعَقْلُ وَالشَّرْعُ وَالْحِسُّ." فالْفِطْرَةُ دَلَّتْ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ وَكَذَلِكَ الشَّرْعُ وَكَذَلِكَ الْحِسُّ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"أَمَّا دَلَالَةُ الْفِطْرَةِ عَلَى وُجُودِهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ قَدْ فُطِرَ عَلَى الْإِيمَانِ بِخَالِقِهِ مِنْ غَيْرِ سَبْقِ تَفْكِيرٍ وَلَا تَعْلِيمٍ وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُقْتَضَى هَذِهِ الْفِطْرَةِ إِلَّا مَنْ طَرَأَ عَلَى قَلْبِهِ مَا يَصْرِفُهُ عَنْهَا لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ."** فالْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ فُطِرَتْ عَلَى الْإِيمَانِ بِوُجُودِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وَأَمَّا دَلَالَةُ الْعَقْلِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى فَلِأَنَّ هذه الْمَخْلُوقَاتُ سَابِقُهَا وَلَاحِقُهَا لَا بُدَّ لَهَا مِنْ خَالِقٍ أَوْجَدَهَا، إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجِدَ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً."** فَمَا مِنْ مَوْجُودٍ إِلَّا وَلَهُ وَاجِدٌ وَمَا مِنْ مُمْكِنٍ إِلَّا وَإِمكَانُه بِيَدِ غَيْرِهِ. وَهَذَا فِي عِدَادِ الْمَخْلُوقَاتِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجِدَ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا.

"لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يَخْلُقُ نَفْسَهُ لِأَنَّ قَبْلَ وُجُودِهِ كَانَ مَعْدُومًا فَكَيْفَ يَكُونُ خَالِقًا؟ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً لِأَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ؛ وَلِأَنَّ وُجُودَهَا عَلَى هَذَا النِّظَامِ الْبَدِيعِ وَالتَّنَاسُقِ الْمُتَآلِفِ، وَالِارْتِبَاطِ الْمُتَلَاحِمِ بَيْنَ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ، وَبَيْنَ الْكَائِنَاتِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ، يَمْنَعُ مِنَ الِانْبِعَاثِ أَنْ يَكُونَ وُجُودُهَا صُدْفَةً. إِذَنْ المَوْجُودُ صُدْفَةً لَيْسَ عَلَى نِظَامٍ فِي أَصْلِ وُجُودِهِ فَكَيْفَ يَكُونُ مُنْتَظِمًا حَالَ بَقَائِهِ وَتَطَوُّرِهِ."

وَلَوْ أَنَّنَا ضَرَبْنَا عَلَى ذَلِكَ مِثَالًا فَإِنَّهُ يُوَضِّحُ ذَلِكَ الْمَقَالَ: فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ وَقَدْ تَرَكَهُ غَيْرَ مُرَتَّبٍ وَمَطْبَخَهُ غَيْرَ نَظِيفٍ وَكُلَّ شَيْءٍ فِيهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ثُمَّ خَرَجَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً ثُمَّ عَادَ إِلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ فَوَجَدَهُ عَلَى أَحْسَنِ نِظَامٍ وَأَبْدَعِ تَرْتِيبٍ، هَلْ يُعْقَلُ أَنَّ ذَلِكَ حَدَثَ بِنَفْسِهِ؟ يَعْنِي هَلْ رَتَّبَتْ تِلْكَ الْأَشْيَاءُ نَفْسُهَا أَمْ أَنَّهَا رُتِّبَتْ بِغَيْرِهَا؟ أَمْ أَنَّ ذَلِكَ حَدَثَ صُدْفَةً؟

الِاحْتِمَالُ الْأَوَّلُ وَالِاحْتِمَالُ الثَّالِثُ مَعْدُومٌ: أَنَّهَا حَدَثَتْ صُدْفَةً أَوْ أَنَّهَا رُتِّبَتْ نَفْسَهَا. فَلَا بُدَّ مِنْ مُرَتِّبٍ لها وَلَوْ لَمْ يَظْهَرْ ذَلِكَ الْمُرَتِّبُ مَا اسْتَطَاعَ صَاحِبُ الْمَكَانِ أَنْ يَبْقَى فِيهِ لِأَنَّهُ سَيَصِيرُ إِلَى حَالَةٍ مِنَ الذُّعْرِ وَحَالَةٍ مِنَ الْفَزَعِ حَتَّى يَعْرِفَ مَنِ الَّذِي دَخَلَ الْمَكَانَ، وَمَنِ الَّذِي رَتَّبَه، وَمَنِ الَّذِي أَعَادَ تَنْظِيمَهُ وَتَهْذِيبَهُ. فإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فِي أَمْرِ حُجْرَةٍ أَوْ فِي شَقَّةٍ أَوْ فِي بَيْتٍ فَكَيْفَ بِهَذَا الْكَوْنِ الْمُحِيطِ الَّذِي يَسِيرُ عَلَى أَبْدَعِ نِظَامٍ وَيَسِيرُ فِي أَحْسَنِ مِثَالٍ.

فَالشَّمْسُ لَا تَتَأَخَّرُ عَنْ وَقْتِهَا وَلَا تَتَقَدَّمُ وَكَذَلِكَ الْقَمَرُ وَكَذَلِكَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.

هَلْ هَذَا النِّظَامُ كَائِنٌ بِنَفْسِهِ أَوْ كَائِنٌ بِغَيْرِهِ أَوْ أَنَّهُ صُدْفَةٌ؟ لَا يَجُوزُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ أَنْ نَقُولَ أَنَّ ذَلِكَ النِّظَامَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ أَوْ قَائِمٌ صُدْفَةً، الَّذِي يَقْبَلُهُ الْعَاقِلُ أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ بِغَيْرِهِ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَإِذَا لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تُوجَدَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا وَلَا أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مُوجِدٌ وَهُوَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.**

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الدَّلِيلَ الْعَقْلِيَّ وَالْبُرْهَانَ الْقَطْعِيَّ فِي سُورَةِ الطُّورِ حَيْثُ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[سورة الطور: ٣٥] يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ وَلَا هُمُ الَّذِينَ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ خَالِقُهُمْ هُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ فَبَلَغَ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧)﴾ [الطور : ٣٥-٣٧]. وَكَانَ جُبَيْرٌ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكًا قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ وَذَلِكَ أَوَّلُ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَلنَضْرِب مَثَلًا يُوَضّحُ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَوْ حَدَّثَكَ شَخْصٌ عَنْ قَصْرٍ مُشَيَّدٍ أَحَاطَتْ بِهِ الْحَدَائِقُ، وَجَرَتْ بَيْنَهَا الْأَنْهَارُ، وَمُلِئَ بِالْفُرُشِ وَالْأَسِرَّةِ، وَزُيِّنَ بِأَنْوَاعِ الزِّينَةِ مِنْ مُقَوِّمَاتِهِ وَمُكَمِّلَاتِهِ وَقِيلَ لَكَ إِنَّ هَذَا الْقَصْرَ وَمَا فِيهِ مِنْ كَمَالٍ قَدْ أَوْجَدَ نَفْسَهُ أَوْ وَجَدَ هَكَذَا صُدْفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ لبادَرْتَ إِلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ وَتَكْذِيبِهِ وَعَدَدْتَ حَدِيثَهُ سَفَهًا مِنَ الْقَوْلِ، أَفَيَجُوزُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَوْنُ الْوَاسِعُ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ، وَأَفْلَاكِهِ وَأَحْوَالِهِ، وَنِظَامِهِ الْبَدِيعِ الْبَاهِرِ قَدْ أَوْجَدَ نَفْسَهُ أَوْ وُجِدَ صُدْفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ؟" هَذَا مُحَالٌ لَا يَقْبَلُهُ عَقْلُ عَاقِلٍ وَلَا فِكْرُ إِنْسَانٍ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَأَمَّا دَلَالَةُ الشَّرْعِ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ تَعَالَى فَلِأَنَّ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ كُلَّهَا تَنْطِقُ بِذَلِكَ وَمَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِمَصَالِحِ الْخَلْقِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مِنْ رَبٍّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ بِمَصَالِحِ خَلْقِهِ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الْأَخْبَارِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي شَهِدَ الْوَاقِعُ بِصِدْقِهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا مِنْ رَبٍّ قَادِرٍ عَلَى إِيجَادِ مَا أَخْبَرَ بِهِ.**

وَأَمَّا أَدِلَّةُ الْحِسِّ عَلَى وُجُودِ اللَّهِ فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّنَا نَسْمَعُ وَنُشَاهِدُ مِنْ إِجَابَةِ الدَّاعِينَ وَغَوْثِ الْمَكْرُوبِينَ مَا يَدُلُّ دَلَالَةً وَاقِعَةً وَدَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى وُجُودِهِ تَعَالَى قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٧٦]." وَهَذَا ثَابِتٌ فِي الْأَدْيَانِ جَمِيعِهَا لَا يُنْكِرُ أَحَدٌ مُعْجِزَةَ الطُّوفَانِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]"** وَهَذَا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ حِينَ نَصَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الصَّحَابَةَ وَهُمْ بِالْعَدَدِ الْقَلِيلِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ بِالْعَدَدِ الْكَثِيرِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَنَّ أَعْرَابِيًّا دَخَلَ مِنَ الْجُمُوعِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكَ الْمَالُ وَجَاعَ الْعِيَالُ فَادْعُ اللَّهَ لَنَا فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَدَعَا فَثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ فَلَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتحادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ، وَفِي الْجُمُعَةِ الثَّانِيَةِ قَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ أَوْ غَيْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَهَدَّمَ الْبِنَاءُ وَغَلَا الْقَمَالُ فَادْعُ اللَّهَ لَنَا فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا لَا عَلَيْنَا" فَمَا يُشِيرُ إِلَى نَاحِيَةٍ إِلَّا انْفَرَجَتْ".** أَلَيْسَ هَذَا دَلِيلًا مِنَ الْحِسِّ عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَتَصَرُّفِهِ فِي أَحْوَالِ الْكَوْنِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَمَا زَالَتْ إِجَابَةُ الدَّاعِينَ أَمْرًا مَشْهُودًا إِلَى يَومِ النَّاسِ هَذَا لِمَنْ صَدَقَ فِي لَجْئِه إلى اللَّهِ تَعَالَى وَأَتَى بِشَرَائِطِ الْإِجَابَةِ.**

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي تُسَمَّى بِالْمُعْجِزَاتِ وَيُشَاهِدُها النَّاسُ أَوْ يَسْمَعُونَ بِهَا بُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى وُجُودِ مُرْسِلِهِم وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّهَا أُمُورٌ خَارِجَةٌ عَنْ نِطَاقِ الْبَشَرِ يُجْرِيهَا اللَّهُ تَعَالَى تَأْيِيدًا لِرُسُلِهِ وَنَصْرًا لَهُمْ.

مِثَالُ ذَلِكَ: آيَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَضْرِبَ بِعَصَاهُ الْبَحْرَ فَضَرَبَهُ فَانْفَلَقَ اثْنَيْ عَشَرَ طَرِيقًا يَابِسًا وَالْمَاءُ بَيْنَهُمَا كَالْجِبَالِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.[الشعراء: ٦٣]

ومِثَالٌ ثَانٍ: آيَةُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ كَانَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ وَخَالِقِهِمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[آل عمران : ٤٩] وَقَالَ: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾.[المائدة: ١١٠]." فَهَذَا ثَابِتٌ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ أَنَّ ذلِكَ لِمَ يَكُنْ لِعِيسَى بَلْ يُثْبِتُونَ مَا كَانَ مِنْ مُعْجِزَةٍ لِعِيسَى عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ كَمَا أَثْبَتُوا شَقّ اَلْبَحْرِ لِمُوسَى عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"ومِثَالٌ ثَالِثٌ: مَا جَاءَ مِنْ مُعْجِزَاتِ مَاهِرِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ طَلَبَتْ مِنْ قُرَيْشٍ آيَةً فَأَشَارَ إِلَى الْقَمَرِ فَانْفَلَقَ فِرْقَتَيْنِ فَرَآهُ النَّاسُ وَفِي ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢)﴾[القمر : ١-٢]. فَهَذِهِ الآياتُ الْمَحْسُوسَةُ الَّتِي يُجْرِيهَا اللَّهُ تَعَالَى تَأْيِيدًا لِرُسُلِهِ وَنَصْرًا لَهُمْ تَدُلُّ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى وُجُودِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى".**

فَهَذَا أَوَّلُ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ: الْإِيمَانُ بِوُجُودِهِ. وَهَذَا مِنْ دَلَالَةِ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ. وَأَمَّا الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ:

"الْإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ." وَمَعْنَى الْإِيمَانِ بِرُبُوبِيَّتِهِ **"أَنْ تُؤْمِنَ بِأَنَّهُ وَحْدَهُ الرَّبُّ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَلَا مُعِينَ.**

وَالرَّبُّ مَنْ لَهُ الْخَلْقُ وَالْمُلْكُ وَالْأَمْرُ وَالتَّدْبِيرُ فَلَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا آمِرَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[الأعراف: ٥٤] وَقَالَ: ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾.[فاطر: ١٣]

وَلَمْ يُعْلَمْ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ أَنْكَرَ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إلا أَنْ يَكُونَ مُكَابِرًا غَيْرَ مُعْتَقِدٍ بِمَا يَقُولُ كَمَا حَصَلَ مِنْ فِرْعَوْنَ حِينَ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[القصص: ٣٨]. لَكِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ عن عقيدةٍ" يَعْنِي لَا يَعْتَقِدُ حَقِيقَةَ ذَلِكَ وَلَا هُمْ يَعْتَقِدُون وَإِنّما يَفْرِضُهَا عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانِهِ وَبَأْسِهِ وَجُنْدِهِ وَأَتْبَاعِهِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.[النمل: ١٤]. وَقَالَ مُوسَى لِفِرْعَوْنَ فِيمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُ: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].**

وَلَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُقِرُّونَ بِرُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ إِشْرَاكِهِمْ بِهِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤)

سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩)﴾. [المؤمنون : ٨٤-٨٩]".

وَأَمْرُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ شَامِلٌ لِلْأَمْرِ الْكَوْنِيِّ وَالشَّرْعِيِّ فَكَمَا أَنَّهُ مُدَبِّرُ الْكَوْنِ الْقَاضِي فبمَا يُرِيدُ حَسْبَمَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ فَهُوَ كَذَلِكَ الْحَاكِمُ فِي بِشَرْعِ الْعِبَادَاتِ وَأَحْكَامِ الْمُعَامَلَاتِ حَسَبَ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ، فَمَنِ اتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى مُشَرِّعًا فِي الْعِبَادَاتِ أَوْ حَاكِمًا فِي الْمُعَامَلَاتِ فَقَدْ أَشْرَكَ بِهِ وَلَمْ يُحَقِّقِ الْإِيمَانَ".

الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ: **"الْإِيمَانُ بِأُلُوهِيَّتِهِ"**.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **" الْإِيمَانُ بِأُلُوهِيَّتِهِ: أَيْ بِأَنَّهُ وَحْدَهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَقُّ لا شَرِيكَ لَهُ. وَ"الْإِلَهُ" هُنَا بِمَعْنَى الْمَأْلُوهِ أَيِ: "الْمَعْبُودُ حُبًّا وَتَعْظِيمًا". قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وَقَالَ تَعَالَى﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].**

وَكُلُّ مَنِ اتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ فَأُلُوهِيَّتُهُ بَاطِلَةٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]"

وَتَسْمِيَةُ هَذِهِ الْآلِهَةِ الْمَزْعُومَةِ بِهَذَا الِاسْمِ لَا يُعْطِيهَا حَقَّ الأُلوهِيَّة **"كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي اللاتِ والعُزّىٰ ومَناة:** ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[النجم: ٢٣].

وَقَالَ عَنْ هُودٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ:﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[الأعراف: ٧١].

وَقَالَ عَنْ يُوسُفَ أَنَّهُ قَالَ لِصَاحِبَيِ السِّجْنِ: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾.[يوسف : ٣٩-٤٠].

وَلِهَذَا كَانَتِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقُولُونَ لِأَقْوَامِهِمْ: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ}. وَلَكِنْ أَبَى ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً يَعْبُدُونَهُمْ مَعَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَيَسْتَنْصِرُونَ بِهِ وَيَسْتَغِيثُونَ."

وقد أَبْطَلَ اللَّهُ حُجَّةَ مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً أَبْطَلَ ذَلِكَ بِبُرْهَانَيْنِ عَقْلِيَّيْنِ، قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وَقَدْ أَبْطَلَ اللَّهُ تَعَالَى اتِّخَاذَ الْمُشْرِكِينَ لِهَذِهِ الْآلِهَةِ بِبُرْهَانَيْنِ عَقْلِيَّيْنِ:**

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذِهِ الْآلِهَةِ الَّتِي اتَّخَذُوهَا شَيْءٌ مِنْ خَصَائِصِ الْإِلُوهِيَّةِ فَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لَا تَخْلُقُ، وَلَا تَجْلِبُ نَفْعًا لِعَابِدِيهَا، وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرَرًا، وَلَا يَمْلِكُونَ حَيَاةً وَلَا مَوْتًا وَلَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا مِنَ السَّمَاءِ وَلَا يُشَارِكُونَ فِيهِ. قَالَ تَعَالَى:{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا} [الفرقان : ٣]. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ(٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾[سبإ : ٢٢-٢٣].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿{أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٢)﴾.[الأعراف : ١٩١-١٩٢]

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالَةُ تِلكَ الْآلِهَةِ فَإِنَّ اتِّخَاذَهَا آلِهَةً مِنْ أَسْفَهِ السَّفَهِ وَأَبْطَلِ الْبَاطِلِ."

الدَّلِيلُ الثَّانِي وَالْبُرْهَانُ الثَّانِي عَلَى بُطْلَانِ مَنِ اتَّخَذَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَحْدَهُ الرَّبُّ الْخَالِقُ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ، وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يُوَحِّدُوهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ كَمَا وَحَّدُوهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا**

أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)﴾.

[البقرة : ٢١-٢٢]

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ}

[الزخرف : ٨٧]

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢)﴾[يونس : ٣١-٣٢]."

الْأَمْرُ الرَّابِعُ فِي مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِوُجُودِهِ وَالْإِيمَانِ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَالْإِيمَانِ بِأُلُوهِيَّتِهِ:

"الْإِيمَانُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ". فَلَا يَتِمُّ تَمَامُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ إِلَّا بِهَذَا الرُّكْنِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَقِيَامُ هَذَا الرُّكْنِ: إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ فِي سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ مِن غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الْإِيمَانُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ: أي إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَلَى الْوَجْهِ اللَّائِقِ بِهِ مِن غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:** ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. **وَقَالَ سُبْحَانَهُ:** ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[سورة الروم: ٢٧] **وَقَالَ سُبْحَانَهُ:** ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.[الشورى: ١١].

وَقَدْ ضَلَّ فِي بَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ طَائِفَتَانِ:

الطَّائِفَةُ الْأُولَى: وَهُمُ الْمُعَطِّلَةُ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ أَوْ أَنْكَرُوا بَعْضَهَا زَاعِمِينَ أَنَّ إِثْبَاتَهَا يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ أَيْ تَشْبِيهَ اللَّهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ. وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ لِوُجُوهٍ منها :

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ لَوَازِمَ بَاطِلَةً كَالتَّنَاقُضِ فِي كَلَامِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ وَنَفَى أَنْ يَكُونَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ. وَلَوْ كَانَ إِثْبَاتُهَا يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ لَلَزِمَ التَّنَاقُضُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَتَكْذِيبُ بَعْضِهِ بَعْضًا.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنِ اتِّفَاقِ الشَّيْئَيْنِ فِي اسْمٍ أو صِفَةٍ أَنْ يَكُونَا مُتَمَاثِلَيْنِ. فَأَنْتَ تَرَى الشَّخْصَيْنِ يَتَّفِقَانِ فِي أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا إِنْسَانٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ مُتَكَلِّمٌ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَمَاثَلَا فِي الْمَعَانِي الْإِنْسَانِيَّةِ فِي السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ. وتَرى الحيَواناتِ لَهَا أَيْدٍ وَأَرْجُلٍ وَأَعْيُنٍ وَآذَانٍ، وَلَا يَلْزَمُ مِنِ اتِّفَاقِهَا هَذَا أَنْ تَكُونَ أَيْدِيهَا وَأَرْجُلُهَا وَأَعْيُنُهَا مُتَمَاثِلَةً.

فَإِذَا ظَهَرَ التَّبَايُنُ بَيْنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِيمَا تَتَّفِقُ فِيهِ مِنْ أَسْمَاءٍ أَوْ صِفَاتٍ، فَالْتَّبَايُنُ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ أَبْيَنُ وَأَعْظَمُ." أَنْتَ لَكَ أُذُنٌ وَالْحِمَارُ لَهُ أُذُنٌ، فَهَلْ تَرْضَى أَنْ يُقَالَ أُذُنُكَ كَأُذُنِ الْحِمَارِ؟ وَأَنْتَ لَكَ رَأْسٌ وَالْحِمَارُ لَهُ رَأْسٌ، أَتَرْضَى أَنْ يُقَالَ لَكَ أَنْتَ رَأْسُكَ كَرَأْسِ الْحِمَارِ؟ بَلْ إِنَّكَ تَأْنَفُ أَنْ تُشَبَّهَ بِبَعْضِ جِنْسِك مِن جِنْسِ الْإِنْسَانِ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَهُمُ اللَّهُ خِلْقَةً مُعَيَّنَةً عَلَى خِلَافِ خِلْقَتِكَ، كَالَّذِينَ خَلَقَهُمُ اللَّهُ عَلَى هَيْئَةِ السَّوَادِ مَعَ أَنَّهُمْ مِنَ الأنَاسِي وَمِنْ بَنِي آدَمَ وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا تَرْضَى أَنْ تُشَبَّهَ بِهِمْ وَخَلَقَهُمُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ. فَكَيْفَ يُشَبَّهُ الْخَالِقُ بِالْمَخْلُوقِ وَيُشَبَّهُ الرَّازِقُ بِالْمَرْزُوقِ؟

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ: الْمُشَبِّهَةُ الَّذِينَ أَثْبَتُوا الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ مَعَ تَشْبِيهِ اللَّهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ زَاعِمِينَ أَنَّ هَذَا مُقْتَضَى دَلَالَةِ النُّصُوصِ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَاطِبُ الْعِبَادَ بِمَا يَفْهَمُونَ. وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ لوُجُوهٍ:**

الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: الْمُشَابَهَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِخَلْقِهِ أَمْرٌ بَاطِلٌ يُبْطِلُه الْمُنَاقِضَ لِلشَّرْعِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُقْتَضَى نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَمْرًا بَاطِلًا.

الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَاطَبَ الْعِبَادَ بِمَا يَفْهَمُونَ مِنْ حَيْثُ أَصْلِ الْمَعْنَى، وَأَمَّا الْحَقِيقَةُ وَالْكُنْهُ الَّذِي عَلَيْهِ ذَلِكَ الْمَعْنَى فَهُوَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِعِلْمِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ.

فإِذَا أَثْبَتَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ أَنَّهُ سَمِيعٌ فَإِنَّ السَّمَعَ مَعْلُومٌ مِنْ حَيْثُ أَصْلِ الْمَعْنَى وَهُوَ "إِدْرَاكُ الْأَصْوَاتِ"، لَكِنَّ حَقِيقَةَ ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى سَمْعِ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ مَعْلُومَةٍ لِأَنَّ حَقِيقَةَ السَّمْعِ تَتَبَايَنُ حَتَّى فِي الْمَخْلُوقَاتِ. فَالْتَّبَايُنُ فِيهَا بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ أَبْيَنُ وَأَعْظَمُ." أَنْتَ لَكَ سَمْعٌ وَغَيْرُكَ لَهُ سَمْعٌ وَغَيْرُكُمَا لَهُ سَمْعٌ، وَلَكِنَّ سَمْعٌ يَخْتَلِفُ عَنْ سَمْعٍ يَخْتَلِفُ عَنْ سَمْعٍ، وَفِي النِّهَايَةِ أَنْتُمْ مَخْلُوقُونَ، فَكَيْفَ يَتَّفِقُ سَمْعُ الْخَالِقِ وَسَمْعُ الْمَخْلُوقِين.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وإِذَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ فَإِنَّ الِاسْتِوَاءَ مِنْ حَيْثُ أَصْلِ الْمَعْنَى مَعْلُومٌ"** وَهُوَ الْعُلُوُّ. **"وَلَكِنَّ حَقِيقَةَ الِاسْتِوَاءِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ غَيْرُ مَعْلُومَةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اسْتِوَاءِ اللَّهِ عَلَى عَرْشِهِ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الِاسْتِوَاءِ تَتَبَايَنُ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ، فَلَيْسَ الِاسْتِوَاءُ عَلَى كُرْسِيٍّ مُسْتَقَرٍّ كَالِاسْتِوَاءِ عَلَى رَحْلِ بَعِيرٍ صَعْبٍ نَفُورٍ، فَإِذَا تَبَايَنَتْ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ فَالْتَّبَايُنُ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ أَبْيَنُ وَأَعْظَمُ.**

والْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا وَصَفْنَا يُثْمِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ ثَمَرَاتٍ جَمِيلَةً:

الأولى: تَحْقِيقُ تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى حَيْثُ لَا يَتَعَلَّقُ بِغَيْرِهِ رَجَاءً وَلَا خَوْفًا وَلَا يَعبُدُ غَيْرُهُ.

الثانية: كَمَالُ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمُهِ بِمُقْتَضَى أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ.

الثالثة: تَحْقِيقُ عِبَادَتِهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى عَنْهُ.

فَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُومُ عَلَى أَرْكَانٍ أَرْبَعَةٍ: الْإِيمَانِ بِوُجُودِهِ، والْإِيمَانِ بِرُبُوبِيَّتِهِ، والْإِيمَانِ بِأُلُوهِيَّتِهِ، والْإِيمَانِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

هَذَا هُوَ مُقْتَضَى تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ بِغَيْرِ ذَلِكَ لَا يَقُومُ لِلْإِيمَانِ مَقامٌ، وَلَا يَتِمُّ لَهُ أَرْكَانٌ.

والْأَشيَاءُ تَنقَسِمُ إِلَى قِسمَينِ عَظِيمَينِ أَصلٍ وفَرعٍ وثَبَاتُ الأَصلِ يُؤَدِّي إِلَى ثَبَاتِ الفَرعِ وقُوَّتِهِ ونَمَائِهِ واهتِزَازُ الأَصلِ يُؤَدِّي إِلَى اهتِزَازِ الفَرعِ واضطِرَابِهِ، لِذَا مَن أَرَادَ أَن يُؤَصِّلَ فُرُوعَهُ فَعَلَيهِ أَن يُثَبِّتَ أُصُولَهُ واللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ فَرَّقَ بَينَ مَن أَسَّسَ بُنيَانَهُ عَلَى أُصُولٍ رَاسِخَةٍ وبَينَ مَن أَسَّسَ بُنيَانَهُ عَلَى أُصُولٍ هَاوِيَةٍ فَقَالَ سُبحَانَهُ: {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ} [التوبة : ١٠٩].

ومَا أَحوَجَ كُلَّ مُسلِمٍ ومُسلِمَةٍ أَن يُؤَصِّلَ دِينَهُمَا عَلَى أُصُولٍ مَتِينَةٍ رَاسِخَةٍ، مِن أَجلِ أَن يُقِيمَ الوَاحِدُ مِنهُ نَفسَهُ، وأَن يَأخُذَ بِيَدِ غَيرِهِ مِن زَوجِهِ ووَلَدِهِ وعَامِلِهِ وجَارِهِ، وكَيفَ يتعَامِلُ مع مَن حَولَهُ فِي دُنيَا اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، لِذَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا عَلَيهِمُ الرَّحمَةُ: "مَن أَرَادَ الوُصُولَ فَعَلَيهِ بِالأُصُولِ، ومَن حُرِمَ الأُصُولَ حُرِمَ الوُصُولَ."

ومِن مُصَنَّفَاتِ أَهلِ العِلمِ الَّذِي يَحتَاجُ إِلَيهَا الصَّغِيرُ والكَبِيرُ والبَرُّ والفَاجِرُ ويَحتَاجُ إِلَيهَا كُلُّ مَن أَرَادَ أَن يَسِيرَ فِي الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ هَذَا الكِتَابُ النَّافِعُ وهُوَ "الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ" لِشَيخِ الإِسلَامِ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الوَهَّابِ رَحمَةُ اللَّهِ عَلَيهِ، وقَد تَكَلَّمنَا عَنِ الأَصلِ الأَوَّلِ وهَا نَحنُ بِفَضلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى نَتَكَلَّمُ عَنِ الأَصلِ الثَّانِي.

فَالْأَصلُ الأَوَّلُ هُوَ مَعرِفَةُ اللَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ بِتَوحِيدِهِ بِأُلُوهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ وأَسمَائِهِ وصِفَاتِهِ، وأَمَّا الأَصلُ الثَّانِي فَهوَ مَعرِفَةُ دِينِ الإِسلَامِ العَظِيمِ، وأَمَّا الأَصلُ الثَّالِثُ فَهوَ مَعرِفَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وقَد فَرَغنَا بِحَولِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى وبِطُولِهِ وقُوَّتِهِ ومِنَّتِهِ فِي بَيَانِ الأَصلِ الأَوَّلِ وهُوَ مَعرِفَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى.

وتَعَالُوا بِنَا نَنظُرُ فِي الأَصلِ الثَّانِي قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"الأَصلُ الثَّانِي مَعرِفَةُ دِينِ الإِسلَامِ بِالأَدِلَّةِ وهُوَ الاِستِسلَامُ لِلَّهِ بِالتَّوحِيدِ والاِنقِيَادُ لَهُ**

بِالطَّاعَةِ والبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وأَهلِهِ." هَذَا الدِّينُ يَقُومُ عَلَى "ثَلَاثِ مَرَاتِبَ: الإِسلَامُ، والإِيمَانُ، والإِحسَانُ."

"وكُلُّ مَرتَبَةٍ" مِن تِلكَ المَرَاتِبِ "لَهَا أَركَانٌ. فَأَركَانُ الإِسلَامِ خَمسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وإِقَامُ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وصَومُ رَمَضَانَ، وحَجُّ بَيتِ اللَّهِ الحَرَامِ."

فَدَلِيلُ الرُّكنِ الأَوَّلِ: "دَلِيلُ الشَّهَادَةِ قَولُهُ تَعَالَى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران : ١٨]

"ومَعنَاهَا لَا مَعبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ" وَحدَهُ "لَا إِلَهَ" نَافِيًا مَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ وَحدَهُ "لَا إِلَهَ" نَافِيًا مَا يُعبَدُ مِن دُونِ اللَّهِ "إِلَّا اللَّهُ" مُثبِتًا العِبَادَةَ لِلَّهِ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أَنَّهُ لَيسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلكِهِ."

"وتَفسِيرُهَا الَّذِي يُوضِّحُهَا قَولُهُ تَعَالَى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [الزخرف : ٢٦-٢٨]

وقَولُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[سورة آل عمران: ٦٤]

ودَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ قَولُهُ تَعَالَى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة: ١٢٨]

"ومَعنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وتَصدِيقُهُ فِيمَا أَخبَرَ، واجتِنَابُ مَا نَهَى عَنهُ وزَجَرَ، وأَن لَا يُعبَدَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ، ودَلِيلُ الصَّلَاةِ والزَّكَاةِ وتَفسِيرُ التَّوحِيدِ قَولُهُ تَعَالَى﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]

ودَلِيلُ الصِّيَامِ فَقَولُهُ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ودَلِيلُ الحَجِّ فَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]."

وقَد تَنَاوَلنَا بِفَضلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَركَانَ الإِسلَامِ، وتَنَاوَلنَا أَركَانَ الإِيمَانِ فبَعدَ أَن ذَكَرَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَركَانَ الإِسلَامِ شَرَعَ فِي بَيَانِ أَركَانِ الإِيمَانِ وهِيَ: "أَن تُؤمِنَ بِاللَّهِ، ومَلَائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ." ثُمَّ تَنَاوَلنَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالإِيمَانِ بِاللَّهِ وهُوَ يَقُومُ عَلَى

أَركَانٍ أَربَعٍ: الإيمَانُ بِوُجُودِهِ، والإيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ، والإيمَانُ بِأُلُوهِيَّتِهِ، والإيمَانُ بِأَسمَائِهِ وصِفَاتِهِ.

وأَمَّا الرُّكنُ الثَّانِي مِن أَركَانِ الإيمَانِ فَهوَ: "الإيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ".

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"المَلَائِكَةُ: عَالَمٌ غَيبِيٌّ مَخلُوقُونَ عَابِدُونَ لِلَّهِ تَعَالَى، ولَيسَ لَهُم مِن خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ والأُلُوهِيَّةِ شَيءٌ، خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِن نُورٍ ومَنَحَهُم الانقِيَادَ التَامَّ لِأَمرِهِ، والقُوَّةِ عَلَى تَنفِيذِهِ قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)} [الأنبياء : ١٩-٢٠]**

المَلَائِكَةُ عِندَ اللَّهِ فِي سَمَائِهِ، وتَنزِلُ إِلَى أَرضِهِ بِأَمرِهِ وقَضَائِهِ، **"وهُم عَدَدٌ كَثِيرٌ لَا يُحصِيهِم إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى"** وقَد ثَبَتَ فِي بَيَانِ ذَلِكَ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ أَعدَادَ المَلَائِكَةِ أَعدَادًا لَا تَدخُلُ تَحتَ الحَصرِ لِأَنَّهَا مِمَّا تَفُوقُ ذَلِكَ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"ودَلِيلُهُ مَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَينِ مِن حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ فِي قِصَّةِ المِعرَاجِ: "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ رُفِعَ لَهُ البَيتُ المَعمُورُ فِي السَّمَاءِ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَومٍ سَبعُونَ أَلفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَم يَعُودُوا إِلَى آخِرِ مَا عَلَيهِم."** أُنظُرُوا فِي هَذَا العَدَدِ الهَائِلِ يَدخُلُ البَيتَ المَعمُورَ مُنذُ أَن خَلَقَهُ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ إِلَى يَومِ النَّاسِ هَذَا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ كُلَّ يَومٍ يَدخُلُ سَبعُونَ أَلفَ مَلَكٍ هَؤُلَاءِ مَخصُوصُونَ بِهَذَا البَيتِ لَا

يَعُودُونَ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ فَسُبحَانَكَ لَا نُحصِي ثَنَاءً عَلَيكَ، سُبحَانَكَ خَلقُكَ الَّذِينَ يُطِيعُونَكَ كَثِيرٌ ونَحنُ لَا نُسَاوِي فِي ذَلِكَ شَيئًا فَسُبحَانَكَ عَلَى حِلمِكَ بَعدَ عِلمِكَ، وسُبحَانَكَ عَلَى عَفوِكَ بَعدَ قُدرَتِكَ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ يَتَضَمَّنُ أَربَعَةَ أُمُورٍ:**

- **الأَوَّلُ: الإِيمَانُ بِوُجُودِهِم"** لِأَنَّكَ لَا تُؤمِنُ بِشَيءٍ هُوَ مِن قَبِيلِ العَدَمِ ولَكِن تُؤمِنُ بِشَيءٍ لَهُ وُجُودٌ.
- **الثَّانِي: الإِيمَانُ بِمَن عَلِمنَا اِسمَهُ مِنهُم بِاسمِهِ "كَجِبرِيلَ".** فَقَد جَاءَ اسمُ جِبرِيلَ فِي القُرآنِ العَظِيمِ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأَمِينِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ، فَكُلُّ مَن جَاءَ اِسمُهُ فِي الكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ نُوقِنُ أَنَّ هَذَا الاِسمَ كَانَ اِسمًا لِمَلَكٍ مِنَ المَلَائِكَةِ **"ومَن لَم نَعلَم اِسمَهُ نُؤمِنُ بِهِ إِجمَالًا"** لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى ذَكَرَ أَنَّ مِنَ المَلَائِكَةِ مَن يَعرُجُونَ إِلَيهِ فِي يَومٍ كَانَ مِقدَارُهُ خَمسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، وذَكَرَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ مِنَ المَلَائِكَةِ الَّتِي تَدخُلُ البَيتَ المَعمُورَ مَا ذُكِرَ إِجمَالًا فَنُؤمِنُ بِهَؤُلَاءِ.
- **"الإِيمَانُ بِمَن عَلِمنَا مِن صِفَاتِهِ كَصِفَةِ جِبرِيلَ عَلَيهِ السَّلَامُ فَقَد أَخبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أَنَّهُ رَآهُ عَلَى صِفَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيهَا لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ قَد سَدَّ الأُفُقَ."** فَنُؤمِنُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ولا نُكَذِّبُ بِهَا شَيئًا.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وقَد يَتَحَوَّلُ المَلَكُ بِأَمرِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى هَيئَةِ رَجُلٍ كَمَا حَصَلَ لِجِبرِيلَ حِينَ أَرسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَريَمَ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا وحِينَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وهُوَ جَالِسٌ فِي أَصحَابِهِ فَجَاءَهُ بِصِفَةِ رَجُلٍ شَدِيدِ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدِ سَوَادِ الشَّعرِ لَا يُرَى عَلَيهِ أَثَرُ السَّفَرِ ولَا يَعرِفُهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فَأَسنَدَ رُكبَتَيهِ إِلَى رُكبَتَيهِ ووَضَعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ"** أَي فَخِذَي نَفسِهِ لِأَنَّ هَذِهِ جَلسَةُ المُتَأَدِّبِ مَعَ العَالِمِ.

"وسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ عَنِ الإِسلَامِ والإِيمَانِ والإِحسَانِ والسَّاعَةِ وعَن أَمَارَاتِهَا فَأَجَابَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ"

"فَانطَلَقَ" أَي وَلَّى مَلِيًّا ثُمَّ بَعدَ مُدَّةٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ يَا اِبنَ الخَطَّابِ أَتَدرِي مَن السَّائِلُ؟ قَالَ: "اللَّهُ ورَسُولُهُ أَعلَمُ" قَالَ: **"هَذَا جِبرِيلُ أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم دِينَكُم"** الحَدِيثَ أَخرَجَهُ مُسلِمٌ فِي صَحِيحِهِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وكَذَلِكَ المَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَرسَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إِبرَاهِيمَ وإِلَى لُوطٍ كَانُوا فِي صُورَةِ رِجَالٍ نُؤمِنُ بِذَلِكَ ونُصَدِّقُهُ كَأَنَّنَا كُنَّا جُلُوسًا بَينَهُم."**

الرُّكنُ الرَّابِعُ مِن أَركَانِ الإِيمَانِ بِالمَلَائِكَةِ:

- **الإيمَانُ بِمَا عَلِمنَا مِن أَعمَالِهِمُ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا بِأَمرِ اللَّهِ تَعَالَى كَتَسبِيحِهِ"** مَلَائِكَةٌ يُسَبِّحُونَ اللَّيلَ والنَّهَارَ لَا يَفتُرُونَ، ومَلَائِكَةٌ رُكَّعٌ سُجَّدٌ لَا يَقُومُونَ، نُؤمِنُ بِهَؤُلَاءِ أَنَّهُم يَفعَلُونَ ذَلِكَ **"التَّعَبُّدَ لِلَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى لَيلًا ونَهَارًا بِدُونِ مَلَلٍ ولَا فُتُورٍ".**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وقَد يَكُونُ لِبَعضِهِم أَعمَالٌ خَاصَّةٌ كَجِبرِيلَ الأَمِينِ الَّذِي هُوَ أَمِينٌ عَلَى وَحيِ اللَّهِ تَعَالَى يُرسِلُهُ اللَّهُ بِهِ إِلَى الأَنبِيَاءِ والرُّسُلِ.**

وكَمِيكَائِيلَ المُوَكَّلِ بِالقَطرِ أَي بِالمَطَرِ والنَّبَاتِ.

وكَإِسرَافِيلَ المُوَكَّلِ بِالنَّفخِ فِي الصُّورِ عِندَ قِيَامِ السَّاعَةِ، وبَعثِ الخَلقِ.

وكَمَالِكِ المَوتِ: المُوَكَّلِ بِقَبضِ الأَروَاحِ عِندَ المَوتِ.

وكَمَالِكِ المُوَكَّلِ بِالنَّارِ.

وكَالمَلَائِكَةِ المُوَكَّلِينَ بِالجَنِينِ مِنَ الأَرحَامِ إِذَا تَمَّ لِلْإِنسَانِ أَربَعَةُ أَشهُرٍ فِي بَطنِ أُمِّهِ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيهِ مَلَكًا وأَمَرَهُ بِكَتْبَ رِزقِهِ وأَجَلِهِ وعَمَلِهِ وشَقِيٍّ أَم سَعِيدٍ.

وكَذَلِكَ المَلَائِكَةُ المُوَكَّلُونَ بِحِفظِ أَعمَالِ بَنِي آدَمَ وكِتَابَتِهَا لِكُلِّ شَخصٍ مَلَكَانِ أَحَدُهُمَا عَنِ اليَمِينِ والثَّانِي عَنِ الشِّمَالِ.

وكَذَلِكَ نُؤمِنُ بِأَعمَالِ المَلَائِكَةِ المُوَكَّلِينَ

بِسُؤَالِ المَيّتِ إِذَا وُضِعَ فِي قَبرِهِ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ يَسأَلَانِهِ عَن رَبِّهِ ودِينِهِ ونَبِيِّهِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"الإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ يُثمِرُ ثَمَرَاتٍ جَلِيلَةً مِن ثَمَرَاتِ الإِيمَانِ بِالمَلَائِكَةِ:**

- **الأولى: العِلمُ بِعَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وقُوَّتِهِ وسُلطَانِهِ، فَإِنَّ عَظَمَةَ المَخلُوقِ مِن عَظَمَةِ الخَالِقِ."** وَحِينَمَا تَنْظُر فِي خَلْقِ جِبرِيلْ عَلَيْهِ اَلسَّلَامُ، بَلْ حِين تَنْظُرُ فِي اَلْأَعْدَادِ اَلْهَائِلَةِ اَلَّتِي تَدْخُلُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى اَلْبَيْتِ اَلْمَعْمُورِ تَقُولُ سُبْحَانَ اَلْخَلَّاقِ اَلْعَظِيمِ، سُبْحَانَ ذِي اَلْقُوَّةِ اَلْمَتِينِ سُبْحَانَ اَلَّذِي بِيَدِهِ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ.
- **"شُكرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِنَايَتِهِ بِبَنِي آدَمَ حَيثُ وَكَّلَ مِن هَؤُلَاءِ المَلَائِكَةِ مَن يَقُومُ بِحِفظِهِم"** فِي أَرحَامِهِم، ومَن يَقُومُ بِحِفظِهِم عِندَ مِيلَادِهِم، ومَن يَقُومُ بِحِفظِهِم حَالَ كَونِ الأَمرِ ضَارٌّ بِهِم وَاَللَّهُ رَبُّ اَلْعَالَمَيْنِ يَصْرِفُهُ عَنْهُمْ بِمَلَائِكَتِهِ، وَأَنَّ هَذِهِ اَلْمَلَائِكَةِ تَقُومُ عَلَى شَأْنِهِمْ، **"كِتَابَةَ أَعْمَالِهِمْ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِمْ."**
- **"مَحَبَّةُ المَلَائِكَةِ عَلَى مَا قَامُوا بِهِ مِن عِبَادَةِ اللَّهِ."** الَّذِي يُحِبُّ اللَّهَ يُحِبُّ مَن يُحِبُّهُ ويَتَقَرَّبُ إِلَيهِ، الَّذِي يُحِبُّ اللَّهَ يُحِبُّ مَلَائِكَتَهُ،

الَّذِي يُحِبُّ اللَّهَ يُحِبُّ تِلكَ المَلَائِكَةَ الَّتِي تُطِيعُ اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وقَد أَنكَرَ قَومٌ مِنَ الزَّائِغِينَ كَونَ المَلَائِكَةِ أَجسَامًا وقَالُوا إِنَّهَا عِبَارَةٌ عَن قُوَى الخَيرِ الكَامِنَةِ فِي المَخلُوقَاتِ، وهَذَا تَكذِيبٌ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وتَكذِيبٌ لِسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وإِجمَاعِ المُسلِمِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ}[فاطر: ١] وقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]. وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ﴾[الأنعام: ٩٣]. وقَالَ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾[سبأ: ٢٣]. وقَالَ فِي أَهلِ الجَنَّةِ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾. [الرعد : ٢٣-٢٤]"**

فَهَذِهِ الآيَاتُ كُلُّهَا تُثبِتُ أَنَّ المَلَائِكَةَ خَلقٌ خَلَقَهُ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ، ولَيسَت صُورَةً كَامِنَةً عَن قُوَى الخَيرِ والشَّرِّ فِي المَخلُوقَاتِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ العَبدَ نَادَى جِبرِيلَ:**

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبرِيلُ فَيُنَادِي جِبرِيلُ فِي أَهلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرضِ".

وفِي صَحِيحِ مُسلِمٍ والبُخَارِيِّ فِي الصَّحِيحَينِ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ: "إِذَا كَانَ يَومُ الجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِن أَبوَابِ المَسجِدِ المَلَائِكَةُ يَكتُبُونَ الأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ فَإِذَا جَلَسَ الإِمَامُ طَوَوا الصُّحُفَ وجَاءُوا يَستَمِعُونَ الذِّكرَ".

فَهَذِهِ النُّصُوصُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ المَلَائِكَةَ أَجسَامٌ لَا قُوَى مَعنَوِيَّةٌ كَمَا قَالَ الزَّائِغُونَ، عَلَى مُقتَضَى هَذِهِ النُّصُوصِ أَجمَعَ المُسلِمُونَ."

ما أَحوَجُنَا إِلَى أَن يُؤمِنَ المَرءُ أَنَّهُ لَا يَعِيشُ وَحدَهُ بَل يَعيشُ فِي مُجتَمَعٍ يَعُجُّ بِخَلقٍ لَا يُحصِيهِم إِلَّا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ مِنَ المَلَائِكَةِ والجِنِّ، عَالَمٌ هُوَ كَائِنٌ لا نَرَاهُ بِأَعيُنِنَا المُجَرَّدَةِ بَل لَكِنَّهُ كَائِنٌ مَوجُودٌ حَقًّا يُؤمِنُ بِهِ أَهلُ الإِيمَانِ ويُوَقِّرُونَ المَلَائِكَةَ أَن تَسمَعَ مِنهُم لَغوًا أَو تَرَى فِيهِم عَيبًا. فَالْوَاحِدُ يَحفَظُ نَفسَهُ مِن مَلَكَيهِ اللَّذَينِ عَن يَمِينِهِ وعَن يَسَارِهِ أَكثَرَ مِمَّا يحفَظُ نَفسَه مِن وَلَدِيه وزَوجِه لِأَنَّ هَؤُلَاءِ كِرَامٌ كَاتِبُونَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ {كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)} [الإنفطار : ١١-١٢] زَوجُكَ تَستُرُ عَلَيكَ وتَنسَى مَا يَكُونُ مِنكَ وكَذَلِكَ وَلَدُكَ. وأَمَّا المَلَكُ فَهوَ يُثبِتُ عَلَيكَ مَا يَخرُجُ مِن لِسَانِكَ فَيَكُونُ فِي أَمرِ جَوَارِحِكَ وعَلَى بَنَانِكَ. فَكُلُّ مَا تُسَطِّرُهُ وكُلُّ مَا تَكتُبُهُ

وكُلُّ مَا تَلفَظُهُ وكُلُّ مَا تَفعَلُهُ هَذَا يُسَطَّرُ عَلَيكَ. فَمَاذَا أَنتَ فَاعِلٌ حِينَ يَأْتِي ذَلِكَ المَلَكُ حُجَّةً عَلَيكَ يُقَرِّرُكَ؟ أَمَا تَستَحِي عَبدَ اللَّهِ أَن يَرَاكَ المَلَكُ وأَنتَ عَلَى غَيرِ مَا يَنبَغِي

أَن تَكُونَ عَلَيهِ.

لِذا أَهلُ الإيمَانِ فِي عِصمَةٍ مِن وَسَاوِسِ الشَّيطَانِ فِي عِصمَةٍ مِنَ التَّعَرُّضِ فِيمَا يُغضِبُ الرَّحمَنَ لِأَنَّهُم يَعلَمُونَ أَنَّهُم لَا يَعِيشُونَ وَحدَهُم. فَمَا أَحوَجَنَا إِلَى أَن نُؤمِنَ بِالمَلَائِكَةِ والإيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ لَهُ ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ:

مِن ثَمَرَاتِهَا أَنَّ الإنسَانَ يَعرِفُ أَنَّ الكَونَ يُدارُ مِن قِبَلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى لَيسَ فِي

الحَيَاةِ صُدفَةٌ ولَيسَ فِي الحَيَاةِ أَمرٌ مَوهُومٌ ولَا مَظنُونٌ.{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر : ٤٩]

فَهَذِهِ التَّغَيُّراتُ الَّتِي تَحدُثُ فِي كَونِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى لَا تَحدُثُ بِذَاتِهَا وإِنَّمَا وَرَاءَ كُلِّ حَدَثٍ مُحدِثٌ، ووَرَاءَ كُلِّ مَوجُودٍ مُوجِدٌ، واللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ مِن وَرَاءِ كُلِّ مُحدِثٍ ومَوجُودٍ، اللَّهُ يُسَخِّرُ المَلَائِكَةَ مِن أَجلِ أَن تَسُوقَ السَّحَابَ ويُسَخِّرُ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ المَلَائِكَةَ مِن أَجلِ أَن يَخرُجَ النَّبَاتَ ويُسَخِّرُ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ المَلَائِكَةَ مِن أَجلِ خَلقِ الأَجِنَّةِ فِي بُطُونِ الأُمَّهَاتِ، ويُسَخِّرُ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ المَلَائِكَةَ تَحتَفِي بِأَهلِ الذِّكرِ وأَهلِ الفَضلِ فِي الجِلْسَاتِ

المُبَارَكَاتِ، هَذَا كُلُّهُ يَجعَلُ الإنسَانَ قَائِمًا عَلَى حِيَاطَتِهِ بِنَفسِهِ، وحِيَاطَةِ عَمَلِه مِن إفسَادِهِ، وحِيَاطَةِ لِسَانِهِ مِن لَغوِهِ، وحِيَاطَةِ عَينِهِ مِن إطلَاقِ بَصَرِهِ وحِيَاطَةِ جَوَارِحِهِ مِنَ البَطشِ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مَكتُوبٌ عَلَيهِ وسَيُسأَلُ عَنهُ بَينَ يَدَي اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

الرُّكنُ الثَّالِثُ مِن أَركَانِ الإيمَانِ: "الإيمَانُ بِالكُتُبِ".

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"والكُتُبُ: جَمعُ كِتَابٍ بِمَعنَى مَكتُوبٍ والمُرَادُ هُنَا: الكُتُبُ الَّتِي أَنزَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رُسُلِهِ رَحمَةً لِلخَلقِ وهِدَايَةً لَهُم لِيَصِلُوا بِهَا إِلَى سَعَادَتِهِم فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ.**

والإيمَانُ بِالكُتُبِ يَتَضَمَّنُ أَربَعَةَ أُمُورٍ:

- **الأولُ: الإيمَانُ بِأَنَّهَا نَزَلَت مِن عِندِ اللَّهِ حَقًّا"** نُؤمِنُ بِالتَّورَاةِ والإنجِيلِ والزَّبُورِ والفُرقَانِ، نُؤمِنُ بِمَا أَخبَرَنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى بِهِ فِي القُرآنِ.
- **"الثاني: الإيمَانُ بِمَا عَلَّمنَا اِسمَهُ منها بِاسمُهُ كَالقُرآنِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ، والتَّورَاةُ الَّتِي أُنزِلَت عَلَى مُوسَى عَلَيهِ السَّلَامُ، والإنجِيلُ الَّذِي أُنزِلَ عَلَى عِيسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ، والزَّبُورُ الَّذِي أُوتِيَهُ دَاوُدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ. وأَمَّا مَا لَم نَعلَم اِسمَهُ فَنُؤمِنُ بِهِ إِجمَالًا.**

الرُّكنُ الثَّالِثُ مِن أَركَانِ الإيمَانِ بِالكُتُبِ:

- **"تَصدِيقُ مَا صَحَّ مِن أَخبَارِهَا"** فَنُصَدِّقُ مَا صَحَّ مِن أَخبَارِهَا **"كَأَخبَارِ القُرآنِ وأَخبَارِ مَا لَم يُبَدَّل أَو يُحَرَّف مِنَ الكُتُبِ السَّابِقَةِ"** لِأَنَّ الكُتُبَ السَّابِقَةَ شَمِلَهَا التَّحرِيفُ وأَقَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ بِبَعضِهَا، فَمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ صَدَّقنَاهُ ومَا جَاءَ تَصدِيقُهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ صَدَّقنَاهُ ومَا جَاءَ تَكذِيبُهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ كَذَّبنَاهُ ومَا لَم يَأْتِنَا فِيهِ بَيَانٌ فَهوَ لَا إِلَى التَّصدِيقِ ولَا إِلَى التَّكذِيبِ.

الرُّكنُ الرَّابِعُ مِن أَركَانِ الإيمَانِ بِالكُتُبِ:

- **العَمَلُ بِأَحكَامِ مَا لَم يُنسَخ مِنهَا والرِّضَا والتَّسلِيمُ بِهِ سَوَاءٌ فَهِمنَا حِكمَتَهُ أَم لَم نَفهَمهَا، وجَمِيعُ الكُتُبِ السَّابِقَةِ مَنسُوخَةٌ بِالقُرآنِ العَظِيمِ"** يَعنِي التَّورَاةَ والإنجِيلَ والزَّبُورَ وصُحُفَ مُوسَى وصُحُفَ إبرَاهِيمَ عَلَيهِ السَّلَامُ كُلُّهَا مَنسُوخَةٌ بِالقُرآنِ العَظِيمِ **"لِقَولِهِ تَعَالَى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}**[المائدة : ٤٨] **-أَي حَاكِمًا عَلَيهِ".** لِذَا لَمَّا رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ يُمسِكُ بِوَرَقَةٍ مِنَ التَّورَاةِ غَضِبَ وقَالَ: "أَمُتَهَوِّكُونَ أَنتُم فِيهَا يَا اِبنَ الخَطَّابِ واللَّهِ لَو كَانَ مُوسَى بنُ عِمرَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَن يَتبَعَنِي." فَالقُرآنُ

العَظِيمُ هو الكِتَابُ النَّاسِخُ لِجَمِيعِ هَذِهِ الكُتُبِ ولَا عِبْرةَ بِمَن اِعتَدَّ بِشَيءٍ مِنهَا بَعدَ نُزُولِ القُرآنِ العَظِيمِ. **"وعَلَى هَذَا فَلَا يَجُوزُ العَمَلُ بِأَيِّ حُكمٍ مِن أَحكَامِ الكُتُبِ السَّابِقَةِ إِلَّا مَا صَحَّ مِنهَا وأَقَرَّهُ القُرآنُ"** وجَعَلَهُ دِينًا يَدخُلُ فِي إِطَارِ شَرِيعَةِ دِينِ الإِسلَامِ العَظِيمِ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الإِيمَانُ بِالكُتُبِ يُثمِرُ ثَمَرَاتٍ جَلِيلَةً مِنهَا:**

- **الأولى: العِلمُ بِعِنَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ حَيثُ أَنزَلَ لِكُلِّ قَومٍ كِتَابًا يَهدِيهِم بِهِ."** اَللَّهُ رَبُّ اَلْعَالَمَيْنِ يُرِيدُ مِن عَبْدَهْ أَنْ يَرَى اَلْحَقَّ حَقًّا وَأَنْ يَرَى اَلْبَاطِلَ بَاطِلاً، وَأَنْ تَكُونَ لَهُ حُجَّةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ أَجْلٍ أَنَّ لَا يُكَلَّفُ بِمَا يَجْهَلُ، أَوْ يَمَّا يَصْعُبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ، فَيُنْزِلُ إِلَيْهِ اَلْكِتَابُ وَيُبَيِّنُ لَهُ مَا يَأْمُرُهُ بِهِ بَيَانًا وَاضِحًا، وَيُبَيِّنَ لَهُ مَا يَنْهَاهُ عَنْهُ بَيَانًا وَاضِحًا، هَذَا يَدُلُّ عَلَى عِنَايَةِ اَللَّهِ بِعَبْدِهِ وَحُبِّهِ لَهُ، وإِرَادَتِه النَّفعِ لَهُ فَهَذِهِ مِن ثَمَرَاتِ الإِيمَانِ بِالكُتُبِ.

الثَّمَرَةُ الثَّانِيَةُ:

- أَنَّكَ حِينَ تَنظُرُ فِي كُتُبِ الرُّسُلِ الَّتِي أُنزِلَت مَعَهُم حِينَ تَنظُرُ فِي تِلكَ الكُتُبِ تَجِدُ فِيهَا مِنَ الحِكمَةِ مِن **"حِكمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى فِي شَرعِهِ حَيثُ شَرَعَ لِكُلِّ قَومٍ مَا يُنَاسِبُ أَحوَالَهُم."** فَشَرَعَ شَرِيعَةً تُنَاسِبُ قَومَ مُوسَى وشَرَعَ شَرِيعَةً تُنَاسِبُ قَومَ عِيسَى، فَكُلُّ طَائِفَةٍ فِي زَمَانِهَا

جَعَلَ اللَّهُ لَهَا مِنَ الأَديَانِ والكُتُبِ مَا يُنَاسِبُهَا **"قَالَ تَعَالَى: {لِكُلٍّ جَعَلنَا مِنكُم شِرعَةً ومِنهَاجًا} [المائدة: ٤٨]**.

حينما يَنظُرُ المَرءُ فِي أَمرِ الإيمَانِ بِالكُتُبِ يَجِدُ أَنَّ النَّاسَ يَتَهَاوَنُونَ فِي أَمرِ القُرآنِ العَظِيمِ، فَيَنظُرُونَ إِلَيهِ من بَابِ أَنَّهُ بَرَكَةٌ يَعنِي مِمَّا يُتَبَرَّكُ بِهِ، ويَجعَلُونَهُ فِي أَغلِفَةٍ، ويَحفَظُونَهُ فِي أَورِقَةٍ، وكَأَنَّ القُرآنَ أُنزِلَ لِيَكُونَ زِينَةً لِلنَّاسِ، ومَا هَكَذَا أَرَادَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ القُرآنَ العَظِيمَ، ومَا هَكَذَا أُنزِلَ القُرآنُ العَظِيمُ. إِنَّمَا أُنزِلَ لِيُتَدَبَّرَ لِيُفهَمَ، لِيُعقَلَ، لِيُعمَلَ بِهِ، اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ أَنزَلَ القُرآنَ لَفظًا يَحمِلُ مَعنًى، وهَذَا المَعنَى يَحمِلُ فِي طَيَّاتِهِ حُكمًا، وهَذِهِ الأَحكَامُ لَابُدَّ أَن تَتَحَوَّلَ إِلَى أَعمَالٍ.

أَكثَرُ النَّاسِ إِلَّا مَن رَحِمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى يَنظُرُ إِلَى القُرآنِ عَلَى اِعتِبَارِ أَنَّهُ كِتَابٌ مُقَدَّسٌ مُنَزَّهٌ هُوَ مُقَدَّسٌ وَمُنَزَّهٌ لَكِن هَل تَقدِيسُهُ وتَنزِيهُهُ بِتَركِهِ؟ هَل تَقدِيسُهُ وتَنزِيهُهُ هو وَضْعِهِ فِي المَحَارِيبِ لَا يُمَسُّ؟ هَذَا لَيسَ بِتَنزِيهٍ ولَا تَقدِيسٍ وإِنَّمَا التَّنزِيهُ والتَّقدِيسُ أَن نَرفَعَ مِن شَأنِهِ، وأَن نُعلِيَ مِن قَدرِهِ، وأَن نُحَوِّلَهُ إِلَى تِلَاوَةٍ مَتْلُوَّةٍ، وإِلَى مَعَانٍ مَفهُومَةٍ، وإِلَى أَحكَامٍ مُقَرَّرَةٍ، وإِلَى أَعمَالٍ مُسَطَّرَةٍ. هَذَا هُوَ تَنزِيهُ القُرآنِ العَظِيمِ. لِذَا وَقَفَ الحَسَنُ البَصرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيهِ يَومًا فَقَالَ: "إِنَّ النَّاسَ مَعَ القُرآنِ كَالمُسَافِرِ مَعَ جَمَلِهِ." فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "إِنَّكُم لَتَضرِبُونَ اللَّيلَ بِالقُرآنِ فَسُورَةٌ تَنقُلُكُم إِلَى سُورَةٍ وجُزءٌ يَنقُلُكُم مِن جُزءٍ إِلَى جُزءٍ حَتَّى تَنقِلَكُم خَتمَةٌ إِلَى خَتمَةٍ، ومَا هَكَذَا كَانَ يُقرَأُ

القُرآنُ فِي زَمَانِ الصَّالِحِينَ، إِنَّمَا كَانُوا يَنظُرُونَ فِي القُرآنِ عَلَى أَنَّهُ رَسَائِلُ مِنَ اللَّهِ يَتَدَبَّرُونَهَا بِلَيلٍ، ويَعمَلُونَ بِهَا فِي النَّهَارِ، رُهبَانٌ بِاللَّيلِ فِرسَانٌ بِالنَّهَارِ."

يَقرَؤُونَ القُرآنَ يَفهَمُونَ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى مُرَادَهُ، يَعرِفُونَ أَمرَهُ، يَقِفُونَ عِندَ نَهيِهِ، يَقِفُونَ عِندَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَفظًا ومَعنًى وحُكمًا، فَإِذَا مَا فَرَغُوا مِن عِبَادَاتِهِم حَوَّلُوا ذَلِكَ فِي أَقوالِهِم وأَفعَالِهِم وأَحوَالِهِم.

فَمَا أَحوَجَنَا إِلَى أَن نَهتَمَّ بِالقُرآنِ العَظِيمِ قِرَاءَةً، وأَن نَهتَمَّ بِالقُرآنِ العَظِيمِ تَدَبُّرًا، وأَن نَهتَمَّ بِالقُرآنِ العَظِيمِ فَهمًا، وأَن نَهتَمَّ بِالقُرآنِ العَظِيمِ تَقرِيرًا، وأَن نَهتَمَّ بِالقُرآنِ عَمَلًا ووَاقِعًا نَعِيشُهُ كَمَا قَالَت أُمُّنَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا لَمَّا سُئِلَت عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قَالَت: "كَانَ خُلُقُهُ القُرآنَ" أي كَانَ يَتَأَوَّلُ القُرآنَ يَعمَلُ بِهِ.

الرُّكنُ الرَّابِعُ مِن أَركَانِ الإِيمَانِ: "الإِيمَانُ بِالرُّسُلِ"

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"والرُّسُلُ: جَمعُ رَسُولٍ بِمَعنَى مُرسَلٍ مَبعُوثٍ"** بَعَثَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى **"بِإِبلَاغِ شَيءٍ"** إِلَى خَلقِهِ **"والمُرَادُ هُنَا بِالرَّسُولِ مَن أُوحِيَ إِلَيهِ مِنَ البَشَرِ بِشَرعٍ وأُمِرَ بِتَبلِيغِهِ"** لِأَنَّ النَّبِيَّ يُوحَى إِلَيهِ ولَا يُؤمَرُ بِتَبلِيغِ شَرعٍ جَدِيدٍ وإِن كَانَ يُبَلِّغُ شَرعَ مَن قَبلَهُ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ:**"وأَوَّلُ الرُّسُلِ نُوحٌ وآخِرُهُم مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ قَالَ تَعَالَى {۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ} [النساء : ١٦٣]**

وفِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ذَكَرَ أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى آدَمَ لِيَشفَعَ لَهُم فَيَعتَذِرُ إِلَيهِ ويَقُولُ: "ائتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ." وذَكَرَ تَمَامَ الحَدِيثِ." فَفِي الحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ الرُّسُلِ هُوَ نُوحٌ عَلَيهِ السَّلَامُ وآخِرَ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ والدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ **"قَولُهُ تَعَالَى: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} [الأحزاب : ٤٠]".** فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ هُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لِذَا كُلُّ مَن ادَّعَى النُّبُوَّةَ بَعدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فَهوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ، فَهوَ مَجنُونٌ يَخبِطُ خَبطَ عَشوَاء.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"ولَم تَخلُ أُمَّةٌ مِن رَسُولٍ يَبعَثُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِشَرِيعَةٍ مُستَقِلَّةٍ إِلَى قَومِهِ"** وهَذَا مِن حُجَجِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى عَلَى النَّاسِ مَا مِن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ، مَا مِن أُمَّةٍ إِلَّا وجَاءَهَا مِنَ اللَّهِ بَشِيرٌ ونَذِيرٌ، **"أَو نَبِيٌّ يُوحَى إِلَيهِ بِشَرِيعَةٍ مِن قَبلِهِ لِيُجَدِّدَهَا قَالَ تَعَالَى:{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ} [النحل : ٣٦]**

وقَالَ تَعَالَى: {وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر : ٢٤]

وقَالَ تَعَالَى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا} [المائدة : ٤٤]."

فَمَا مِن أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ، إِلَّا وقَد أَقَامَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ عَلَيهَا الحُجَّةَ بِبِعثَةِ الرُّسُلِ، وبَعدَ الرُّسُلِ يَأْتِي وُرَّاثُ الرُّسُلِ من الْعُلَمَاءِ والدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى يَأْتُونَ حُجَّةً عَلَى الخَلقِ، وفِي الأَثَر وإِن كَانَ فِيهِ ضَعفٌ "عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنبِيَاءِ بَنِي إِسرَائِيلَ" وهُوَ لَا يَصِحُّ ولَكِن مَعنَاهُ صَحِيحٌ. فَعُلَمَاءُ الأُمَّةِ يَقُومُونَ فِي الأُمَّةِ مَقَامَ أَنبِيَاءِ بَنِي إِسرَائِيلَ فِي بَنِي إِسرَائِيلَ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"الرُّسُلُ بَشَرٌ مَخلُوقُونَ لَيسَ لَهُم مِن خَصَائِصِ الرُبُوبِيَّةِ شَيءٌ"** فَهَذَا مِمَّا يَجِبُ أَن يُعتَقَدَ. لَا بُدَّ لِلمُسلِمِينَ مَعَ جَلَالَةِ الأُصُولِ ورِفعَةِ أَقدَارِهِم أَن تَعلَمَ أَنَّهُم بَشَرٌ لَا يَستَحِقُّونَ العِبَادَةَ، ولَا يُرفَعُونَ فَوقَ مَقَادِيرِهِم، لِأَنَّنَا نُطِيعُهُم طَاعَةً لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، ونُحِبُّهُم مَحَبَّةً لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، ونَتبَعُهُم طَاعَةً لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، فَالرُسُلُ بَشَرٌ مَخلُوقُونَ لَيسَ لَهُم مِن خَصَائِصِ رُبُوبِيَّةٍ والأُلُوهِيَّةِ شَيءٌ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَن نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ وهُوَ سَيِّدُ المُرسَلِينَ وأَعظَمُهُم جَاهًا عِندَ اللَّهِ:** ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: ١٨٨]. هَذَا نَبِيُّكُم وهُوَ خَيرُ البَشَرِ خَيرُ خَلقِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى، لَا يَملِكُ

لِنَفسِهِ نَفعًا ولَا ضَرًّا ولَا مَوتًا ولَا حَيَاةً ولَا نُشُورًا، فَكَيفَ يُلجَأُ إِلَى مَن لَا يُسَاوِي وَزنَهُ تُرَابًا؟ **"قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢)﴾ [الجن : ٢١-٢٢]"** هَذَا أَمرُ اللَّهِ إِلَى أَنبِيَائِهِ ورُسُلِهِ أَن يُبَلِّغُوا أَقوَامَهُم

أَنَّهُم لَا يَملِكُونَ لِأَحَدٍ لَا ضَرًّا ولَا رَشَدًا وأَنَّ الجِوَارَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ اللَّهِ هو الَّذِي يُجِيرُ لِأَنَّهُ لَا يُستَجَارُ مِنَ الخَلقِ إِلَّا بِالخَلَّاقِ العَظِيمِ.

والرسُلُ **"تَلحَقُهُم خَصَائِصُ البَشَرِيَّةِ مِنَ المَرَضِ والمَوتِ والحَاجَةِ إِلَى الطَّعَامِ والشَّرَابِ"**. فَهُم يَمرَضُونَ ويَجُوعُونَ ويَفعَلُونَ مَا يَفعَلُهُ بَاقِي البَشَرِ لِأَنَّهُم بَشَرٌ، وكَذَلِكَ يَمُوتُونَ. **"قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَن إِبرَاهِيمَ عَلَيهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ فِي وَصفِهِ لِرَبِّهِ: {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)} [الشعراء : ٧٩-٨١]"**. فَأَثبَتَ لِنَفسِهِ الصِّحَّةَ والمَرَضَ، وأَثبَتَ لِنَفسِهِ الجُوعَ والعَطَشَ، وَأَثبَتَ لِنَفسِهِ الحَيَاةَ والمَوتَ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ: "إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم أَنسَى كَمَا تَنسَونَ. فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي"**. وقَد وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى **بِالعُبُودِيَّةِ لَهُ فِي أَعلَى مَقَامَاتِهِم وفِي سِيَاقِ الثَّنَاءِ عَلَيهِم فَقَالَ تَعَالَى فِي نُوحٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ: {إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} [الإسراء : ٣]**. وقَالَ

فِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان : ١].

وقَالَ فِي إبرَاهِيمَ وإسحَاقَ ويَعقُوبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِم وسَلَّمَ: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦)﴾ [ص : ٤٥-٤٦].

وقَالَ فِي عِيسَى ابنِ مَريَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ:﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[الزخرف: ٥٩]."

الإيمَانُ بِالرُّسُلِ يُورِثُ ثَمَرَاتٍ جَلِيلَةً ويَقُومُ عَلَى أَركَانٍ عَظِيمَةٍ، الرُّكنُ الأَوَّلُ مِن أَركَانِ الإيمَانِ بِالرُّسُلِ:

- **"الإيمَانُ بِأَنَّ رِسَالَتَهُم حَقٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَن كَفَرَ بِرِسَالَةِ وَاحِدٍ مِنهُم فَقَد كَفَرَ بِالجَمِيعِ"**. يَعنِي مَن كَفَرَ بِرِسَالَةِ عِيسَى عَلَيهِ السَّلَامُ فَلَا يُقبَلُ مِنهُ إِيمَانُهُ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ، ومَن كَفَرَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ فَلَا يُقبَلُ مِنهُ إِيمَانُهُ بِرِسَالَةِ عِيسَى عَلَيهِ السَّلَامُ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"قَالَ تَعَالَى** ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ **[الشعراء: ١٠٥]"**. نُوحٌ أَوَّلُ رَسُولٍ ولَم يَأْتِ مِن بَعدِهِ رَسُولٌ. فَكَيفَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾؟ لِأَنَّهُم لَمَّا

كَذَّبُوا نُوحًا وهُوَ رَسُولُهُم صَارُوا مُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. **"فَجَعَلَهُمُ اللَّهُ مُكَذِّبِينَ لِجَمِيعِ الرُّسُلِ مَعَ أَنَّهُ لَم يَكُن رَسُولٌ غَيرُهُ حِينَ كَذَّبُوهُ، وعَلَى هَذَا فَالنَّصَارَى الَّذِينَ كَذَّبُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ ولَم يَتبِعُوهُ هُم مُكَذِّبُونَ لِلمَسِيحِ بنِ مَريَمَ غَيرُ مُتَّبِعِينَ لَهُ أَيضًا، ولَا سِيَّمَا وأَنَّهُ قَد بَشَّرَهُم"** يَعنِي عِيسَى عَلَيهِ السَّلَامُ بَشَّرَهُم **"بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ. ولَا مَعنَى لِبِشَارَتِهِم بِهِ إِلَّا أَنَّهُ رَسُولٌ إِلَيهِم يُنقِذُهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ ويَهدِيهِم إِلَى صِرَاطٍ مُستَقِيمٍ."**

- الرُّكنُ الثَّانِي مِن أَركَانِ الإِيمَانِ بِالرُّسُلِ: **"الإِيمَانُ بِمَن عَلِمنَا اِسمَهُ مِنهُم بِاِسمِهِ مِثل: مُحَمَّدٌ، وإِبرَاهِيمُ، ومُوسَى، وعِيسَى، ونُوحٌ عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ. وهَؤُلَاءِ الخَمسَةُ هُم أُولُو العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ"** لَهُم مَرتَبَةٌ تَختَلِفُ عَن مَرَاتِبِ غَيرِهِم مِنَ الرُّسُلِ. **"وقَد ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوضِعَينِ مِنَ القُرآنِ: فِي سُورَةِ الأَحزَابِ فِي قَولِهِ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ ﴾[سورة الأحزاب: ٧]. وفِي سُورَةِ الشُّورَى فِي قَولِهِ: {۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ } [الشورى : ١٣]. وأَمَّا مَن لَم نَعلَم اِسمَهُ مِنهُم فَنُؤمِنُ بِهِ إِجمَالًا"** لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَرسَلَ رُسُلًا

قَصَّ عَلَينَا قَصَصَهُم ومِنهُم مَن لَم يَقصُص عَلَينا. **"قَالَ تَعَالَى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۖ} [غافر : ٧٨].**

- **الرُّكنُ الثَّالِثُ مِن أَركَانِ الإِيمَانِ بِالرُّسُلِ: "تَصدِيقُ مَا صَحَّ عَنهُم مِن أَخبَارِهِم"** فَكُلُّ مَا صَحَّ عَن رَسُولٍ مِنَ الرُّسُلِ يَجِبُ الإِيمَانُ بِهِ.
- الرُّكنُ الرَّابِعُ مِن أَركَانِ الإِيمَانِ بِالرُّسُلِ: **"العَمَلُ بِشَرِيعَةِ مَن أُرسِلَ إِلَينَا مِنهُم وهُوَ خَاتَمُهُم مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ المُرسَلُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [سورة النساء: ٦٥]."**

مَا مِن شَجَرَةٍ تُقَامُ عَلَى أُصُولِهَا إِلَّا وتُؤتِي أُكُلَهَا وثِمَارَهَا، قال الشارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"ولِلْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ مِنهَا:**

- **الثَّمَرَةُ الأُولَى: العِلمُ بِرَحمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وعِنَايَتِهِ بِعِبَادِهِ حَيثُ أَرسَلَ إِلَيهِمُ الرُّسُلَ لِيَهدُوهُم إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ تَعَالَى، ويُبَيِّنُ لَهُم كَيفَ يَعبُدُونَ اللَّهَ لِأَنَّ العَقلَ البَشَرِيَّ لَا يَستَقِلُّ بِمَعرِفَةِ ذَلِكَ."** مِن رَحمَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَن يُرسِلَ إِلَيكَ رَسُولًا مِن أَجلِ أَن يُوَجِّهَكَ، ومِن أَجلِ أَن يُعَلِّمَكَ، ومِن أَجلِ أَن يُعَرِّفَكَ طُرُقَ الخَيرِ مِن أَجلِ أَن تُصِيبَهَ، وأَن تَجتَنِبَ طُرُقَ الشَّرِّ لِئَلَّا تَتَوَرَّطَ فِيهَا، مِن أَجلِ أَن تُحَافِظَ

عَلَى نَفسِكَ، وأَن تُحَافِظَ عَلَى وَلَدِكَ، وأَن تُحَافِظَ عَلَى زَوجِكَ، وأَن تُحَافِظَ عَلَى قَلبِكَ، هَذَا يَدُلُّ عَلَى عِنَايَةِ اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى.

ومَن نَحنُ ومَن نَكُونُ؟

مَن نَحنُ؟ وخَلقُهُ سِوَانا كَثِيرٌ.

مَن نَحنُ؟ فِي ذَلِكَ العَالَمِ المُتَطَاوِلِ بِأَعدَادٍ لَا يُحصِيهَا إِلَّا اللهُ مِنَ المَخلُوقَاتِ، أَنتَ يَختَصُّكَ اللهُ بِنَبِيٍّ مِن أَنبِيَائِهِ، وبِرَسُولٍ مِن رُسُلِهِ، وبِصَفِيٍّ مِن أَصفِيَائِهِ. هَذَا إِن دَلَّ فَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى مَدَى عِنَايَةِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وتَعَالَى وتَوَدُّدِهِ وكَرَمِهِ بِعِبَادِهِ.

- الثَّمَرَةُ الثَّانِيَةُ: **"شُكرُهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعمَةِ"** أَنعَمَ إِلَيكَ بِإِرسَالِ خَيرِ خَلقِهِ مِن مَلَائِكَتِهِ ورُسُلِهِ، أَلَا تَشكُرُهُ، أَلَا تَحمَدُهُ، أَلَا تَجعَلُ ذَلِكَ سَبَبًا فِي التَّوَدُّدِ إِلَيهِ والقُربِ مِنهُ.
- الثَّمَرَةُ الثَّالِثَةُ: **"مَحَبَّةُ رُسُلِهِ عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، وتَعظِيمُهُم والثَّنَاءُ عَلَيهِم بِمَا يَلِيقُ بِهِم؛ لِأَنَّهُم رُسُلُ اللهِ"** وَاجَهُوا أَقوَامَهُم. وعَانَدَهُمُ المُكَذِّبُونَ، ونَالُوا مِنهُم، وأَتعَبُوهُم. ومَعَ ذَلِكَ صَبَرُوا عَلَى لَئْوَاءِ ذَلِكَ مِن أَجلِ أَن يُوَصِّلُوا ذَلِكَ الدِّينَ إِلَيكَ، مِن أَجلِ أَن يَحفَظُوا عَلَيكَ سُبُلَ حِيَاطَتِكَ وسُبُلَ رِعَايَتِكَ، يَنبَغِي عَلَيكَ أَن تُحِبَّهُم؛ لِأَنَّهُم قَامُوا بِالوَاجِبِ عَلَيهِم تِجَاهَكَ، وقَبلَ ذَلِكَ قَامُوا بِالوَاجِبِ عَلَيهِم تُجَاهَ

رَبِّهِم تَبَارَكَ وتَعَالَى **"وبَلَّغُوا رِسَالَتَهُ ونَصَحُوا لِعِبَادِهِ."** وقَد كَذَّبَهُمُ المُعَانِدُونَ، **"كَذَّبَ المُعَانِدُونَ رُسُلَهُم زَاعِمِينَ أَنَّ رُسُلَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَكُونُونَ مِنَ البَشَرِ، وقَد ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الزَّعمَ وأَبطَلَهُ بِقَولِهِ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥)﴾[الإسراء: ٩٤-٩٥]."** بَشَرٌ يَنزِلُ إِلَيهِم، بَشَرٌ حَتَّى تُصبِحَ الحُجَّةُ قَائِمَةً، أَنتُم بَشَرٌ ونَحنُ بَشَرٌ، ومَا نَأمُرُكُم بِهِ يَلزَمُنَا كَمَا يَلزَمُكُم، ومَا نَنهَاكُم عَنهُ نَترُكُهُ كَمَا يَلزَمُكُم أَن تَترُكُوهُ. وأَمَا إِذَا كَانَ المُنزَّلُ مِن قِبَلِ اللَّهِ مَلَكٌ فَستَكُونُ الحُجَّةُ كَيفَ تَأمُرُنَا بِمَا تَقدِرُ عَلَيهِ ولَا نَقدِرُ عَلَيهِ، وبِمَا يَسهُلُ عَلَيكَ ويَصعُبُ عَلَينَا. **"فَأَبطَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الزَّعمَ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَن يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا لِأَنَّهُ مُرسَلٌ إِلَى أَهلِ الأَرضِ وهُم بَشَرٌ ولَو كَانَ أَهلُ الأَرضِ مَلَائِكَةً لَنَزَّلَ اللَّهُ عَلَيهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا لِيَكُونَ مِثلَهُم، وهَكَذَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ المُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ أَنَّهُم قَالُوا: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ**

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾ [ابراهيم : ١٠-١١]".

الإيمَانُ بالرُّسُلِ يُشكِلُ عَلَى المَرأَةِ فِي حِلٍّ مِن عَقلِهِ ورَأيِهِ وفِكرِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى أَرسَلَ لَكَ الرَّسُولَ بِالهُدى إِلَى الحَقِّ، والصِّرَاطِ إِلَى الصِّدقِ، وجَعَلَ أَمرَكَ كُلَّهُ ظَاهِرًا فِي حَرَكَةِ حَيَاةِ مَن أَرسَلَهُ إِلَيكَ، فَمَا مِن أَمرٍ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ إِلَّا وقَد أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ والرَّسُولُ فَفَعَلَهُ، ومَا مِن نَهيٍ نَهَى اللَّهُ عَنهُ إِلَّا وقَد نُهِيَ عَنهُ النَّبِيُّ أَوِ الرَّسُولُ فَاجتَنَبَهُ. فَصَارَت حَيَاتُهُم مِثَالًا لِمَن أَرَادَ الحَيَاةَ، صَارَت حَيَاتُهُم نَمُوذَجًا لِمَن أَرَادَ الدِّينَ الرَّشِيدَ، والهَدْيَ القَوِيمَ.

لِذَا يَنبَغِي عَلَى المَرءِ أَن يَنظُرَ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ لِيَعرِفَ كَيفَ كَانَ يَعبُدُ رَبَّهُ، كَيفَ كَانَ يُعَامِلُ زَوجَهُ، كَيفَ كَانَ يَبِيعُ، كَيفَ كَانَ يَشتَرِي، كَيفَ كَانَ يُحِبُّ كَيفَ، كَانَ يُبغِضُ، كَيفَ كَانَ يُعطِي، كَيفَ كَانَ يَمنَعُ، كَيفَ كَانَ يُدِيرُ حَرَكَةَ حَيَاتِهِ فِي حَيَاتِهِ الدُّنيَاوِيَّةِ والأُخرَوِيَّةِ. سِيرَةُ الرُسُلِ مَعِينٌ لَا يَنضَبُ وزَادٌ لَا يَفرُغُ ونِبرَاسٌ لَا يَنثَنِي لِمَن أَرَادَ أَن يَسِيرَ عَلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيمِ.

مَا أَحْوَجَ النَّاسَ إِلَى أَنْ يُؤْمِنُوا أَنَّ الْحَيَاةَ فَانِيَةٌ وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ الْبَاقِيَةُ وَأَنَّ الْحَيَاةَ الْحَقَّة لَيْسَتْ فِي تِلْكَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ، وَإِنَّمَا الْحَيَاةَ الْحَقَّ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ

خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩)} [الأعلى : ١٦-١٩]

فَأَنْبِيَاءُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُصْلِحُوا أَدْيَانَ النَّاسِ فِي دُنْيَا اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِيَؤُلَ الْأَمْرُ فِي الْمُنْتَهَى إِلَى جَنَّةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ حِينَ صَعِدَ عَلَى جَبَلِ الصَّفَا وَنَادَى عَلَى النَّاسِ فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَقَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ أَلِيمٍ، أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ بَشِيراً وَنَذِيراً بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ أَلِيمٍ، وَاللَّهِ لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ، وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ، وَلَتُجْزَوْنَ عَنِ الْإِحْسَانِ إِحْسَانًا، وَعَنِ السُّوءِ سُوءًا وَإِنَّهَا لَجَنَّةٌ أَبَدًا أَوْ نَارٌ أَبَدًا."

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ: بَيَّنَ أَنَّ الْأَمْرَ فِي الْمُنْتَهَى إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ، وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ: "الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ."

فَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَمَنْ لَمْ يُحَقِّقِ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَيْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَا هُوَ الْيَوْمُ الْآخِرُ؟ الْيَوْمُ الْآخِرُ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي يُبْعَثُ فِيهِ النَّاسُ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَسَارِهِ.

"الْيَوْمُ الْآخِرُ": هُوَ يَوْمُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ **"وَيَوْمُ الْقِيَامَةِ يُبْعَثُ النَّاسُ فِيهِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يَوْمَ بَعْدَهُ حَيْثُ يَسْتَقِرُّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مَنَازِلِهِمْ وَيَسْتَقِرُّ أَهْلُ النَّارِ فِي مَنَازِلِهِمْ"** وَشَتَّانَ بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ مَنْزِلَةِ هَنَاءٍ وَسُرُورٍ، وَمَنْزِلَةِ تَعَاسَةٍ وَحُبُورٍ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَضَمَّنُ أُمُورًا ثَلَاثَةً:**

- **الأولُ: الْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ وَهُوَ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى حِينَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ فَيَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً غَيْرَ مُنْتَعِلِينَ، عُرَاةً غَيْرَ مُسْتَتِرِينَ، غُرْلًا غَيْرَ مُخْتَتِنِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]"**

فَهَذَا أَمْرٌ لَا يَشُقُّ عَلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَا يَمَسُّهُ فِيهِ نَصَبٌ وَلَا لَغْوٌ فَأَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. **"وَالْبَعْثُ حَقٌّ ثَابِتٌ دَلَّنَا عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾.[المؤمنون:١٥-١٦]. وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً غُرْلًا ."** حُفَاةً غَيْرَ مُنْتَعِلِينَ، غُرْلًا غَيْرَ مُخْتَتِنِينَ. وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى ثُبُوتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ، **"وَهُوَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ حَيْثُ تَقْتَضِي الْحِكْمَةُ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِهَذِهِ الْخَلِيقَةِ مَعَادًا يُجَازِيهِمْ فِيهِ عَلَى مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ"** لِأَنَّ اللَّهَ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ هَمَلًا وَلَنْ يَتْرُكَهُمْ سُدًى، لَمْ يَخْلُقْهُمْ هَمَلًا بِلَا عَمَلٍ وَلَا تَكْلِيفٍ وَلَنْ يَتْرُكَهُمْ سُدًى بِلَا حِسَابٍ وَجَزَاءٍ وَعِقَابٍ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧)﴾ [المؤمنون : ١١٥-١١٧]. فَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ هَمَلًا وَلَمْ يَتْرُكْهُمْ سُدًى. **"وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ ﴾.[القصص: ٨٥]** يَقُولُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ وَأَمَرَكَ بِتَبْلِيغِهِ وَأَمَرَكَ بِالْعَمَلِ بِهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، **{لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ}** أَيْ إِلَى مَعَادٍ فِي الْآخِرَةِ.

- الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: **"الْإِيمَانُ بِالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ. يُحَاسَبُ الْعَبْدُ عَلَى عَمَلِهِ وَيُجَازَى عَلَيْهِ، وَقَدْ دَلَّ ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (٢٦)﴾.** فَإِيَابُهُمْ إِلَى اللَّهِ وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ، وَحِينَ يَأْتُونَ إِلَى اللَّهِ، وَحِينَ يُحَاسَبُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ﴾. [الأنعام : ١٦٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾. [الأنبياء : ٤٧].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ إِي رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ." وَالْحَدِيثُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَظَالِمِ فِي بَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[هود: ١٨]، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ التَّوْبَةِ فِي بَابِ قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ وَإِنْ كَثُرَ قَتْلُهُ. **"وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "أَنَّ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً." وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِثْبَاتِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ، وَهُوَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ. وَالْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ وَهُوَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ وَفَرَضَ عَلَى الْعِبَادِ قَبُولَ مَا**

جَاءُوا بِهِ وَالْعَمَلَ بِمَا يَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ مِنْهُ وَأَوْجَبَ قِتَالَ الْمُعَارِضِينَ لَهُ وَأَحَلَّ دِمَاءَهُمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَنِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ حِسَابٌ وَلَا جَزَاءٌ لَكَانَ هَذَا مِنَ الْعَبَثِ الَّذِي يُنَزَّهُ الرَّبُّ الْحَكِيمُ عَنْهُ وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧)}

[الأعراف : ٦-٧]

فالْحِسَابَ الْحِسَابَ عِبَادَ اللَّهِ الْحِسَابَ أَمْرُهُ شَدِيدٌ وَرُكْنُهُ كَبِيرٌ. الْحِسَابَ يَشْمَلُ الصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ وَيَشْمَلُ الْفَتِيلَ وَالنَّقِيرَ وَيَشْمَلُ الْيَسِيرَ وَالْعَسِيرَ.

إِذًا يَنْبَغِي عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ وَأَنْ يَنْظُرَ فِي عَمَلِهِ قَبْلَ أَنْ يُنْظَرَ فِيهِ.

- الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ **"الْإِيمَانُ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَأَنَّهُمَا الْمَآلُ الْأَبَدِيُّ لِلْخَلْقِ فِي دَارِ النَّعِيمِ أَوْ دَارِ الْجَحِيمِ، فَالْجَنَّةُ دَارُ النَّعِيمِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَقَامُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُخْلِصِينَ لَهُ مُتَّبِعِينَ لِرَسُولِهِ"** وَفِي الْجَنَّةِ **"مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"** فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ

رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي كِتَابِهِ **"قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾ [البينة:٧-٨]. **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] **وَأَمَّا النَّارُ فَهِيَ دَارُ الْعَذَابِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ وَعَصَوْا رُسُلَهُ فِيهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْعَقْلِ وَلَا الْبَالِ. قَالَ تَعَالَى مُحَذِّرًا عِبَادَهُ أَنْ يَكُونُوا أَهْلًا لِدُخُولِ النَّارِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ:** ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٣١] **وَقَالَ سُبْحَانَهُ:** ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] وَقَالَ تَعَالَى: {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦)} [الأحزاب٦٤-٦٦]" فَيا عَبْدَ اللَّهِ اجْتَهِدْ أَنْ لَا تَكُونَ فِي هَذِهِ الزُّمْرَةِ الَّتِي تَنْدَمُ وَلَاتَ حِينَ مَنْدَمٍ وَتَتوبُ حِينَ لَا تَنْفَعُ التَّوْبَةُ، وَتَوبُ حِينَ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ تَوْبَةٌ وَلَا أَوْبَةٌ.

"وَيَلْتَحِقُ بِالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ كَفِتْنَةِ الْقَبْرِ" وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"فَفِتْنَةُ الْقَبْرِ هِيَ سُؤَالُ الْمَيِّتِ بَعْدَ دَفْنِهِ يُسْأَلُ عَنْ رَبِّهِ، وَيُسْأَلُ عَنْ دِينِهِ، وَيُسْأَلُ عَنْ نَبِيِّهِ، فَيُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ حِينَ يُسْأَلُ عَنْ رَبِّهِ رَبِّيَ اللَّهُ وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ."

وَلَكِنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ رَبَّهُ وَلَمْ يَعْرِفْ نَبِيَّهُ وَلَمْ يَعْرِفْ دِينَهُ كَيْفَ يُجِيبُ عَلَى هَذِهِ الْأَسْئِلَةِ وَهُوَ الَّذِي كَانَ بِهَا غَيْرَ عَالِمٍ فَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ: **"فَيَقُولُ الْكَافِرُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي وَيَقُولُ الْمُنَافِقُ أَوِ الْمُرْتَابُ لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ".**

وَأَمَّا **"عَذَابُ الْقَبْرِ وَنَعِيمُهُ فَيَكُونُ الْعَذَابُ لِلظَّالِمِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٩٣] **وَقَالَ تَعَالَى:** ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ فِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ." ثُمَّ أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ." فَقَالُوا: "نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ." فَقَالَ: "تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ."فَقَالُوا: "نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ." فَقَالَ: "تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ." فَقَالُوا: "نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ." قَالَ: "تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ." قَالُوا: "نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ." فَقَدْ أَمَرَهُم النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّعَوُّذِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ؛ لِأَنَّهَا كَائِنَةٌ لَا مَحَالَةَ.

"وَأَمَّا نَعِيمُ الْقَبْرِ فَلِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت : ٣٠]. وَقَالَ تَعَالَى:{فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩)} [الواقعة : ٨٣-٨٩]"

وَقَدْ جَاءَ فِي السُّنَّةِ فِي حَدِيثِ "الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الْمُؤْمِنِ: "إِذَا أَجَابَ الْمَلَكَيْنِ فِي قَبْرِهِ يُنَادِي

مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَافْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ." قَالَ: "فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ". فَاللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ يَا رَبِّ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يُنَادَى عَلَيْهِمْ حِينَ يَدْخُلُونَ إِلَى قُبُورِهِمْ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي. **"رَوَى الْحَدِيثَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَأَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ".**

"لِلْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ:

- **الرَّغْبَةُ فِي فِعْلِ الطَّاعَاتِ وَالْحِرْصِ عَلَيْهَا رجاءً أَنَّ ثَوَابَ ذَلِكَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.**
- **الثانية: الرَّهْبَةُ عِنْدَ فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ وَالرِّضَا بِهَا خَوْفًا مِنْ عِقَابِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.**
- **الثالثة: تَسْلِيَةُ الْمُؤْمِنِ عَمَّا يَفُوتُهُ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا يَرْجُوهُ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ وَثَوَابِهِ."**

"وَقَدْ أَنْكَرَ الْكَافِرُونَ الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ زَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ دَلَّ عَلَى بُطْلَانِهِ الشَّرْعُ وَالْحِسُّ وَالْعَقْلُ. فَأَمَّا دَلَالَةُ الشَّرْعِ عَلَى أَنَّ هَذَا الزَّعْمَ بَاطِلٌ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧] وَقَدِ اتَّفَقَتْ جَمِيعُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ عليه" أي عَلَى الْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا يَكُونُ بَعْدَهُ مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ.

"وَأَمَّا الْحِسُّ فَقَدْ أَرَى اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عِبَادَهُ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي سُورَةِ البقرة خَمْسَةُ أَمْثِلَةٍ عَلَى ذَلِكَ" جَعَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِحْيَاءَ الْمَوْتَى آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ حَدَثَتْ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ وَتُلِيَتْ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ بَقِيَّةٌ مِنْ تِلْكَ الْأُمَمِ الْمُتَمَثِّلَةِ فِي أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَرُهْبَانِ النَّصَارَى:

"الْمِثَالُ الْأَوَّلُ: قَوْمُ مُوسَى حِينَ قَالُوا لَهُ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَمَاتَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ أَحْيَاهُمْ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى مُخَاطِبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة:٥٥-٥٦]". فَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كَائِنًا لَدَفَعَهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَقَالُوا لَمْ يَحْدُثْ مِثْلُ ذَلِكَ وَلَكِنَّهُ حَدَثَ وَأَقَرُّوا بِهِ وَأَذْعَنُوا لَهُ وَلَمْ يُعَارِضُوهُ.

"الْمِثَالُ الثَّانِي: فِي قِصَّةِ الْقَتِيلِ الَّذِي اخْتَصَمَ فِيهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَذْبَحُوا بَقَرَةً فَيَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا يُخْبِرُهُمْ بِمَنْ قَتَلَهُ وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)﴾ [البقرة:٧٢-٧٣]." وَهَذَا أَيْضًا عَايَنَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَتَرَكُوا قَصَصَهُ لِلْآخَرِينَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَانِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ أَنْ يُكَذِّبُوهُ أَوْ يُعَارِضُوهُ فَثَبَتَ ذَلِكَ بِالْمِثَالِ الْوَاقِعِيِّ الْمُشَاهَدِ الْمُقَرَّرِ أَنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَحْيَا الْمَوْتَى بَيْنَ أَيْدِي النَّاسِ.

"الْمِثَالُ الثَّالِثُ: فِي قِصَّةِ الْقَوْمِ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فِرَارًا مِنَ الْمَوْتِ وَهُمْ أُلُوفٌ مُؤَلَّفَةٌ فَأَمَاتَهُمُ اللَّهُ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٣]" وَقُرِنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ عَلَى قَسَاوِسَةِ النَّصَارَى وَرُهْبَانِ الْيَهُودِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَدْفَعَهَا وَأَنْ يُكَذِّبَهَا وَأَنْ يَنْفِيَهَا وَأَنْ يُعَارِضَهَا.

"الْمِثَالُ الرَّابِعُ فِي قِصَّةِ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ مَيِّتَةٍ فاسْتَبْعَدَ أَنْ يُحْيِيَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ سَنَةٍ ثُمَّ أَحْيَاهُ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]" وهُو مِن بَني إسرائيل وهم يعرفونَه ويَعرفونَ قصتَه.

"الْمِثَالُ الْخَامِسُ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ حِينَ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُرِيَهُ كَيْفَ يُحْيِي الْمَوْتَى فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَذْبَحَ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ وَأَنْ يُفَرِّقَهُنَّ

أَجْزَاءً عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي حَوْلَهُ، ثُمَّ يُنَادِيهِنَّ فَتَلْتَئِمُ الْأَجْزَاءُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَيَأْتِينَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ سَعْيًا." أَلَيْسَتْ هَذِهِ آيَةً بَيِّنَةً وَاضِحَةً لَائِحَةً عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى **"وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]**

"فَهَذِهِ أَمْثِلَةٌ حِسِّيَّةٌ وَاقِعِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى إِمْكَانِيَّةِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى" وَقَدْ رُوِيَتْ وَقُرِئَتْ وَتُلِيَتْ فِي وُجُودِ قَسَاوِسَةِ النَصَارَى وَرُهْبَانِ الْيَهُودِ فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهَا تَكْذِيبًا وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهَا مُعَارَضَةً وَأَقَرُّوا بِهَا إِقْرَارًا.

"وَقَدْ ثَبَتَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ آيَاتِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى" فَهَذَا مِنَ الْحِسِّ الْمُشَاهَدِ الَّذِي لَا يُعَارِضُ بِعَقْلٍ وَلَا بِذَوْقٍ.

"وَأَمَّا دَلَالَةُ الْعَقْلِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى الْبَعْثِ فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

- **الْوَجْهُ الْأَوَّلُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"** أَيْ خَالِقُهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ فَهُوَ **"فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا خَالِقُهُمَا ابْتِدَاءً، وَالْقَادِرُ عَلَى ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ لَا يَعْجِزُ عَنْ إِعَادَتِهِ."**

فَمَنْ بَنَى بِنَاءً وَهَدَمَ ذَلِكَ الْبِنَاءَ فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.[سورة الروم: ٢٧] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.[الأنبياء: ١٠٤] وَقَالَ آمِرًا بِالرَّدِّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ إِحْيَاءَ الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ قَالَ سُبْحَانَهُ:﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]

- الدَّلَالَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ دَلَالَاتِ الْعَقْلِ: **"أَنَّ الْأَرْضَ تَكُونُ مَيِّتَةً هَامِدَةً لَيْسَ فِيهَا شَجَرَةٌ خَضْرَاءُ فَيُنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْهَا الْمَطَرَ فَتَهْتَزُّ خَضْرَاءَ حَيَّةً مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"** فَمَنِ الَّذِي أَحْيَاهَا؟ وَمَنِ الَّذِي أَنْبَتَهَا؟ وَمَنِ الَّذِي مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْعَالَمِ أَخْرَجَهَا؟ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ **"الْقَادِرُ عَلَى إِحْيَائِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا."** فَالَّذِي أَحْيَاهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ لَهَا حَيَاةٌ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَهَا بَعْدَ الْمَوْتِ. **"قَالَ تَعَالَى:** ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩] وَقَالَ تَعَالَى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)} [ق : ٩-١١]"

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ فَأَنْكَرُوا عَذَابَ الْقَبْرِ وَنَعِيمَهُ زَاعِمِينَ أَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ لِمُخَالَفَةِ الْوَاقِعِ. فَقَالُوا إِنَّهُ لَوْ كُشِفَ عَنِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ لَوُجِدَ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ وَالْقَبْرُ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِسِعَةٍ وَلَا بِضِيقٍ.**

وَهَذَا الزَّعْمُ بَاطِلٌ بِالشَّرْعِ وَالْحِسِّ وَالْعَقْلِ:

وَأَمَّا دَلَالَةُ الشَّرْعِ عَلَى بُطْلَانِ ذَلِكَ الزَّعْمِ فَقَدْ سَبَقَتِ النُّصُوصُ الدَّالَّةُ عَلَى ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ مِمَّا يَلْتَحِقُ بِالْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ. فَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَعْضِ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فَسَمِعَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا" وَذَكَرَ الْحَدِيثَ وَفِيهِ **"إِنَّ أَحَدَهُمَا كَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ"** وَفِي رِوَايَةٍ **"كَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ وَأَنَّ الْآخَرَ كَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ."** فَقَدْ أَثْبَتَ الشَّرْعُ عَذَابَ الْقَبْرِ وَأَنَّ أَهْلَ الْقَبْرِ يُعَذَّبُونَ.

"وَأَمَّا الْحِسُّ فَإِنَّ النَّائِمَ يَرَى فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ فَسِيحٍ بَهِيجٍ يَتَنَعَّمُ فِيهِ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ مُوحِشٍ يَتَأَلَّمُ مِنْهُ، وَرُبَّمَا اسْتَيْقَظَ أَحْيَانًا مِمَّا رَأَى" مِنْ فَزَعِ الَّذِي رَآهُ حَالَ نَوْمِه مع أَنَّهُ كَانَ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَلَا يَرَى شَيْئًا وَلَا يَتَحَرَّكُ وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ كَائِنًا مَعَهُ، **"وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ فِي حُجْرَتِهِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ."** وَقِيَاسًا **"فَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَفَاةً. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ**

الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.[الزمر: ٤٢]" فَهَذِهِ دَلَالَةُ الْحِسِّ يُحِسُّهَا النَّائِمُ بِمَا يَرَاهُ مِنْ نَعِيمٍ فِي رُؤْيَاهُ، وَبِمَا يَتَمَزَّقُ بِهِ مَزَقًا مِنْ رُؤْيَاهُ. وَهَذَا كُلُّهُ يَشْعُرُ بِهِ كُلُّ إِنْسَانٍ.

"وَأَمَّا الْعَقْلُ فَإِنَّ النَّائِمَ فِي مَنَامِهِ يَرَى الرُّؤْيَا الْحَقَّ الْمُطَابِقَةَ لِلْوَاقِعِ وَرُبَّمَا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى صِفَتِهِ وَمَنْ رَآهُ عَلَى صِفَتِهِ فَقَدْ رَآهُ حَقًّا، وَمَعَ ذَلِكَ فَالنَّائِمُ فِي حُجْرَاتِهِ عَلَى فِرَاشِهِ بَعِيدًا عَمَّا رَآهُ فَإِنْ كَانَ هَذَا مُمْكِنًا فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا أَفَلَا يَكُونُ مُمْكِنًا فِي أَحْوَالِ الْآخِرَةِ. وَأَمَّا اعْتِمَادُهُمْ فِيمَا زَعَمُوا عَلَى أَنَّهُ لَوْ كُشِفَ عَنِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ لَوُجِدَ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ وَالْقَبْرُ لَمْ يَتَغَيَّرْ بِسِعَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَجَوَابُهُ مِنْ وُجُوهٍ:

- **الْوَجْهُ الْأَوَّلُ أَنَّهُ لَا تَجُوزُ مُعَارَضَةُ مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ بِمِثْلِ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ الدَّاحِضَةِ الَّتِي لَوْ تَأَمَّلَ الْمُعَارِضُ بِهَا مَا جَاءَ بِهَا الشَّرْعُ حَقَّ التَّأَمُّلِ لَعَلِمَ بُطْلَانَ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ وَقَدْ قِيلَ: "وَكَمْ مِنْ عَائبٍ قَوْلاً صَحِيحاً وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ."**
- **الْوَجْهُ الثَّانِي: "أَنَّ أَحْوَالَ الْبَرْزَخِ من أُمُورِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا يُدْرِكُهَا الْحِسُّ وَلَوْ كَانَتْ تُدْرَكُ بِالْحِسِّ لَفَاتَتْ فَائِدَةُ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ وَلَتَسَاوَى الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالْجَاحِدُونَ فِي التَّصْدِيقِ.**
- **الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ الْعَذَابَ وَالنَّعِيمَ وَسِعَةَ الْقَبْرِ وَضِيقَهُ إِنَّمَا يُدْرِكُهُ الْمَيِّتُ دُونَ غَيْرِهِ وَهَذَا كَمَا يَرَى النَّائِمُ فِي مَنَامِهِ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَانٍ**

ضَيِّقٍ مُوحِشٍ، أَوْ فِي مَكَانٍ وَاسِعٍ بَهِيجٍ وَهُوَ بِالنِّسْبَةِ لِغَيْرِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ مَنَامُهُ فَهُوَ فِي حُجْرَتِهِ وَبَيْنَ فِرَاشِهِ وَغِطَائِهِ، وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوحَى إِلَيْهِ وَهُوَ بَيْنَ أَصْحَابِهِ فَيَسْمَعُ الْوَحْيَ وَلَا يَسْمَعُه الصَّحَابَةُ" وَعَذَابُ الْقَبْرِ غَيْبِيٌّ لَا يَخْضَعُ لِلْجَوَارِحِ وَلَا لِلْحَوَاسِّ الْمَادِّيَّةِ فَالْقَبْرُ قَانُونٌ وَلِلْحَيَاةِ قَانُونٌ.

- الْوَجْهُ الرَّابِعُ: "أَنَّ إِدْرَاكَ الْخَلْقِ مَحْدُودٌ بِمَا مَكَّنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ إِدْرَاكِهِ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُدْرِكُوا كُلَّ مَوْجُودٍ فَالسَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَكُلُّ شَيْءٍ يُسَبِّحُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَسْبِيحًا حَقِيقِيًّا يُسْمِعُهُ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ خَلْقِهِ أَحْيَانًا وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ مَحْجُوبٌ عَنا وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾.[الإسراء: ٤٤]. وَهَكَذَا الشَّيَاطِينُ وَالْجِنُّ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ ذَهَابًا وَإِيَابًا، وَقَدْ حَضَرَتِ الْجِنُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَمَعُوا لِقِرَاءَتِهِ وَأَنْصَتُوا وَوَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ مَحْجُوبُونَ عَنْهُ وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.[الأعراف: ٢٧]. وَإِذَا

كَانَ الْخَلْقُ لَا يُدْرِكُونَ كُلَّ مَوْجُودٍ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُنْكِرُوا مَا ثَبَتَ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ وَلَمْ يُدْرِكُوهُ" حِينَ نَنْظُرُ فِي أَمْرِ هَذَا الْأَمْرِ يَكُونُ بَيْنَنَا جَمِيعًا وَمَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ الْوَلَدِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فَهُوَ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ يَحْكُمُهُ قَانُونُ الْبَطْنِ هَذَا الْقَانُونُ يَخْتَلِفُ عَنْ قَانُونِ الْحَيَاةِ بَعْدَ الْوِلَادَةِ فَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فِي ذَلِكَ السَّائِلِ الَّذِي يُحِيطُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ أَجْزَائِهِ فَيُغَطِّي أَنْفَهُ وَعَيْنَهُ وَأُذُنَهُ وَمَعَ ذَلِكَ لَهُ حَيَاةٌ، لَهُ حَيَاةٌ كَامِلَةٌ فِي رَحْمِ أُمِّهِ لَا يَأْكُلُ بِأَسْنَانِهِ وَلَا يَشْرَبُ بِفَمِهِ وَلَا يَسْمَعُ بِأُذُنِهِ وَلَا يَرَى بِعَيْنِهِ وَلَكِن لهُ حَياة، فإِذَا مَا نَزَلَ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعُودَ إِلَى ذَلِكَ الْقَانُونِ أَوْ أَنْ يُعَايِشَهُ أَوْ أَنْ يُعَايِنَهُ وَلَوْ عَادَ إِلَيْهِ لَفَقَدَ رُوحَهُ بَعْدَ دَقَائِقَ مَعْدُودَاتٍ، فهَذَا قَبْرٌ بَيْنَ أَيْدِينَا وَهُوَ بَطْنُ الْأُمِّ وَهَذِهِ الْحَيَاةُ بَيْنَ أَيْدِينَا وَهِيَ مَا يَكُونُ بَعْدَ الْمِيلَادِ. فإِذَا نَظَرْتَ وَجَدْتَ أَنَّ لِلرَّحِمِ قَانُونًا وَلِلْحَيَاةِ قَانُونًا وَهُمَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَلَا يَعْلَمُ كُنْهَ ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ

بَعْدَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ تَأْتِي مَرْتَبَةُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ. الْإِيمَانُ مَرَاتِبُ سِتٌّ:

الْإِيمَانِ بِاللَّهِ، مَرْتَبَةُ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ، مَرْتَبَةُ الْإِيمَانِ بِالْكُتُبِ، مَرْتَبَةُ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ، مَرْتَبَةُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، مَرْتَبَةُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

وَالْمُؤْمِنُ يُؤْمِنُ بِالْإِيمَانِ كُلِّهِ لَا يُبَعِّضُهُ وَلَا يُجَزِّئُهُ وَلَا يَرْضَى بِبَعْضِهِ وَيسخطَ بَعْضَه، بَلْ يَنْزِلُ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[البقرة: ٢٠٨] فَيَأْخُذُ الْإِسْلَامَ كُلَّهُ.

فَمَا هُوَ الْقَدَرُ؟ **"الْقَدَرُ بِفَتْحِ الدَّالِ "تَقْدِيرُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَائِنَاتِ حَسَبَ مَا سَبَقَ عِلْمُهُ وَاقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ." وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ يَتَضَمَّنُ أَرْبَعَةَ أُمُورٍ:**

- **الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ بِكُلِّ شَيْءٍ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا أَزَلًا وَأَبَدًا سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا يتَعَلَّقُ بِأَفْعَالِهِ أَوْ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ.**
- الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ: **"الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ كتب ذَلِكَ الْعِلْمَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَفِيهَا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.[الحج: ٧٠]"** اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ، يَعْلَمَ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ خُلُقِهِ، وَيَعْلَمُ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ فَكَتَبَ اَللَّهُ رَبُّ اَلْعَالَمَيْنِ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي كِتَابِهِ، **"وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اَللَّهْ بْنْ عَمْرُو بْنْ اَلْعَاصْ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعَتْ رَسُولَ اَللَّهِ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " كَتَبَ اَللَّهُ مَقَادِيرَ اَلْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اَلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَخَمْسِيْنْ أَلفَ سَنَةً "**
- الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ: **"الْإِيمَانُ بِأَنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى سَوَاءٌ كَانَتْ مِمَّا يتَعَلَّقُ بِفِعْلِهِ**

أَوْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ الْمَخْلُوقِينَ. قَالَ تَعَالَى فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِهِ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص : ٦٨]. وقَالَ تَعَالَى: {وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [ابراهيم : ٢٧]. وقَالَ تَعَالَى:{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ} [آل عمران : ٦]. وقَالَ تَعَالَى فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ المخلوقين: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ } [النساء : ٩٠]. وقَالَ تَعَالَى:{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [الأنعام : ١١٢]"

- الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ: "الْإِيمَانُ بِأَنَّ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى بِذَوَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَحَرَكَاتِهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾. [الزمر : ٦٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.[الفرقان: ٢]. وَقَالَ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾. [الصافات: ٩٦]

"الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ وَكِتَابَتِهِ، وَمَشِيئَتِهِ، وَخَلْقِهِ لَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ لِلْعَبْدِ مَشِيئَةٌ فِي أَفْعَالِهِ الاخْتِيَارِيّة، وَقُدْرَةٌ عَلَيْها لِأَنَّ الشَّرْعَ وَالْوَاقِعَ دَالَّانِ عَلَى إِثْبَاتِ ذَلِكَ." كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَتَوَرَّطُ بِعَقْلِهِ بِأَنْ يَنْقُلَ إِلَى الْقَدَرِ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ لَازِمٌ لَا انْفِكَاكَ لَهُ مِنْهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ

كَتَبَ عَلَيْهِ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ غَفْلَةٍ وَعَجْزٍ وَكَسَلٍ، فَيَتَمَادَى فِي ذَلِكَ كُلِّهِ زَاعِمًا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَوْ أَرَادَ أَقَامَهُ مِنْ عَجْزِهِ وَغَفْلَتِهِ وَهَذَا مَرْدُودٌ.

"فَأَمَّا مِنَ الشَّرْعِ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمَشِيئَةِ: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبإ : ٣٩]." فَرَدَّ الْمَرْءَ إِلَى مَشِيئَتِهِ أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَتَّخِذْ مَآبًا لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ وَلَمْ يَسْعَ إِلَيْهِ. **"وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾[سورة البقرة: ٢٢٣]"** فَبَيَّنَ أَنَّ لِلْمَرْءِ مَشِيئَةً فِي فِعْلِهِ فِي أُمُورِ دُنْيَاهُ فَمِنْ بَابِ أَوْلَى أَنْ تَكُونَ لَهُ مَشِيئَةٌ فِي أُمُورٍ أُخْرَاه. **"وَقَالَ تَعَالَى فِي الْقُدْرَةِ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[التغابن: ١٦]"** فَلَكَ قُدْرَةٌ تَأْتِي بِهَا مَا تَسْتَطِيعُ، عَلَى حَسَبِ مَا تَسْتَطِيعُ. وَفِي ذَلِكَ يقوْلُ اللَّهُ: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.[البقرة: ٢٨٦]**

"وَأَمَّا الْوَاقِعُ: فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ أَنَّ لَهُ مَشِيئَةً وَقُدْرَةً يَفْعَلُ بِهِمَا وَيَتْرُكُ بِهِمَا، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ مَا يَقَعُ بِإِرَادَتِهِ كَالْمَشْيِ، وَمَا يَقَعُ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ كَالِارْتِعَاشِ. لَكِنَّ مَشِيئَةَ الْعَبْدِ وَقُدْرَتَهُ وَاقِعَانِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩)} [التكوير : ٢٨-٢٩]." فَطَاعَتُكَ إِنْ أَرَدْتَ وَفَّقَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَى فِعْلِهِ وَمَعْصِيَتُكَ إِنْ أَرَدْتَ أَذِنَ اللَّهُ لَكَ أَنْ تَقُومَ بِهَا لا يُمْكِنُكَ أَنْ تَأْتِيَ الطَّاعَةَ وَلَا أَنْ تَتَجَرَّأَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ إِلَّا بِإِذْنِه الْقَدَرِيّ فَيأَذَنُ لَكَ وَهُوَ رَاضٍ، وَيَأْذَنُ لَكَ وَهُوَ غَيْرُ رَاضٍ.

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى مَا وَصَفْنَا لَا يَمْنَحُ الْعَبْدَ حُجَّةً عَلَى مَا تَرَكَ مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَوْ فَعَلَ مِنَ الْمَعَاصِي. وَعَلَى هَذَا فَاحْتِجَاجُ"** مَنِ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى فِعْلِهِ **"بَاطِلٌ مِنْ وجُوهٍ:**

- الْوَجْهُ الْأَوَّلُ أَنَّ أَهْلَ الْكُفْرِ كَانُوا يَرْكَنُونَ إِلَى نُفُوسِهِمْ وَيَنْتَظِرُونَ أَنْ تُحَرِّكَهُمْ نُفُوسُهُمْ **"فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]** فَرَدُّوا شِرْكَهُمْ وَرَدُّوا عَجْزَهُمْ وَرَدُّوا تَقْصِيرَهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ نَبِيِّهِ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِدْ ذَلِكَ وَلَمْ يَأْذَنْ بِهِ فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ إِيتُونَا بِأَنَّ اللَّهَ أَرَادَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ رَضِيَ بِذَلِكَ عَنْكُمْ بَلْ لَمْ يُرِدْ ذَلِكَ وَلَمْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾.[الأنعام: ١٤٨] **"وَلَوْ كَانَ لَهُمْ حُجَّةٌ بِالْقَدَرِ مَا أَذَاقَهُمُ اللَّهُ بَأْسَهُ"** عَلَى يَدِ نَبِيِّهِ حَرْبًا وَقِتَالًا، وَفِي النَّارِ عَذَابًا وَنَكَالًا.
- الْوَجْهُ الثَّانِي عَلَى بُطْلَانِ مَنِ احْتَجَّ بِقَدَرِ اللَّهِ عَلَى تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ أَوْ فِعْلِ الْمُحَرَّمَاتِ **"قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]. وَلَوْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لِلْمُخَالِفِينَ لَمْ تَنْتَفِ بِإِرْسَالِ**

الرُّسُلِ لِأَنَّ الْمُخَالَفَةَ بَعْدَ إِرْسَالِهِمْ وَاقِعَةٌ بِقَدَرِ اللَّهِ" وَلَكِنْ بِالْقَدَرِ الْكَوْنِيِّ لَا بِالْقَدَرِ الشَّرْعِيِّ.

- الْوَجْهُ الثَّالِثُ مِنْ وُجُوهِ بُطْلَانِ مَنْ قَصَّرَ فِي أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ أَوْ تَجَرَّأَ عَلَى فِعْلِ الْمَعَاصِي بِدَعْوَى أَنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَمْ يُرِدْ ذَلِكَ: **"مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ أَوْ مِنَ الْجَنَّةِ." فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَفَلَا نَتَّكِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "لَا اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ." ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾[الليل: ٥] وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: "فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ." فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَمَلِ وَنَهَى عَنِ الِاتِّكَالِ عَلَى الْقَدَرِ."**

- الْوَجْهُ الرَّابِعُ مِنْ وُجُوهِ بُطْلَانِ مَنِ ادَّعَى أَنَّ تَرْكَهُ لِلْوَاجِبَاتِ وَفِعْلَهُ لِلْمُحَرَّمَاتِ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَصَرَفَهُ عَنْ ذَلِكَ: **"أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ الْعَبْدَ وَنَهَاهُ وَلَمْ يُكَلِّفْهُ إِلَّا مَا يَسْتَطِيعُ وَقَالَ لَهُ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]وَقَالَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[البقرة: ٢٨٦] وَلَوْ كَانَ الْعَبْدُ مُجْبَرًا عَلَى الْفِعْلِ مُكَلَّفًا بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ الْخَلَاصَ مِنْهُ وَهَذَا بَاطِلٌ، وَلِذَلِكَ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ مَعْصِيَةٌ بِجَهْلٍ أَوْ نِسْيَانٍ أَوْ إِكْرَاهٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مَعْذُورٌ."**

- الْوَجْهُ الْخَامِسُ: **"أَنَّ قَدَرَ اللَّهِ تَعَالَى سِرٌّ مَكْتُوبٌ لَا يُعْلَمُ بِهِ إِلَّا بَعْدَ وُقُوعِ الْمَقْدُورِ وَإِرَادَةُ الْعَبْدِ لِمَا يَفْعَلُهُ سَابِقَةٌ عَلَى فِعْلِهِ فَتَكُونُ إِرَادَتُهُ الْفِعْلَ غَيْرَ مَبْنِيَّةٍ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ بِقَدَرِ اللَّهِ وَحِينَئِذٍ تَنْتَفِي حُجَّةٌ بِالْقَدَرِ إِذْ لَا حُجَّةَ لِلْمَرْءِ فِيمَا لَا يَعْلَمُه"** نَقُولُ لِهَذَا الَّذِي يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ لِمَاذَا احْتَجَجْتَ بِالْقَدَرِ عَلَى مَعْصِيَتِكَ وَلَمْ تَحْتَجْ بِالْقَدَرِ عَلَى طَاعَتِكَ؟ ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]. أَيْنَ حُجَّتُكَ هَلِ اطَّلَعْتَ عَلَى اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَهَلِ اطَّلَعْتَ عَلَى الصُّحُفِ الَّتِي بِيَدِ الْمَلَائِكَةِ فَعَلِمْتَ أَنَّكَ عَاصٍ فَعَصيتَ، أم هَذَا ضَرْبٌ مِنَ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالسَّيْرِ وَرَاءَ الشَّيْطَانِ.
- الْوَجْهُ السَّادِسُ مِنْ وُجُوهِ بُطْلَانِ مَنِ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ عَلَى تَرْكِ الْوَاجِبَاتِ وَفِعْلِ الْمُحَرَّمَاتِ: **"أَنَّنَا نَرَى الْإِنْسَانَ يَحْرِصُ عَلَى مَا يُلَائِمُهُ مِنْ أُمُورِ دُنْيَاهُ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهِ وَحَتَّى يُدْرِكَهُ، وَلَا يَعْدِلَ عَنْهُ إِلَى مَا لَا يُلَائِمُهُ ثُمَّ يَحْتَجُّ عَلَى عُدُولِهِ بِالْقَدَرِ فَلِمَاذَا يَعْدِلُ عَمَّا يَنْفَعُهُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ إِلَى مَا يَضُرُّهُ، ثُمَّ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ فَلَيْسَ شَأْنُ الْأَمْرَيْنِ وَاحِداً. وَإِلَيْكَ مِثَالًا يُوَضِّحُ ذَلِكَ: لَوْ كَانَ بَيْنَ يَدَيِ الْإِنْسَانِ طَرِيقَانِ أَحَدُهُمَا يَنْتَهِي بِهِ إِلَى بَلَدٍ كُلُّهَا فَوْضَى وَقَتْلٌ وَنَهْبٌ وَانْتِهَاكٌ لِلْأَعْرَاضِ وَخَوْفٌ وَجُوعٌ وَالثَّانِي يَنْتَهِي بِهِ إِلَى بَلَدٍ كُلُّهَا نِظَامٌ وَأَمْنٌ مُسْتَتِبٌّ**

وَعَيْشٌ رَغِيدٌ وَاحْتِرَامٌ لِلنُّفُوسِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْأَمْوَالِ فَأَيَّ الطَّرِيقَيْنِ يَسْلُكُ؟

إِنَّهُ سَيَسْلُكُ الطَّرِيقَ الثَّانِيَ الَّذِي يَنْتَهِي بِهِ إِلَى بَلَدِ النِّظَامِ وَالْأَمَانِ، وَلَا يُمْكِنُ لِأَيِّ عَاقِلٍ أَبَدًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَ بَلَدِ الْفَوْضَى وَالْخَوْفِ وَيَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ، فَلِمَاذَا يَسْلُكُ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ طَرِيقَ النَّارِ دُونَ الْجَنَّةِ وَيَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ .

مِثَالٌ آخَرُ: نَرَى الْمَرِيضَ يُؤْمَرُ بِالدَّوَاءِ فَيَشْرَبُ دَوَاءَهُ وَنَفْسُهُ لَا تَشْتَهِيه، فَيَشْرَبُهُ وَنَفْسُهُ لَا تَشْتَهِيهِ وَيُنْهَى عَنِ الطَّعَامِ الَّذِي يَضُرُّهُ فَيَأْكُلُهُ وَنَفْسُهُ تَشْتَهِيهِ كُلُّ ذَلِكَ طَلَبًا لِلشِّفَاءِ وَالسَّلَامَةِ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَمْتَنِعَ عَنْ شَرَابِ الدَّوَاءِ أَوْ أَنْ يَأْكُلَ الطَّعَامَ الَّذِي يَضُرُّهُ وَيَحْتَجَّ بِالْقَدَرِ. فَلِمَاذَا لَا يَتْرُكُ الْإِنْسَانُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ أَوْ يَفْعَلُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَسُولُهُ ثُمَّ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ."

- سَابِعًا: **"الْمُحْتَجُّ بِالْقَدَرِ عَلَى مَا تَرَكَهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ أَوْ فَعَلَهُ مِنَ الْمَعَاصِي أَوِ الْمُحَرَّمَاتِ لَوْ اعْتَدَى عَلَيْهِ شَخْصٌ فَأَخَذَ مَالَهُ أَوِ انْتَهَكَ عِرْضَهُ ثُمَّ احْتَجَّ بِالْقَدَرِ وَقَالَ لَا تَلُمْنِي فَإِنَّ اعْتِدَائِي كَانَ بِقَدَرِ اللَّهِ لَمْ تُقْبَلْ حُجَّتُهُ."** سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا لَا يَرْضَوْنَ أَنْ يُعْتَدَى عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَيَعْتَدُونَ عَلَى دِينِ رَبِّهِمْ وَشَرِيعَتِهِ **"وَيُذْكَرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رُفِعَ إِلَيْهِ سَارِقٌ اسْتَحَقَّ الْقَطْعَ**

فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدِهِ فَقَالَ: "مَهْلًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا سَرَقْتُ بِقَدَرِ اللَّهِ" فَقَالَ: "وَنَحْنُ إِنَّمَا نَقْطَعُ بِقَدَرِ اللَّهِ."

"الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ" عِبَادَ اللَّهِ لَهُ **"ثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ"** وَلَهُ آثَارٌ فِي النَّفْسِ عَظِيمَةٌ:

- **"الأولى: الِاعْتِمَادُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ فِعْلِ الْأَسْبَابِ بِحَيْثُ لَا نَعْتَمِدُ عَلَى السَّبَبِ نَفْسِهِ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرِ اللَّهِ تَعَالَى."**
- **"الثانية: لَا يُعْجَبُ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ عِنْدَ حُصُولِ مُرَادِهِ لِأَنَّ حُصُولَ مُرَادِهِ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ بِمَا قَدَّرَهُ مِنْ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَالنَّجَاحِ وَإِعْجَابُهُ بِنَفْسِهِ يُنْسِيهِ شُكْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ."**
- **"الثالثة: الطُّمَأْنِينَةُ وَالرَّاحَةُ النَّفْسِيَّةُ بِمَا جَرَى عَلَيْهِ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَقْلَقُ بِفَوَاتِ مَحْبُوبٍ، أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ لِأَنَّ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣)﴾[الحديد:٢٢-٢٣].. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ،**

وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ." أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِه فِي كِتَابِ الزُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ بَابُ الْمُؤْمِنِ أَمْرُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ.

قَدْ ضَلَّ فِي الْقَدَرِ طَائِفَتَانِ: "إِحْدَاهُمَا الْجَبْرِيَّةُ: الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الْعَبْدَ مُجْبَرٌ عَلَى عَمَلِهِ وَلَيْسَ فِيهِ إِرَادَةٌ وَلَا قُدْرَةٌ.

الْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ الْقَدَرِيَّةُ: الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الْعَبْدَ مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ فِي الْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ وَلَيْسَ لِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ فِيهَا أَثَرٌ.

وَأَمَّا الرَّدُّ عَلَى الطَّائِفَةِ الْأُولَى وَهِيَ الْجَبْرِيَّةُ بِالشَّرْعِ وَالْوَاقِعِ: فَأَمَّا الشَّرْعُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لِلْعَبْدِ إِرَادَةً وَمَشِيئَةً وَأَضَافَ الْعَمَلَ إِلَيْهِ قَالَ تَعَالَى: {مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ } [آل عمران : ١٥٢].

وَقَالَ تَعَالَى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ} [الكهف : ٢٩]. وَقَالَ تَعَالَى: {مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ} [فصلت : ٤٦]". فَقَدْ أَثْبَتَ الشَّرْعُ إِرَادَةً لِلْفَاعِلِ وَمَشِيئَةً يَأْتِي بِهَا مَا يُرِيدُ وَيَذَرُ بِهَا مَا يَدَعُ.

"وَأَمَّا الْوَاقِعُ فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ الْفَرْقَ بين أفعاله الِاخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي يَفْعَلُهَا بِإِرَادَتِهِ كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَبَيْنَ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ إِرَادَتِهِ كَالارتعاشِ مِنَ الْحُمَّى وَالسُّقُوطِ مِنَ السَّطْحِ، فَهُوَ فِي الْأَوَّلِ فَاعِلٌ مُخْتَارٌ بِإِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ جَبْرٍ، وَفِي الثَّانِي غَيْرُ مُخْتَارٍ وَلَا مُرِيدٍ لِمَا وَقَعَ عَلَيْهِ."

"وَالرَدُّ عَلَى الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ وَهُمُ الْقَدَرِيَّةُ بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ: أَمَّا مِنَ الشَّرْعِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَكُلُّ شَيْءٍ كَائِنٌ بِمَشِيئَتِهِ وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ تَقَعُ بِمَشِيئَتِهِ فَقَالَ تَعَالَى: { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وَقَالَ تَعَالَى﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[السجدة: ١٣].

وَأَمَّا الْعَقْلُ فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ مَمْلُوكٌ لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْإِنْسَانُ مِنْ هَذَا الْكَوْنِ فَهُوَ مَمْلُوكٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَا يُمْكِنُ لِلْمَمْلُوكِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي مِلْكِ الْمَالِكِ إِلَّا بِإِذْنِهِ."

فَيَا عِبَادَ اللَّهِ الْإِيمَانُ لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَافَرَ فِيهِ أَرْكَانُهُ وَيَتِمَّ فِيهِ بُنْيَانُهُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. هَذِهِ الْمَرَاتِبُ هِيَ أُصُولُ ذَلِكَ الدِّينِ وَلَا قِيَامَ لِلْمَرْءِ إِلَّا بِقِيَامِ دِينِهِ وَهَذَا هُوَ الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ مَرَاتِبِ هَذَا الدِّينِ.

وَأَمَّا الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ فَهِيَ الْإِحْسَانُ. قال المصنِّف رَحِمَه الله: **"الْإِحْسَانُ رُكْنٌ وَاحِدٌ وَهُوَ "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ". وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)}**

[الشعراء : ٢١٧-٢٢٠] وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ } [يونس : ٦١]"

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"الْإِحْسَانُ: ضِدُّ الْإِسَاءَةِ وَهُوَ أَنْ يَبْذُلَ الْإِنْسَانُ الْمَعْرُوفَ، وَأَنْ يَكُفَّ الْأَذَى. فَيَبْذُلُ الْمَعْرُوفَ لِعِبَادِ اللَّهِ فِي مَالِهِ وَجَاهِهِ وَعِلْمِهِ وَبَدَنِهِ وَسُلْطَانِهِ، فَأَمَّا الْمَالُ فَبِأَنْ يُنْفِقَ وَيَتَصَدَّقَ وَيُزَكِّيَ وَأَفْضَلُ أَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ بِالْمَالِ الزَّكَاةُ؛ لِأَنَّ الزَّكَاةَ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَمَبَانِيهِ الْعِظَامِ وَلَا يَتِمُّ إِسْلَامُ الْمَرْءِ إِلَّا بِهِ، وَهِيَ أَحَبُّ النَّفَقَاتِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَلِي ذَلِكَ مَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ نَفَقَةٍ لِزَوْجَتِهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَإِخْوَانِهِ وَبَنِي إِخْوَتِهِ وَأَخَوَاتِهِ وَأَعْمَامِهِ وَعَمَّاتِهِ وَخَالَاتِهِ إِلَى آخِرِ هَذَا، ثُمَّ الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ هُمْ أَهْلٌ لِلصَّدَقَةِ كَطُلَّابِ الْعِلْمِ مَثَلًا.**

وَأَمَّا بَذْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْجَاهِ فَهُوَ أَنَّ النَّاسَ مَرَاتِبُ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ جَاهٌ عِنْدَ ذِي السُّلْطَانِ، فَيَبْذُلُ الْإِنْسَانُ جَاهَهُ، يَأْتِيهِ رَجُلٌ فَيَطْلُبُ مِنْهُ الشَّفَاعَةَ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ فَيَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ إِمَّا بِدَفْعِ ضُرٍّ أَوْ بِجَلْبِ خَيْرٍ لَهُ."

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ **"بِالْعِلْمِ: فَبِأَنْ يَبْذُلَ الْعِلْمَ لِعِبَادِ اللَّهِ تَعْلِيمًا فِي الْحَلَقَاتِ وَالْمَجَالِسِ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَلَوْ كَانَتْ فِي مَجَالِسِ النَّاسِ فِي دُرُوبِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ فَإِنَّ مِنَ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ أَنْ تُعَلِّمَ النَّاسَ وَلَوْ كُنْتَ فِي مَجْلِسٍ عَامٍّ فمِنَ الْخَيْرِ أَنْ تُعَلِّمَ النَّاسَ لَا أَنْ تَتْرُكَهُمْ هَكَذَا جُهَلاء وَلَكِنِ اسْتَعْمِلِ**

الْحِكْمَةَ فِي هَذَا الْبَابِ فَلَا تُثْقِلْ عَلَى النَّاسِ حَيْثُ كُلَّمَا جَلَسْتَ فِي مَجْلِسٍ جَعَلْتَ تعِظُهُمْ وَتتَحَدَّثُ إِلَيْهِم؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَخَوَّلُهُمْ بِالْمَوْعِظَةِ وَلَا يُكْثِرُ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ تَسْأَمُ وَتَمَلُّ فَإِذَا مَلَّتْ كَلَّتْ وَضَعُفَتْ وَرُبَّمَا تَكْرَهُ الْخَيْرَ لِكَثْرَةِ مَنْ يَقُومُ وَيَتَكَلَّمُ.

وَأَمَّا الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ بِالْبَدَنِ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا أَوْ تَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ." فَهَذَا رَجُلٌ تُعِينُهُ تَحْمِلُ مَتَاعَهُ مَعَهُ أَوْ تَدُلُّهُ عَلَى طَرِيقٍ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْإِحْسَانِ وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ لِلْإِحْسَانِ إِلَى عِبَادِ اللَّهِ.

وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْإِحْسَانِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ: فَأَنْ تَعْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ عِبَادَةُ الْإِنْسَانِ رَبَّهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ عِبَادَةَ طَلَبٍ وَشَوْقٍ، فَعِبَادَةُ الطَّلَبِ وَالشَّوْقِ يَجِدُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ حَاثًّا عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُ يَطْلُبُ هَذَا الَّذِي يُحِبُّهُ فَهُوَ يَعْبُدُهُ كَأَنَّهُ يَرَاهُ فَيَقْصِدُهُ وَيُنِيبُ إِلَيْهِ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ."

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ **"فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ"** فَعَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ **"أَنَّهُ يَرَاكَ" وَهَذِهِ عِبَادَةُ الْهَرَبِ وَالْخَوْفِ"** أَيْ عَلَيْكَ أَنْ تَهْرُبَ مِنْ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ وَمِنِ اطِّلَاعِهِ عَلَيْكَ أَنْ يَرَاكَ فِيمَا لَا يُحِبُّ أَوْ أَنْ يَفْتَقِدَكَ فِيمَا يُرْضَى، وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ وَهِيَ مَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْمَرَاتِبِ.

مَرْتَبَةُ الْإِحْسَانِ مَرْتَبَتَانِ:

- مَرْتَبَةُ الْمُشَاهَدَةِ.
- مَرْتَبَةُ الْمُرَاقَبَةِ.

فَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْمُشَاهَدَةِ فَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْمُرَاقَبَةِ، **"إِذَا لَمْ تَكُنْ تَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ وَتَطْلُبُهُ وَتَحُثُّ النَّفْسَ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ فَاعْبُدْهُ كَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَرَاكَ، فَتَعْبُدُهُ عِبَادَةَ خَائِفٍ مِنْهُ، هَارِبٍ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ عِنْدَ السَّائِرِينَ السَّالِكِينَ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَدْنَى مِنَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ. مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا رُكْنَانِ**

فَالْعِبَادَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ غَايَةِ الْحُبِّ مَعَ غَايَةِ الذُّلِّ، فَفِي الْحُبِّ الطَّلَبُ وَفِي الذُّلِّ الْخَوْفُ وَالْهَرَبُ فَهَذَا هُوَ الْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ذي الجلالِ والإكرام .

"إِذَا كَانَ الْعَبْدُ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ فَإِنَّهُ سَوْفَ يَكُونُ مُخْلِصًا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُرِيدُ بِعِبَادَتِهِ رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً وَلَا مَدْحًا وَلَا مِدْحَةً عِنْدَ النَّاسِ. وَسَوَاءٌ اطَّلَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ أَمْ لَمْ يَطَّلِعُوا الْكُلُّ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، وَهُوَ مُحْسِنُ الْعِبَادَةِ فِي كُلِّ أَحْيَانِهِ وَأَحْوَالِهِ. بل إنَّ مِنْ تَمَامِ الْإِخْلَاصِ أَنْ يَحْرِصَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَنْ لَا يَرَاهُ النَّاسُ فِي عِبَادَاتِهِ وَأَنْ تَكُونَ عِبَادَاتُهُ مَعَ رَبِّهِ

سِرًّا إِلَّا إِذَا كَانَ فِي إِعْلَانِ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، كَأَنْ يَكُونَ رَجُلًا مُتبوعًا يُقْتَدَى بِهِ وَأَحَبَّ أَنْ يُبَيِّنَ عِبَادَتَهُ لِلنَّاسِ لِيَأْخُذَ مِنْ ذَلِكَ نِبْرَاسًا يَسِيرُونَ عَلَيْهِ أَوْ كَانَ هُوَ يُحِبُّ أَنْ يُظْهِرَ الْعِبَادَةَ لِيَقْتَدِيَ بِهِ زُمَلَاؤُهُ وَقُرَنَاؤُهُ وَأَصْحَابُهُ،فَفِي هَذَا خَيْرٌ، وَهَذِهِ الْمَصْلَحَةُ الَّتِي يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا قَدْ تَكُونُ أَفْضَلَ وَأَعْلَى مِنْ مَصْلَحَةِ الْإِخْفَاءِ. وَلِهَذَا يُثْنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً، فَإِذَا كَانَ السِّرُّ أَصْلَحَ وَأَنْفَعَ لِلْقَلْبِ وَأَخْشَعَ وَأَشَدَّ إِنَابَةً إِلَى اللَّهِ سِرًّا، وَإِذَا كَانَ فِي الْإِعْلَانِ مَصْلَحَةٌ لِلْإِسْلَامِ بِظُهُورِ شَرَائِعِهِ، وَلِلْمُسْلِمِينَ يَقْتَدُونَ بِهَذَا الْفَاعِلِ وَهَذَا الْعَامِلِ أَعْلَنُوا ذَلِكَ وَأَظْهَرُوهُ.

وَالْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ مَا هُوَ الْأَصْلَحُ، كُلَّمَا كَانَ أَصْلَحَ وَأَنْفَعَ فِي الْعِبَادَةِ فَهُوَ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ."

"وَالدَّلِيلُ" عَلَى مَرْتَبَةِ الْإِحْسَانِ "مِنَ السُّنَّةِ حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: "يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ". فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ

الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا." قَالَ: "صَدَقْتَ". فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: "فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ". قَالَ: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ." قَالَ: "صَدَقْتَ". قَالَ: "فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ". قَالَ: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ." قَالَ: "فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ". قَالَ: "مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ." قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: "أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ." قَالَ: فَمَضَى فَلَبِثْنَا مَلِيًّا. فَقَالَ: "يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟" قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: "هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ." فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الثَّانِي مِنْ تِلْكَ الْأُصُولِ الْمُبَارَكَةِ الَّتِي نَبَّهَ وَبَيَّنَ أَمْرَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ. وَالْأَصْلُ الثَّانِي إِنَّمَا هُوَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ الدِّينِ بِمَرَاتِبِهِ الثَّلَاثَةِ: الْإِسْلَامِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْإِحْسَانِ. وَالْإِسْلَامُ أَرْكَانٌ، وَالْإِيمَانُ أَرْكَانٌ، وَالْإِحْسَانُ أَرْكَانٌ. وَقَدْ بُيِّنَتْ تِلْكَ الْأَرْكَانُ بِمَا تَنْضَوِي عَلَيْهِ مِنْ تَفْرِيعَاتٍ وَتَجْزِيئَاتٍ وَشُرُوحَاتٍ.

إِنَّ مِنْ أَهَمِّ الْمُهِمَّاتِ وَأَشْرَفِ الْعُلُومِ الْفَاضِلَاتِ أَنْ يُقَوِّمَ الْمَرْءُ دِينَهُ، وَأَنْ يُثَبِّتَ الْمَرْءُ يَقِينَهُ، وَأَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَالِمًا بِدِينِهِ، عَالِمًا بِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَهَذِهِ هِيَ الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي تَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا، وَهِيَ مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ وَدِينَهُ وَنَبِيَّهُ، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا بِحَوْلِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَفَضْلِهِ وَمِنَّتِهِ عَلَى مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ وَدِينَهُ، وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّالِثُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُقِيمَهُ وَأَنْ يُثَبِّتَهُ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاسْمِهِ وَصِفَتِهِ، وَالْوَاجِبِ الَّذِي يَنْبَغِي عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَعْرِفَهُ عَنْهُ، فَأَمَّا هُوَ فَهُوَ **"مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَزْكَى الصَّلَاةِ وَأَشْرَفُ التَّسْلِيمِ."** فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُحِيطَ الْمَرْءُ بِهِ مَعْرِفَةً لَا بُدَّ أَنْ تَتَضَمَّنَ تِلْكَ الْمَعْرِفَةُ **خَمْسَةَ أُمُورٍ:**

- **الأولُ: "مَعْرِفَتُهُ نَسَبَهُ"** أَيْ نِسبةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي آبَائِهِ وَفِي الْعَرَبِ الَّذِي خَرَجَ مِنْها، **"فَهُوَ أَشْرَفُ النَّاسِ نَسَبًا، فَهُوَ هَاشِميٌ قُرَشِيٌّ عَرَبِيٌّ، هوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ،"** فَهَذَا نَسَبُهُ.
- **ثانيا: "مَعْرِفَةُ سَنِهِ وَمَكَانِ وِلَادَتِهِ وَمُهَاجَرَهُ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ الْمُصَنِّفُ بِقَوْلِهِ: "وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وَقَدْ وُلِدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ، وَبَقِيَ فِيهَا ثَلَاثًا وَخَمْسِينَ سَنَةً، ثُمَّ**

هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَبَقِيَ فِيهَا عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ تُوُفِّيَ فِيهَا فِي رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ."

- وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّالِثُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ مَعْرِفَتُهُ: **"فَهُوَ مَعْرِفَةُ حَيَاتِهِ النَّبَوِيَّةِ، وَهِيَ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، فَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ أَرْبَعُونَ سَنَةً كَمَا قَالَ أَحَدُ شُعَرَاءِ الصَّحَابَةِ:**

وَأَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأَشْرَقَتْ شَمْسُ النُّبُوَّةِ مِنْهُ فِي رَمَضَانَ."

- الْأَمْرُ الرَّابِعُ الَّذِي يَجِبُ وَيَنْبَغِي عَلَى الْمَرْءِ مَعْرِفَتُهُ: **"بِمَاذَا كَانَ نَبِيًّا وَرَسُولًا"** أَيْ كَيْفَ نُبِّئَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ، وَكَيْفَ أُرْسِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ، فَأَمَّا أَمْرُ النُّبُوَّةِ **"فَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا حِينَ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق : ١-٥]"**. بِهَذَا نُبِّئَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُخْبِرَ أَنَّ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ شَرَفًا وَمَكَانًا، وَأَمَّا إِرْسَالُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْخَلْقِ بِدَعْوَةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَبِرِسَالَةِ الْإِسْلَامِ إِلَى جَمِيعِ أَرْضِ اللَّهِ فِي دُنْيَا اللَّهِ وَخَلْقِ اللَّهِ، فَقَدْ كَانَ ذَلِكَ **"بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ**

(٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ [المدثر : ١-٧]". فَقَامَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنِّذَارَةِ عَلَى خَيْرِ وَجْهٍ وَبَيَانٍ، وَقَامَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْمَلِيكُ الْعَلَّامُ.

وَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الرَّسُولِ وَالنَّبِيِّ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْعِلْمِ: **"النَّبِيُّ: مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَبْلِيغِهِ، والرَّسُولُ: فَهُوَ مَنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَأَمَرَ بِتَبْلِيغِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا."**

- الْأَمْرُ الْخَامِسُ الَّذِي يَتَضَمَّنُ مَعْرِفَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَعْلَمَ الْمَرْءُ **"بِمَاذَا أُرْسِلَ"** رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **"وَلِمَاذَا"** أُرْسِلَ. فَأَمَّا بِمَاذَا أُرْسِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **"فَقَدْ أُرْسِلَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَشَرِيعَتِهِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ."** فَأُرْسِلَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى عِبَادَةِ الْحَقِّ بِتَوْحِيدِهِ سُبْحَانَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأُرْسِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ. **"وَأَرْسَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ ظُلْمَةِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ حَتَّى يَنَالُوا بِذَلِكَ مَغْفِرَةَ اللَّهِ وَرِضْوَانَهُ وَيَنْجُوا مِنْ عِقَابِهِ وَسَخَطِهِ."**

نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِن ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ."**

"وَلَهُ مِنَ الْعُمْرِ" صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ وِلَادَتِهِ إِلَى يَوْمِ مَماتِهِ **"ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا وَرَسُولًا، نُبِّئَ"** النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **"بِـ "اقْرَأْ" وَأُرْسِلَ بِـ "الْمُدَّثِّرِ"، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ."**

"بَعَثَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، ويَدعو إِلَى التَّوْحِيدِ" أَيْ **يُنْذَرَهُمْ عَنِ الشِّرْكِ ويَدعوهم إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ،**

"وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ [المدثر : ١-٧]". فقد أمرَه اللهُ ربُّ العالمينَ أن يقومَ بِجِدٍ ونشاطٍ ويُنذرَ الناسَ عن الشرك، وأنْ يُحذِّرَهم منه بما جاء في هذه الآيات .

"ومعنى {قُمْ فَأَنذِرْ} يُنذِرُ عَن الشرك، ويَدعو إلى التوحيدِ {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ} أي عَظِّمْهُ بالتوحيدِ، {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} أي طَّهِر أعمالَك عَن الشِرْك {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ} الرُّجْزُ هِيَ الْأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا تَرْكُهَا وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَمِنْ أَهْلِهَا". فَنَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **"بَقِيَ"** فِي مَكَّةَ **"عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى."**

"أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ هَذِهِ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ" أَيْ صُعِدَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ لِأَنَّ **"العُروجَ هُوَ الصُّعُودُ،** وَمِنْه قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]."

وَالعُروجُ **"مِنْ خَصَائِصِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَظِيمَةِ الَّتِي فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهَا قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ مِنْ مَكَّةَ، فَبَيْنَمَا هُوَ نَائِمٌ فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ أَتَاهُ آتٍ فَشَقَّ مَا بَيْنَ ثَغْرَهُ إِلَى نَحْرِهِ إِلَى أَسْفَلَ بَطْنِهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَ قَلْبَهُ فَمَلَأَهُ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، وَهَذَا تَهْيِئَةٌ لِمَا سَيَقُومُ بِهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِدَابَّةٍ بَيْضَاءَ دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ يُقَالُ لَهَا الْبُرَاقُ، يَضَعُ خُطْوَهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرْفِهِ، فَرَكِبَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِصُحْبَتِهِ جِبْرِيلُ الْأَمِينُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَنَزَلَ هُنَاكَ وَصَلَّى بِالْأَنْبِيَاءِ إِمَامًا، صَلَّى بِكُلِّ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ"** الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُرْسَلُونَ **"يُصَلُّونَ خَلْفَ النَّبِيِّ لِيَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ فَضْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَفُهُ وَأَنَّهُ الإِمَامُ المتبوعُ".**

"ثُمَّ عُرِجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْه؟ فَقَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ. فَفُتِحَ لَهُ فَوَجَدَ فِي السَّمَاءِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمَ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَدَّ عَلَيْهِ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ" رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ. **"وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. وَإِذَا عَلَى يَمِينِ آدَمَ الْأَرْوَاحُ السُّعَدَاءُ وَعَلَى يَسَارِهِ الْأَرْوَاحُ الْأَشْقِيَاءُ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.**

فَإِذَا نَظَرَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْيَمِينِ سُرَّ وَضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قُبَيْلَ شِمَالِهِ بَكَى.

ثُمَّ عَرجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ فَفُتِحَ لَهُ فَوَجَدَ فِيهَا يَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَهُمَا ابْنَا الْخَالَةِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ابْنُ خَالَةِ الْآخَرِ. فَقَالَ جِبْرِيلُ هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا فَسَلَّمَ عَلَيْهِمَا فَرَدَّ السَّلَامَ وَقَالَا: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عَرجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ فَفُتِحَ لَهُ فَوَجَدَ فِيهَا يُوسُفَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ جِبْرِيلُ هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عرجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ فَفُتِحَ لَهُ بَعْدَ إِذْنٍ وَاسْتِئْذَانٍ فَوَجَدَ فِيهَا إِدْرِيسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ جِبْرِيلُ هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عرجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ فَفُتِحَ لَهُ بَعْدَ إِذْنٍ وَاسْتِئْذَانٍ فَوَجَدَ فِيهَا هَارُونَ ابْنَ عِمْرَانَ أَخَا مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ. فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ عرجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ فَفُتِحَ لَهُ بَعْدَ إِذْنٍ وَاسْتِئْذَانٍ فَوَجَدَ فِيهَا مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ جِبْرِيلُ هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. فَلَمَّا تَجَاوَزَهُ بَكَى مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي، فَكَانَ بُكَاءُ مُوسَى حُزْنًا عَلَى مَا فَاتَ أُمَّتَهُ مِنَ الْفَضَائِلِ لَا حَسَدًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثُمَّ عَرَجَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ فَفُتِحَ لَهُ بَعْدَ إِذْنٍ وَاسْتِئْذَانٍ فَوَجَدَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ. فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَقَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

وَإِنَّمَا طَافَ جِبْرِيلُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ تَكْرِيمًا لَهُ وَإِظْهَارًا لِشَرَفِهِ وَفَضْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلٌ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ الَّذِي يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَتَعَبَّدُونَ وَيُصَلُّونَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ وَلَا يَعُودُونَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي يَأْتِي غَيْرُهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ.

ثُمَّ رُفِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فَغَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مِنَ الْبَهَاءِ وَالْحُسْنِ مَا غَشِيَهَا حَتَّى مَا اسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا.

ثُمَّ فَرَضَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ الصَّلَاةَ، فَرَضَ عَلَيْهِ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. فَرَضِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ وَسَلَّمَ. فَلَمَّا نَزَلَ مَرَّ بِمُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟" قَالَ: "خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ". فَقَالَ: "إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ وَقَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ فَارْجَعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لأُمَّتِكَ". ٠. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فَرَجَعْتُ فوضعَ عَنِّي عَشْرَاً" وَمَا زَالَ يُراجِعُ رَبّه حَتَّى اسْتَقَرَّتِ الْفَرِيضَةُ عَلَى خَمْسٍ. فَنَادَى مُنَادٍ: "أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَلَى عِبَادِي".

وفِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أُدْخِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا قِبَابُ اللّؤلؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ، ثُمَّ نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ بِغَلَسٍ وَصَلَّى فِيهَا الصُّبْحَ" وَالْغَلَسُ وَهِيَ الظُّلْمَةُ الَّتِي تَكُونُ قَبْلَ الْفَجْرِ.

"وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَبَعْدَهَا أُمِرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ." وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي مَكَّةَ صَلَاةَ السَّفَرِ **"فَيُصَلِّي الرُباعيَّةَ رَكْعَتَيْنِ"** وَيُصَلِّي الْمَغْرِبَ ثَلَاثًا **"حَتَّى هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأُقِرَّتْ صَلَاةُ السَّفَرِ وَزِيدَ فِي صَلَاةِ الْحَضَرِ"**

اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لَمَّا أُذِنَ بِالْهِجْرَةِ، **"أُمِرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ مَنَعُوه أَنْ يُقِيمَ دَعْوَتَهُ، وَفِي شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنَ الْعَامِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنَ الْبِعْثَةِ وَصَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ مُهَاجِرًا مِنْ مَكَّةَ، الْبَلَدِ الْأَوَّلِ لِلْوَحْيِ وَأَحَبِّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.**

خَرَجَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا بِإِذْنِ رَبِّهِ بَعْدَ أَنْ قَامَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُبَلِّغُ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيَدْعُو إِلَيْهِ عَلَى بَصِيرَةٍ. فَلَمْ يَجِدْ مِنْ أَكْثَرِ قُرَيْشٍ وَأكبَارِهِمْ سِوَى الرَّفْضِ لِدَعْوَتِهِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُ وَالْإِيذَاءِ الشَّدِيدِ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ آمَنَ بِهِ. حَتَّى آلَ الأمرُ بِهِمْ إِلَى

تَنْفِيذِ خُطَّةِ الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ لِقَتْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَاجْتَمَعَ كُبَراؤُهُمْ فِي دَارِ النّدوةِ وَتَشَاوَرُوا مَاذَا يفعَلُون بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَوْا أَصْحَابَهُمْ يُهَاجِرُونَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَلْحَقُوا بِهِمْ وَيَجِدُوا النُّصْرَةَ وَالْعَوْنَ مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ بَايَعُوهُ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ أَبْنَاءَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ."

فَخَافَت قُرَيْشٌ أَنْ تَكُونَ حِينَئِذٍ لَهُ **"الدَّوْلَةُ عَلَى قُرَيْشٍ، فَقَالَ عَدوُ اللَّهِ أَبُو جَهْلٍ: الرَّأْيُ أَنْ نَأْخُذَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتًى شَابًّا جَلِدًا ثُمَّ نُعْطِيَ كُلَّ وَاحِدٍ سَيْفًا صَارِمًا ثُمَّ يَعمَدُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَيَضْرِبُونهُ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ. فَنَقْتُلَهُ وَنَسْتَرِيحَ مِنْهُ، فَيَتَفَرَّقُ دَمُهُ فِي الْقَبَائِلِ فَلَا تَسْتَطِيعُ بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ -يَعْنِي عَشِيرَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يُحَارِبُوا قَبَائِلَهُمْ جَمِيعًا فَيَرْضُونَ بِالدِّيَةِ. وَقَوْلُهُمْ جَمِيعًا فَرَضُوا بِالدِّيَةِ فَنُعْطِيهِمْ إِيَّاهَا.**

فَأَعلَمَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا أَرَادَ الْمُشْرِكُونَ وَأَذِنَ لَهُ بِالْهِجْرَةِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ تَجَهَّزَ مِنْ قَبْلُ لِلْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رِسلِكَ يا أَبَا بَكْرٍ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي فَتَأَخَّرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَصْحَبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا" تَحْكِي مَا كَانَ بَيْنَ النَّبِيِّ وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ فَتَقُولُ: **"فَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ فِي مُنْتَصَفِ النَّهَارِ إِذَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى**

الْبَابِ مُتَقَنِّعًا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ فِدَاءً لَهُ أَبِي وَأُمِّي وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ. فَدَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَقَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: "أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ". فَقَالَ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قَدْ أُذِنَ لِي فِي الْخُرُوجِ". فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الصُّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: "نَعَمْ". فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَخُذْ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بِالثَّمَنِ". ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَبُو بَكْرٍ فَأَقَامَا فِي غَارِ جَبَلِ ثَوْرٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ غُلَامًا شَابًّا ذَكِيًّا وَاعِيًا. فَيَنْطَلِقُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى مَكَّةَ فَيُصْبِحُ مِن قُرَيْشٍ فَلَا يَسْمَعُ بِخَبَرٍ حَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبِهِ إِلَّا وَعَاهُ حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ إِلَيْهِمَا حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ. فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تَطْلُبُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَتَسْعَى بِكُلِّ وَسِيلَةٍ لِيُدْرِكوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى جَعَلُوا لِمَنْ يَأْتِي بِهِمْ أَوْ بِأَحَدِهِمَا دِيَةَ مِئَةٍ مِنَ الْإِبِلِ. وَلَكِنَّ اللَّهَ كَانَ مَعَهُمَا يَحْفَظُهُمَا بِعِنَايَتِهِ وَيَرْعَاهُمَا بِرِعَايَتِهِ ويَكلأهُما بِكَلائتهِ. حَتَّى إِنَّ قُرَيْشًا لَيَقفُونَ عَلَى بَابِ الْغَارِ فَمَا يَرَوْنَهُمَا وَهُمَا بِدَاخِلِهِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا". فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا".

حَتَّى إِذَا سَكَنَ الطَّلَبُ عَنْهُمَا قَلِيلًا خَرَجَا مِنَ الْغَارِ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ مُتَّجِهَيْنِ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى طَرِيقِ السَّاحِلِ، وَلَمَّا سَمِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ خَبَرَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، كَانُوا يَخْرُجُونَ صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ إِلَى الْحَرَّةِ يَنْتَظِرُونَ قُدُومَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبِهِ حَتَّى يَطردَهُمْ حَرُّ الشَّمْسِ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي قَدِمَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَتَعَالَى النَّهَارُ وَاشْتَدَّ الْحَرُّ رَجَعُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ، وَإِذَا رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى أُطُمٍ مِنَ آطَامِ الْمَدِينَةِ يَنْظُرُ لِحَاجَةٍ لَهُ فَأَبْصَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ مُقْبِلِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ فَلَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ أَنْ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ هَذَا جَدُّكُمْ يَعْنِي هَذَا حَظُّكُمْ وَعِزُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ.

فَهَبَّ الْمُسْلِمُونَ بِلِقَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُمُ السِّلَاحُ تَعْظِيمًا وَإِجْلَالًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَإِيذاناً باستعدادهِمْ للْجِهَادِ وَالدِّفَاعِ دُونَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، فَاسْتَقْبَلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِظَاهِرِ الْحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَنَزَلَ فِي بَنِي عَمْرِو بن عوف فِي قُبَاءٍ، وَأَقَامَ فِيهِمْ بِضْعَةَ لَيَالٍ، وَأَسَّسَ الْمَسْجِدَ، ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَالنَّاسُ مَعَهُ وَآخَرُونَ لَا يَتلْقَوْنَهُ فِي الطُّرُقَاتِ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "خَرَجَ النَّاسُ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فِي الطُّرُقِ عَلَى الْبُيُوتِ وَالْغِلْمَانُ وَالْخَدَمُ يَقُولُونَ: اللَّهُ أَكْبَرُ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ، اللَّهُ أَكْبَرُ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ". وَهَذَا

يَدُلُّك عَلَى كَذِبِ ذَلِكَ الَّذِي يُدَّعَى وَعَلَى ضَعْفِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي تُقَالُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا ذَهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ تَلَقَّاهُ الْأَنْصَارُ بِقَوْلِهِمْ: طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ، فَهَذَا يَرُدُّه مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"وَالْهِجْرَةُ هِيَ الِانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ." الْهِجْرَةُ فِي اللُّغَةِ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْهَجْرِ وَالتَّرْكِ.

وَأَمَّا فِي الشَّرْعِ فَهِيَ كَمَا قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الِانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ، وَبَلَدُ الشِّرْكِ وَالَّذِي تُقَامُ فِيهِ شَعَائِرُ الْكُفْرِ وَلَا تُقَامُ فِيهِ شَعَائِرُ الْإِسْلَامِ كَالْأَذَانِ وَالصَّلَاةِ جَمَاعَةً وَالْأَعْيَادِ وَالْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَاتِ، فَهَذَا عَلَى وَجْهٍ عَامٍّ شَامِلٍ، وَإِنَّمَا قُلْنَا عَلَى وَجْهٍ عَامٍّ شَامِلٍ لِيَخْرُجَ مَا تُقَامُ فِيهِ هَذِهِ الشَّعَائِرُ عَلَى وَجْهٍ مَحْصُورٍ كَبِلَادِ الْكُفَّارِ الَّتِي فِيهَا أَقَلِّيَّاتٌ مُسْلِمَةٌ، فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ بِلَادَ إِسْلَامٍ بِمَا تُقِيمُهُ تِلْكَ الْأَقَلِّيَّاتُ الْمُسْلِمَةُ فِيهَا مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ. أَمَّا بِلَادُ الْإِسْلَامِ فَهِيَ الْبِلَادُ الَّتِي تُقَامُ فِيهَا هَذِهِ الشَّعَائِرُ عَلَى وَجْهٍ عَامٍّ شاملٍ" حُكِمَتْ بِالْإِسْلَامِ أَوْ لَمْ تُحْكَمْ بِهِ.

"وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ. وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ

مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)﴾[النساء : ٩٧-٩٩]."

فَالْهِجْرَةُ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ لَا يَسْتَطِيعُ إِظْهَارَ دِينِهِ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ، فَلَا يَتِمُّ إِسْلَامُهُ إِذَا كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ إِظْهَارَهُ إِلَّا بِالْهِجْرَةِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ. وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَمْ يُهَاجِرُوا مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى الْهِجْرَةِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَوَفَّاهُمْ وَتُوَبِّخُهُمْ وَتَقُولُ لَهُمْ: أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟ أَمَّا الْعَاجِزُونَ عَنِ الْهِجْرَةِ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ لِعَجْزِهِمْ عَنِ الْهِجْرَةِ، وَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا."

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا " قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قَالَ الْبَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: "سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللَّهُ بِاسْمِ الْإِيمَانِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا."

"نقلَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا عَنِ الْبَغَوِيِّ بِمَعْنَاه هَذَا إِنْ كَانَ نَقَلَهُ مِنَ التَّفْسِيرِ إِذْ لَيْسَ الْمَذْكُورُ فِي تَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ لِهَذِهِ الْآيَةِ بِهَذَا اللَّفْظِ."

وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ حِينَ أمر الْهِجْرَةَ بَيَّنَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ أَرْضَهُ وَاسِعَةٌ وَأَنَّ سَعَةَ الْأَرْضِ قَاضِيَةٌ عَلَى أَنَّ الْمَرْءَ يَنْبَغِي أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْبُدَ فِيهِ رَبَّهُ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا."** وَتَطْلُعُ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا **"حِينَ انْتِهَاءِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمَقْبُولِ وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وَالْمُرَادُ بِبَعْضِ الْآيَاتِ هُنَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا".**

هَذَا مَا جَاءَ فِي دَلِيلِ الْهِجْرَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهُنَاكَ أَحْكَامٌ لَا بُدَّ مِنْ بَيَانِهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَهُوَ حُكْمُ السَّفَرِ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ، ذَكَرَ ذَلِكَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي شَرْحِهِ عَلَى الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ فَقَالَ:

"نَقُولُ أَوَّلًا السَّفَرُ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ لَا يَجُوزُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ:

- **الشرطُ الأولِ: أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الْإِنْسَانِ عِلْمٌ يَدْفَعُ بِهِ الشُّبُهَاتِ.**

- **الشرطُ الثاني: أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ دِينٌ يَمْنَعُهُ مِنَ التَّجَرُّدِ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ.**
- **الشرطُ الثالث: أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا إِلَى أَمْرِ الْهِجْرَةِ حَاجَةً شَدِيدَةً مَاسَّةً.**

فَإِنْ لَمْ تَتِمَّ هَذِهِ الشُّرُوطُ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ السَّفَرُ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ أَوْ خَوْفِ الْفِتْنَةِ وَفِيهِ إضاعةُ الْمَالِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُنْفِقُ أَمْوَالًا كَثِيرَةً فِي هَذِهِ الْأَسْفَارِ.

أَمَّا إِذَا دَعَتِ الْحَاجَةُ إِلَى ذَلِكَ لِعِلَاجٍ أَوْ تَلَقِّي لا يُوجَدُ فِي بَلَدِهِ وَكَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ وَدِينٌ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْهِجْرَةِ إِلَى تِلْكَ الدِّيَارِ.

وَأَمَّا السَّفَرُ لِلسِّيَاحَةِ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ فَهَذَا لَيْسَ بِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ وَبِإِمْكَانِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بِلَادٍ إِسْلَامِيَّةٍ يُحَافِظُ أَهْلُهَا عَلَى شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ وَبِلَادُنَا الْآنَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَصْبَحَتْ بِلَادًا سِيَاحِيَّةً فِي بَعْضِ الْمَنَاطِقِ فَبِإِمْكَانِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَيْهِمْ وَيَقْضِيَ زَمَانَ إِجَازَتِهِ فِيها" سِيَاحَةٍ دِينِيَّةٍ يَذْهَبُ إِلَى الْحَرَمَيْنِ إِلَى مَكَّةَ أَوِ الْمَدِينَةِ يَقْضِي فِيهَا أَيَّامًا طَيِّبَةً.

"وَأَمَّا الْإِقَامَةُ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ فَإِنَّ خَطَرَهَا عَظِيمٌ عَلَى دِينِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى دِينِ الْمُسْلِمِ وَأَخْلَاقِهِ وَسُلُوكِهِ وَآدَابِهِ، وَقَدْ شُوهِدَ ذَلِكَ شُوهِدَ انْحِرَافُ كَثِيرٍ مِمَّنْ أَقَامُوا هُنَاكَ فَرَجَعُوا بِغَيْرِ مَا ذَهَبُوا به رَجَعُوا فُسَّاقًا، وَبَعْضُهُمْ رَجَعَ

مُرْتَدًّا عَنْ دِينِهِ وَكَافِرًا بِهِ بَلْ كَافِرًا بِسَائِرِ الْأَدْيَانِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ حَتَّى صَارُوا إِلَى الْجُحُودِ الْمُطْلَقِ، وَالِاسْتِهْزَاءِ بِالدِّينِ وَأَهْلِهِ السَّابِقِينَ مِنْهُمْ وَاللَّاحِقِينَ. وَلِهَذَا كَانَ يَنْبَغِي بَلْ يَتَعَيَّنُ التَّحَفُّظُ مِنْ ذَلِكَ وَوَضْعُ الشُّرُوطِ الَّتِي تَمْنَعُ مِنَ الْهَوِيِّ فِي تِلْكَ الْمَهَالِكِ.

فَالْإِقَامَةُ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ لَا بُدَّ فِيهَا مِنْ شَرْطَيْنِ أَسَاسِيَّيْنِ:

- الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَمْنُ الْمُقِيمِ عَلَى دِينِهِ بِحَيْثُ يَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَقُوَّةِ الْعَزِيمَةِ مَا يُطْمِئِنُهُ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ، وَالْحَذَرِ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالزَّيْغِ، وَأَنْ يَكُونَ مُضمِراً لِعَدَاوَةِ الْكَافِرِينَ وَبُغْضهم مُبْتَعِدًا عَنْ مُوَالَاتِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ. فَإِنَّ مُوَالَاتِهِمْ وَمَحَبَّتَهُمْ مِمَّا يُنَافِي الْإِيمَانَ بِاللَّهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢)﴾ [المائدة : ٥١-٥٢].

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَنَّ مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ وَأَنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ أَحَبَّ". وَمَحَبَّةُ أعداءِ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَكُونُ خَطَرًا عَلَى الْمُسْلِمِ لِأَنَّ مَحَبَّتَهُن تَسْتَلْزِمُ مُوَافَقَتِهم وَاتِّبَاعِهم وَعَلَى الْأَقَلِّ عَدَمَ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ. وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا فَهُوَ مِنْهُمْ". فَمَحَبَّةُ الْكَافِرِينَ تَسْتَلْزِمُ مُوَافَقَتَهُمْ وَاتِّبَاعَهُمْ وَهَذَا يُؤَدِّي إِلَى عَدَمِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِم.

- الشَّرْطُ الثَّانِي فِيمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُسَافِرَ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ: **"أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ إِظْهَارِ دِينِهِ بِحَيْثُ يَقُومُ بِشَعَائِرِ الْإِسْلَامِ بِدُونِ مَانِعٍ فَلَا يُمْنَعُ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالْجَمَاعَةِ إِنْ كَانَ مَعَهُ مَنْ يُصَلِّي جَمَاعَةً وَمَنْ يُقِيمُ الْجُمُعَةَ، وَلَا يُمْنَعُ مِنَ الزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَغَيْرِها مِنْ شَعَائِرِ الدِّينِ، فَإِنْ كَانَ لَا يَتَمَكَّنُ مِنْ ذَلِكَ لَمْ تَجُزْ إِقَامَةٌ بِوُجُوبِ الْهِجْرَةِ حِينَئِذٍ.**

قَالَ ابْنُ قُدَامَةَ فِي الْمُغْنِي فِي الْكَلَامِ عَلَى أَقْسَامِ النَّاسِ فِي الْهِجْرَةِ قَالَ:

أَحَدُهَا مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ وَهُوَ مَنْ يَقْدِرُ عَلَيْهَا وَلَا يُمْكِنُهُ إِظْهَارَ دِينِهِ وَلَا تَمَكِّنُهُ مِنْ إِقَامَةِ وَاجِبَاتِ دِينِهِ مَعَ الْمَقَامِ بَيْنَ الْكُفَّارِ. فَهَذَا تَجِبُ عَلَيْهِ الْهِجْرَةُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]. وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ يَدُلُّ عَلَى الوُجُوبِ - أي عَلَى وُجُوبِ تَرْكِ هَذِهِ الْأَرْضِ - وَلِأَنَّ الْقِيَامَ بِوَاجِبِ دِينِهِ وَاجِبٌ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ وَالْهِجْرَةُ مِنْ ضَرُورَةِ الْوَاجِبِ وَتَتِمَّتِهِ وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ".

"وبَعْدَ تَمَامِ هذين الشَّرْطَيْنِ الْأَسَاسِيَّيْنِ تَنْقَسِمُ الْإِقَامَةُ فِي دَارِ الْكُفْرِ إِلَى أَقْسَامٍ:

- الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: أَنْ يُقِيمَ لِلدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهِ، فَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْجِهَادِ فَهِيَ فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ بِشَرْطِ أَنْ تَتَحَقَّقَ الدَّعْوَةُ، وَأَنْ لَا يُوجَدَ مَنْ يَمْنَعُ مِنْهَا أَوْ مِنَ الِاسْتِجَابَةِ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الْإِسْلَامِ مِنْ وَاجِبَاتِ الدِّينِ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْمُرْسَلِينَ وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّبْلِيغِ عَنْهُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً".
- الْقِسْمُ الثَّانِي: أَنْ يُقِيمَ لِدِرَاسَةِ أَحْوَالِ الْكَافِرِينَ وَالتَّعَرُّفِ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ فَسَادِ الْعَقِيدَةِ، وَبُطْلَانِ التَّعَبُّدِ وَانْحِلَالِ الْأَخْلَاقِ، وَفَوْضَوِيَّةِ السُّلُوكِ لِيُحَذِّرَ النَّاسَ مِنَ الِاغْتِرَارِ بِهِم، وَيُبَيِّنَ لِلْمُعجبينَ بِهِ حَقِيقَةَ حَالِهِمْ، وَهَذِهِ إِقَامَةٌ نَوْعٌ مِنَ الْجِهَادِ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ التَّحْذِيرِ مِنَ

الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ الْمُتَضَمِّنِ لِلتَّرْغِيبِ فِي الْإِسْلَامِ وَهديه؛ لِأَنَّ فَسَادَ الْكُفْرِ دَلِيلٌ عَلَى صَلَاحِ الْإِسْلَامِ كَمَا قِيلَ وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ.

لَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ شَرْطِ أَنْ يَتَحَقَّقَ مُرَادُهُ بِدُونِ مَفْسَدَةٍ أَعْظَمَ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ مُرَادُهُ بِأَنْ مُنِعَ مِن نَشرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَالتَّحْذِيرَ مِنْهُ فَلَا فَائِدَةَ مِنْ إِقَامَتِهِ، وَإِنْ تَحَقَّقَ مُرَادُهُ مَعَ مَفْسَدَةٍ أَعْظَمَ مِثْلَ أَنْ يُقَابِلُوا فِعْلَهُ بِسَبِّ الْإِسْلَامِ وَرَسُولِ الْإِسْلَامِ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَجَبَ الْكَفُّ عَنْ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]. وَيُشْبِهَ هَذَا أَنْ يُقِيمَ فِي بِلَادِ اَلْكُفْرِ لِيَكُونَ عَينَا لِلْمُسْلِمِينَ؛ لِيَعْرِفَ مَايْدِبْرُوَهْ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ اَلْمَكَايِدِ فَيَحَذَرُهُمْ اَلْمُسْلِمُونَ كَمَا أَرْسَلَ اَلنَّبِيُّ صَلَّى اَللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُذَيْفَةَ بْنَ اَلْيَمَانِ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُ إِلَى اَلْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ اَلْخَنْدَقِ لِيَعْرِفَ خَبَرَهُمْ.

- الْقِسْمُ الثَّالِثُ: أَنْ يُقِيمَ لِحَاجَةِ الدَوْلَةِ إِسْلَامِيَّةٍ وَقَضْيٍ بِمُعَامَلَاتِهَا مَعَ دُوَلِ الْكُفْرِ كَمُوَظَّفِي السِّفَارَاتِ، فَحُكْمُهَا حُكْمُ مَا أَقَامَ مِنْ أَجْلِهِ، فَالْمُلْحَقُ الثَّقَافِيُّ مَثَلًا يُقِيمُ لِيَرْعَى شُؤُونَ الطَّلَبَةِ وَيُرَاقِبَهُمْ وَيَحْمِلَهُمْ عَلَى الْتِزَامِ دِينِ الْإِسْلَامِ وَأَخْلَاقِهِ وَآدَابِهِ فَيَحْصُلُ بِإِقَامَتِهِ مَصْلَحَةٌ كَبِيرَةٌ وَيندَرِءُ بِهَا شَرٌّ كَبِيرٌ".

- **الْقِسْمُ الرَّابِعُ: أَنْ يُقِيمَ لِحَاجَةٍ خَاصَّةٍ مُبَاحَةٍ كَالتِجَارَةِ وَالعلَاجِ، فَتُبَاحُ الْإِقَامَةُ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ وَقَدْ نَصَّ أهل العلمِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَى جَوَازِ دُخُولِ بِلَادِ الْكُفْرِ لِلتِّجَارَةِ وَأثَرُوا ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ."** فَهَذِهِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ.
- وَأَمَّا الْقِسْمُ الْخَامِسُ: **"أنْ يُقِيمَ لِلدِّرَاسَةِ وَهِيَ مِنْ جِنْسِ مَا قَبْلَهُ إِقَامَةٌ لِحَاجَةٍ لَكِنَّهَا أَخْطَرُ مِنْهَا وَأَشَدُّ فَتْكًا بِدِينِ الْمُقِيمِ وَأَخْلَاقِهِ فَإِنَّ الطَّالِبَ يَشْعُرُ بِدُنُوِّ مَرْتَبَتِهِ، وَعُلُوِّ مَرْتَبَةِ مُعَلِّيمِهِ فَيَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ تَعْظِيمُهُ وَالِاقْتِدَاءُ بِآرَائِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ فَيُقَلِّدَهُمْ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ عِصْمَتَهُ وَهُمْ قَلِيلٌ. ثُمَّ إِنَّ الطَّالِبَ يَشْعُرُ بِحَاجَتِهِ إِلَى مُعَلِّمه فَيُؤَدِّي ذَلِكَ إِلَى التَّوَدُّدِ إِلَيْهِ وَمُدَاهَنَتِهِ فِي مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الِانْحِرَافِ وَالضَّلَالِ. وَالطَّالِبُ فِي مَقَرِّ تَعَلُّمِهِ لَهُ زُمَلَاءُ يَتَّخِذُ مِنْهُمْ أَصْدِقَاءَ يُحِبُّهُمْ وَيَتَوَلَّاهُمْ وَيَكْتَسِبُ مِنْهُمْ. وَمِنْ أَجْلِ خَطَرِ هَذَا الْقِسْمِ وَجَبَ التَّحَفُّظُ فِيهِ أَكْثَرَ مِمَّا قَبْلَهُ فَيُشْتَرَطُ فِيهِ بِالْإِضَافَةِ لِلشَّرْطَيْنِ الْأَسَاسِيَّيْنِ شُرُوطٌ أُخْرَى:**

١. **الشَّرْطُ الْأَوَّلُ: أَنْ يَكُونَ الطَّالِبُ عَلَى مُسْتَوَى كَبِيرٍ مِنَ النُضج الْعَقْلِيِّ الَّذِي يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ وَيَنْظُرُ بِهِ لِلْمُسْتَقْبَلِ الْبَعِيدِ. فَأَمَّا بَعثُ الْأَحْدَاثِ الَّذِينَ لَهُمْ صِغَارُ السِّنِّ وَلَهُمْ الْعُقُولُ الصَّغِيرَةُ فَهُوَ خَطَرٌ عَظِيمٌ عَلَى دِينِهِم وَخُلُقِهِم وَسُلُوكِهِم ثُمَّ هُوَ خَطَرٌ عَلَى**

أُمَّتِهِ الَّتِي سَيَرْجِعُونَ إِلَيْها وَيُنفِقُونَ فِيهَا مِنَ السُّمومِ مِنَ الَّتِي نَهلُوهَا من أُولَئِكَ الْكُفَّارِ كَمَا شَهِدَ وَيَشْهَدُ بِهِ الْوَاقِعُ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أُولَئِكَ الْمَبْعُوثِينَ رَجَعُوا بِغَيْرِ مَا ذهبُوا بِهِ، رَجَعُوا مُنْحَرِفِينَ فِي دِيَانَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ وَسُلُوكِهِمْ، وَحَصَلَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مُجْتَمَعِهِمْ مِنَ الضَّرَرِ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مُشاهَد وَمَا مَثَلُ بَعْثِ هَؤُلَاءِ إِلَّا كَمَثَلِ تَقْدِيمِ النِّعاجِ الْكِلَابِ الضَّارِيَةِ.

٢. الشَّرْطُ الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الطَّالِبِ مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ مَا يَتَمَكَّنُ بِهِ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَمُقَارَنَةِ الْبَاطِلِ بِالْحَقِّ لِئَلَّا يَنْخَدِعَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبَاطِلِ فَيَظُنَّهُ حَقًّا أَوْ يَلْتَبِسُ عَلَيْهِ أَوْ يَعْجَزَ عَنْ دَفْعِهِ فَيَبْقَى حَيْرَانًا أَوْ مُتَّبِعًا لِلْبَاطِلِ، وَفِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ: "اللَّهُمَّ أَرِنِي الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنِي اتِّبَاعَهُ وَأَرِنِي الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنِي اجْتِنَابَهُ وَلَا تَجْعَلْهُ يَلْتَبِسُ عَلَيَّ فَأَضِلَّ."

٣. الشَّرْطُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الطَّالِبِ دِينٌ يَحْمِيهِ، وَيَتَحَصَّنُ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ، فَضَعِيفُ الدِّينِ لَا يَسْلَمُ مَعَ الْمُقَامَةِ هُنَاكَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ الْمُهاجِمِ وَضَعْفِ الْمُقَاوِمِ، فَأَسْبَابُ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ هُنَاكَ قَوِيَّةٌ وَكَثِيرَةٌ فَإِذَا صادفتْ محَلاً ضَعِيفِ الْمُقَاوَمَةِ عَمِلَتْ فِيهِ عَمَلَهَا.

٤. الشَّرْطُ الرَّابِعُ: أَنْ تَدْعُوَ الْحَاجَةُ إِلَى العلمِ الَّذِي أَقَامَ مِنْ أَجْلِهِ بِأَنْ يَكُونَ فِي تَعَلُّمِهِ مَصْلَحَةٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَا يُوجَدُ لَهُ نَظِيرٌ فِي الْمَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ فِي بِلَادِهِ، فَإِنْ كَانَ مِنْ فُضُولِ الْعِلْمِ الَّذِي لَا مَصْلَحَةَ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ، أَوْ كَانَ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْجَامِعَاتِ وَالْمَدَارِسِ وَنَظِيرُهُ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقِيمَ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ مِنْ أَجْلِهِ بِمَا فِي الْإِقَامَةِ مِنْ خَطَرَانِ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ وَإِضَاعةُ الْأَمْوَالِ الْكَثِيرَةِ بِدُونِ فَائِدَةٍ.

٥. الْقِسْمُ الخامسِ: أَنْ يُقِيمَ لِلسَّكَنِ وَهَذَا أَخْطَرُ مِمَّا قَبْلَهُ وَأَعْظَمُ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَفَاسِدِ بِالِاخْتِلَاطِ التَّامِّ بِأَهْلِ الْكُفْرِ، وَشُعُورِهِ بِأَنَّهُمْ مُوَاطِنٌ مُلْتَزِمٌ بِمَا تَقْتَضِيهِ الْوَطَنِيَّةُ مِنْ مَوَدَّةٍ وَمُوَالَاةٍ، وَتَكْثِيرٍ لِسَوَادِ الْكُفَّارِ وَيتَرَبّى أَهْلِهِ بَيْنَ أَهْلِ الْكُفْرِ، فَيَأْخُذُونَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ وَرُبَّمَا قَلَّدُوهُمْ فِي الْعَقِيدَةِ وَالتَّعَبُّدِ. وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَهُوَ مِثْلُهُ." وَهَذَا الْحَدِيثُ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفَ السَّنَدِ لَكِنَّهُ وُجْهَةُ من النَظَر فَإِنَّ الْمُسَاكَنَةَ تَدْعُو إِلَى الْمُشَاكَلَةِ وَيُؤَيِّدُهُ مَا جَاءَ عَنْ قَيْسِ بْنِ حَازِمٍ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ." قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِمَ؟ قَالَ: "لا تَرَاءى نَارُهُمْا." رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ. وأكثرُ الرَوَاهُ مُرْسَلًا عَنْ قَيْسِ بْنِ حَازِمٍ

عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ التِّرْمِذِيُّ: سَمِعْتُ مُحَمَّدًا يَعْنِي الْبُخَارِيَّ يَقُولُ: "الصَّحِيحُ حَدِيثُ قَيْسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلٌ."فَهَذَا بَيَانُ الْحَدِيثِ.

وَأَمَّا فِي أَمْرِ الْهِجْرَةِ فَيَقُولُ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ: **"وكَيْفَ تَطِيبُ نَفْسُ مُؤْمِنٍ أَنْ يَسْكُنَ فِي بِلَادِ كُفَّارٍ تُعْلَنُ فِيهِ شَعَائِرُ الْكُفْرِ، وَيَكُونُ الْحُكْمُ فِيهِ لغَيْرِ اللهِ ورَسُولِه، وَهُوَ يُشَاهِدُ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ وَيَسْمَعُهُ بِأُذُنِهِ وَيَرْضَى بِهِ، بَلْ يَنْتَسِبُ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ وَيَسْكُنُ فِيهَا بِأَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا كَمَا يَطْمَئِنُّ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَطَرِ الْعَظِيمِ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ فِي دِينِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ."**

يَقُولُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"هَذَا مَا تَوَصَّلْنَا إِلَيْهِ فِي حُكْمِ الْإِقَامَةِ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ. أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِلْحَقِّ وَالصَّوَابِ."** وإِنَّ الْمَرْءَ لَيعَجَبَ مِنْ أُنَاسٍ يَتْرُكُونَ أَوْطَانَهُمْ، يَتْرُكُونَ دِيَارَهُمْ، يَتْرُكُونَ أُمَّتَهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى هَذِهِ الدُّوَلِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرْفَعُوا شَأْنَها، وَأَنْ يُعْلُوا اقْتِصَادَها، وَأَنْ يُسَاهِمُوا فِي حَضَارَتِها. أَلَا يَعْلَمُ هَؤُلَاءِ أَنَّ هَذِهِ الِاقْتِصَادِيَّاتِ، وَهَذِهِ العلومُ إِنَّمَا تُسْتَخْدَمُ لِتَدْمِيرِ الْمُسْلِمِينَ، إِنَّمَا تُسْتَخْدَمُ لِرَفْعِ رَايَةِ عَقِيدَةِ هَؤُلَاءِ الضَّالِّينَ الْمُضِلِّينَ، إِنَّمَا تُسْتَخْدَمُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ سِلَاحًا يُقْتَلُ بِهِ أَهْلُ الْإِسْلَامِ، أَوْ صَارُوخًا تُدَمَّرُ بِهِ بِلَادُهُمْ أَوْ مَادَّةٌ تَكُونُ سَبَبًا فِي ضَعْفِهِمْ وَهُزَالِهِمْ.

وَلَكِنْ حِينَ يَفْقِدُ الْمَرْءُ الغَيرةَ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَفْقِدُ الْمَرْءُ الغَيرةَ عَلَى دِينِهِ، وَيَفْقِدُ الْمَرْءُ ِدُ الْمَرْءُ الغَيرةَ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَفْقِدُ الْمَرْءُ الغَيرةَ عَلَى دِينِهِ، وَيَفْقِدُ الْمَرْءُ الغَيرةَ عَلَى أُمَّتِهِ فَإِنَّهُ يَهونُ عَلَيْهِ فِعلُ أَيِّ شَيْءٍ. وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ دَيُّوثٌ." قِيلَ: وَمَنِ الدَّيُّوثُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "الَّذِي يُقِرُّ الْخَنىَ فِي أَهْلِهِ." فَانْظُرْ إِلَى رَجُلٍ يَرْضَى أَنْ يُقِيمَ بِوَلَدِهِ وَامْرَأَتِهِ بَيْنَ دُعَارٍ يَتَرَاوَنَ وَهُمْ يُقَبِّلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَأْتِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى مَلَأٍ وَمسمعٍ، تَمْشِي النِّسَاءُ سَافِرَاتٍ عَاهِرَاتٍ، وَيَمْشِي الرِّجَالُ مَخْمُورِينَ سُكْارَى، وَهَذَا كُلُّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَبَيْنَ أعيُنِ المُسْلِمِ يَرَاهُ وَيَرضى بِأَنْ يَكُونَ عَلَى هَذَا الْحَالِ.

فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَأْذَنَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعُودُوا إِلَى دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَتْرُكُوا هَذِهِ الدِّيَارَ الَّتِي هَاجَرُوا إِلَيْها مِنْ أَجْلِ حَفْنَةٍ مِنَ الدُّولَارَاتِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرْجِعُوا إِلَى بِلَادِهِمْ لِيَبْنُوا الْأَبْرَاجَ وَالْعِمَارَاتِ. أَلا شاهَتِ الْوُجُوهِ الَّتِي يُغَامِرُ أَصْحَابُهَا بِأَدْيَانِهِمْ، يُغَامِرُ أَصْحَابُهَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَعُودُونَ أَوْ لَا يَعُودُونَ، يَفْلَحُونَ أَوْ لَا يُفْلِحُونَ وَهِيَ فِي الْمُنْتَهَى مُغَامَرَةٌ وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ الميسِرَ لِمَا فِيهِ مِنَ الْغَرَرِ وَالْمُغَامَرَةِ.

لَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَانًا عِلْمِيًّا وَعَمَلِيًّا لِدِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَعَلَّمَ دِينَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي قَالِهِ، وَأَنْ يَتَعَلَّمَ دِينَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْكَامِهِ، فَلْيَنْظُرْ فِيمَا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَحَادِيثِهِ وَبَيَانِهِ.

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ دِينَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَفْعَالِهِ وَأَحْوَالِهِ وَمَقَامَاتِهِ، فَلْيَنْظُرْ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَدْيِهِ؛ لِأَنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِلَّا كَانَ فِيهِ مِنْ أَوَّلِ الْمُؤْتَمِرِينَ، وَمَا نَهَى اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَنْ نَهْيٍ إِلَّا كَانَ فِيهِ مِنْ أَوَّلِ الْمُنْتَهِينَ، وَمَا حَضَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ عَلَى فَضِيلَةٍ إِلَّا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهَا مِنْ أَوَّلِ الْمُسَارِعِينَ، وَمَا نَدَبَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِلَى مَكْرُمَةٍ إِلَّا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهَا مِنَ السَّابِقِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ صَبَاحِهِ إِلَى مَسَائِهِ، وَمِنْ غُدُوِّهِ إِلَى رَوَاحِهِ، فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَجَمِيعِ أَعْمَالِهِ وَجَمِيعِ أَفْعَالِهِ.

فَمَعْرِفَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِيَ أَسْلَمُ طَرِيقٍ لِمَعْرِفَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ﴾ [الحشر: ٧]. وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فَحَرِيٌّ بِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَسْتَقِيمَ لَهُ أَقْوَالُهُ وَتَسْتَقِيمَ لَهُ أَفْعَالُهُ وَأَحْوَالُهُ حَتَّى يَكُونَ خَلْفَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صِرَاطِهِ الَّذِي صَارَ عَلَيْهِ وَفِي طَرِيقِهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنْظَرُ فِي هَدْيِهِ وَسِيرَتِهِ مِنْ يَوْمِ بَعْثَتِهِ إِلَى يَوْمِ مَمَاتِهِ، مِنْ يَوْمِ أَنْ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِـ ﴿اقْرَأْ﴾ إِلَى أَنْ نَزَلَ عَلَيْهِ مَلَكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَهُ الشَّرِيفَةَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالْمَرْءُ سَيُسْأَلُ عَنْ نَبِيِّهِ فِي قَبْرِهِ، سَيُسْأَلُ عَنْ حَالِهِ مَعَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَعْرِفَتِهِ، وَفِي اتِّبَاعِهِ، وَفِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، سَيُسْأَلُ عَنْهُ فِي قَبْرِهِ حِينَ يُسْأَلُ عَنْ رَبِّهِ وَيُسْأَلُ عَنْ دِينِهِ وَيُسْأَلُ عَنْ نَبِيِّهِ. لِذَا يَنْبَغِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حَرِيٍّ أَنْ يَكُونَ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ، أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ كَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ بَعْثَتِهِ، وَكَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ بَعْثَتِهِ، وَكَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِهَادِهِ وَجَلَادِهِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَكَيْفَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ زَادَهَا اللَّهُ تَشْرِيفًا وَمهَابَةً وَتَكْرِيمًا. وَقَدْ ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا كَانَ مِنْ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِ مُكْثِهِ فِي مَكَّةَ وَعِنَادِ الْمُعَانِدِينَ وَجَلَادِ الْمُجَالِدِينَ لِصَرْفِ النَّاسِ عَنْ دِينِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا كَانَ مِنْ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ لَمَّا وَجَدَ عَنْتًا وَحَرَجًا مِنْ صَنَادِيدِ الشِّرْكِ.

وَتَعَرَّضَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى بَيَانِ أَحْكَامِ الْهِجْرَةِ، وَوَفَّى مَا يَنْبَغِي عَلَى مَنْ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى بِلَادِ الْكُفْرِ وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ مِنْ بِلَادِ الْكُفْرِ، فَجَزَى اللَّهُ الْمُصَنِّفَ خَيْرًا.

ثُمَّ تَكَلَّمَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ حَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ مِثْلُ:الزَّكَاةِ، والصَّوْمِ، والْحَجِّ، والْجِهَادِ، والْأَذَانِ، والْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ".**

قَالَ الشَّارِحُ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ: **"يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَمَّا اسْتَقَرَّ أَيِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ أَمَرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي مَكَّةَ دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ نَحْوَ عَشْرِ سِنِينَ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ فُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِي مَكَّةَ ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَمْ تُفْرَضْ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ وَلَا الصِّيَامُ وَلَا الْحَجُّ وَلَا غَيْرُهَا مِنْ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ. وَظَاهِرُ كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ الزَّكَاةَ فُرِضَتْ أَصْلًا وَتَفْصِيلًا فِي الْمَدِينَةِ، وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ. فَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الزَّكَاةَ فُرِضَتْ أَوَّلًا فِي مَكَّةَ لَكِنَّهَا لَمْ تُقَدَّرْ أَنْصِبَابُهَا وَلَمْ يُقَدَّرِ الْوَاجِبُ فِيهَا فِي مَكَّةَ وَإِنَّمَا قُدِّرَتْ تِلْكَ الْأَنْصِبَاءُ فِي الْمَدِينَةِ وَقُدِّرَ الْوَاجِبُ فِيهَا.**

وَاسْتَدَلَّ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُ جَاءَتْ آيَاتٌ تُوجِبُ الزَّكَاةَ فِي سُورَةٍ مَكِّيَّةٍ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٤١]،

وَمِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]". وَسُورَةُ الْأَنْعَامِ وَسُورَةُ الْمَعَارِجِ مَعْلُومٌ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَكَّةَ.

"وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَاسْتِقْرَارُ الزَّكَاةِ وَتَقْدِيرُ أَنْصبائِهَا، وَتَقْدِيرُ مَا يَجِبُ فِيهَا وَبَيَانُ مُسْتَحِقِّيهَا كَانَ فِي الْمَدِينَةِ" يَعْنِي الَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ الزَّكَاةَ وَفَرْضِيَّةَ الزَّكَاةِ وَتَقْدِيرَ تِلْكَ الْأَنْصبةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُخْرِجَ زَكَاتَهُ إِذَا بَلَغَ الْمَالُ ذَلِكَ النِّصَابَ وَمَا يَجِبُ فِيهَا وَبَيَانُ مُسْتَحِقِّيهَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي الْمَدِينَةِ.

"وَكَذَلِكَ الْأَذَانُ وَالْجُمُعَةُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْجَمَاعَةَ كَذَلِكَ" أَيْ صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ **"لَمْ تُفْرَضْ إِلَّا فِي الْمَدِينَةِ؛ لِأَنَّ الْأَذَانَ الَّذِي فِيهِ الدَّعْوَةُ لِلْجَمَاعَةِ فُرِضَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ، فَأَمَّا الزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ فَقَدْ فُرِضَا فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَأَمَّا الْحَجُّ فَلَمْ يُفْرَضْ إِلَّا فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ، وَذَلِكَ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَذَلِكَ حِينَ كَانَتْ مَكَّةُ بَلَدَ إِسْلَامٍ بَعْدَ فَتْحِهَا فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ، وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الشَّعَائِرِ الظَّاهِرَةِ فُرِضَتْ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ."**

وَبَعْدَ أَنْ اسْتَقَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَدِينَةِ: أَقَامَ دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ الْعَظِيمَ، **"أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ"** يَعْنِي أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فِي إِقَامَةِ الْأَحْكَامِ وَإِقَامَةِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ عَشْرَ سِنِينَ، **"وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ"**.

قَالَ الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"أَخَذَ أَيِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ بَعْدَ هِجْرَتِهِ، فَلَمَّا أَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ وَأَتَمَّ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، اخْتَارَهُ اللَّهُ لِجِوَارِهِ وَالْإِلْحَاقِ بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ. فَابْتَدَأَ بِهِ الْمَرَضُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي آخِرِ شَهْرِ صَفَرٍ وَأَوَّلِ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ.**

فَخَرَجَ إِلَى النَّاسِ عَاصِبًا رَأْسَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَتَشَهَّدَ وَكَانَ أَوَّلَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ اسْتَغْفَرَ لِلشُّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي أُحُدٍ ثُمَّ قَالَ: "إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ". فَفَهِمَهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَبَكَى وَقَالَ: "بِأَبِي وَأُمِّي نُفَدِّيكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا وَأَبْنَائِنَا وَأَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا." فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَلَى رِسْلِكَ يَا أَبَا بَكْرٍ." ثُمَّ قَالَ: "إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنَّ خُلَّةَ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتَهُ." وَهَذَا فِيهِ بَيَانُ فَهْمِ أَبِي بَكْرٍ لِكَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِلْمِهِ بِمُرَادِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَلَامِهِ، وَفِيهِ بَيَانُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهِمَ مَا فَهِمَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يُسَرِّيَ عَنْهُ.

"وَأَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْإِثْنَيْنِ الثَّانِي عَشَرَ أَوِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنَ السَّنَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ مِنَ الْهِجْرَةِ اخْتَارَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِجِوَارِهِ."

"فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ" أَيْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ **"جَعَلَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي مَاءٍ عِنْدَهُ وَيَمْسَحُ وَجْهَهُ وَيَقُولُ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ." ثُمَّ شَخَصَ بَصَرُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوَ السَّمَاءِ وَقَالَ: "اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى."** لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُخَيَّرُونَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ، فَخُيِّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْبَقَاءِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَبَيْنَ جِوَارِ الرَّحْمَنِ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى." يَعْنِي أَخْتَارُ أَنْ أَكُونَ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى.

"فَتُوُفِّيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَاضْطَرَبَ النَّاسُ وَحُقَّ لَهُمْ أَنْ يَضْطَرِبُوا" فَالْمُصَابُ جَلَلٌ وَالْأَمْرُ عَظِيمٌ. **"حَتَّى جَاءَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: "أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ." ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وَقَرَأَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]. فَاشْتَدَّ بُكَاءُ النَّاسِ وَعَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ مَاتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَغُسِّلَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي**

ثِيَابِهِ تَكْرِيمًا لَهُ، ثُمَّ كُفِّنَ بِثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ أَيْ لَفَائِفَ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ لَيسَ فِيهَا قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ.

وَصَلَّى النَّاسُ عَلَيْهِ أَرْسَالًا بِدُونِ إِمَامٍ ثُمَّ دُفِنَ لَيْلَةَ الْأَرْبِعَاءِ بَعْدَ أَنْ تَمَّتْ مبايعَةُ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ فَعَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ". تُوُفِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنْ دِينُهُ لَمْ يَمُتْ، بَلْ دِينُهُ بَاقٍ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَهَذَا دِينُه لَا خَيْرَ إِلَّا وَقَدْ دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا شَرَّ إِلَّا وَقَدْ حَذَّرَهَا مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ. الْخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمُهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَذَّرَ مِنَ الشِّرْكِ وَجَمِيعِ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَأْبَاهُ.

وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثَ أَيْ أُرْسِلَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، فَبَعْثَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَتْ إِلَى الْعَرَبِ وَلَا إِلَى الْعَجَمِ وَلَا إِلَى الْفُرْسِ وَلَا إِلَى الرُّومِ وَلَا إِلَى الْيَهُودِ وَلَا إِلَى النَّصَارَى، وَإِنَّمَا بَعْثَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ كُلِّهِ مِنْ شَرْقِهِ إِلَى غَرْبِهِ، وَمِنْ شَمَالِهِ إِلَى جَنُوبِهِ عَلَى تَغَايرِ أَزْمَانِهِ وَاخْتِلَافِ أَمَاكِنِهِ وَأَحْوَالِهِ.

قال المصنف رحمه الله: **"بَعَثَهُ اللَّهُ للنَّاسِ كَافَّةً وَافْتَرَضَ اللَّهُ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]."**

قال الشارِحُ رَحِمَهُ الله: **"فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ جَمِيعًا وَأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ مَنْ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ بِيَدِهِ الْإِحْيَاءُ وَالْإِمَاتَةُ وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُتَوَحِّدُ بِالْأُلُوهِيَّةِ كَمَا هُوَ مُتَوَحِّدٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ. ثُمَّ أَمَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِ الْآيَةِ أَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الرَّسُولِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَأَنْ نَتَّبِعَهُ وَأَنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ لِلْهِدَايَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، هِدَايَةِ الْإِرْشَادِ وَهِدَايَةِ التَّوْفِيقِ، فَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولٌ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ وَهُمُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَسُمُّوا بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ".**

أَرْسَلَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً **"وَأَكْمَلَ بِهِ الدِّينَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]."** فَدِينُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **"بَاقٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"** دِينُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الدِّينُ الْخَاتَمُ الَّذِي خَتَمَ اللَّهُ بِهِ الْأَدْيَانَ، {وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [آل عمران : ٨٥].

"فَمَا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَ لِلْأُمَّةِ جَمِيعَ مَا تَحْتَاجُهُ فِي جَمِيعِ شُؤُونِهَا حَتَّى قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "مَا تَرَكَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَائِرًا يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي السَّمَاءِ إِلَّا ذَكَرَ لَنَا مِنْهُ عِلْمًا." فَمَهْمَا احْتَاجَتِ الْأُمَّةُ إِلَى شَيْءٍ فِي أَمْرِ دِينِهَا أَوْ فِي أَمْرِ دُنْيَاهَا فِي نِزَاعَاتِهَا وَخِلَافَاتِهَا فِي أَحْوَالِهَا، وَأَعْمَالِهَا فَسَتَجِدُ فِي هَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَحُلُّ ذَلِكَ وَيُؤَدِّي إِلَى بَيَانِ الْحَقِّ فِيهِ. **"وَقَدْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ. - يَعْنِي حَتَّى عَلَّمَكُمْ آدَابَ قَضَاءِ الْحَاجَةِ - فَقَالَ سَلْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "نَعَمْ، لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ بِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ أَوْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ أَوْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ عَظْمٍ."** يَعْنِي نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَتْرُكْ لَكُمْ شَيْئًا مِمَّا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ حَتَّى ذَلِكَ الَّذِي يَسْتَحِي الْمَرْءُ أَنْ يَذْكُرَهُ فِي حَالِهِ فَقَدْ بَيَّنَ لَكُمْ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا تَفْعَلُونَ فِيهِ.

"فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَ كُلَّ الدِّينِ إِمَّا بِقَوْلِهِ وَإِمَّا بِفِعْلِهِ وَإِمَّا بِإِقْرَارِهِ، ابْتِدَاءً" مِنْ غَيْرِ سُؤَالٍ **"أَوْ جَوَابا عَنْ سُؤَالٍ. وَأَعْظَمُ مَا بَيَّنَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ التَّوْحِيدُ"** فَقَدْ بَيَّنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَانًا شَافِيًا. **"وَكُلُّ مَا أَمَرَ بِهِ فَهُوَ خَيْرٌ لِلْأُمَّةِ فِي مَعَادِهَا وَمَعَاشِهَا، وَكُلُّ مَا نَهَى عَنْهُ فَهُوَ شَرٌّ لِلْأُمَّةِ فِي مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا."** وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ ذَلِكَ مَا تَرَكُوا أَمْرًا إِلَّا سَارَعُوا لِلِائْتِمَارِ بِهِ، وَمَا تَجَرَّأُوا عَلَى نَهْيٍ إِلَّا وَمَا عَلِمُوا ذَلِكَ النَّهْيَ إِلَّا وَسَارَعُوا إِلَى الِابْتِعَادِ عَنْهُ.

"وَمَا يجَهلُهُ بَعْضُ النَّاسِ وَادَّعَوْهُ مِنْ ضِيقٍ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِخَلَلِ الْبَصِيرَةِ وَقِلَّةِ الصَّبْرِ وَضَعْفِ الدِّينِ، فَإِنَّ الْقَاعِدَةَ الْعَامَّةَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ وَأَنَّ الدِّينَ كُلَّهُ يُسْرٌ وَسُهُولَةٌ". الدِّينُ فِي ذَاتِهِ لَيْسَ فِيهِ حَرَجٌ وَلَا مَشَقَّةٌ، وَلَكِنْ يَأْتِي الْحَرَجُ مِمَّنْ يَجْهَلُونَ حَقِيقَةَ هَذَا الدِّينِ عِنْدَ بَيَانِهِ، أَوْ عِنْدَ تَعْلِيمِهِ، أَوْ عِنْدَ تَطْبِيقِهِ. لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيَّنَ مُرَادَهُ مِنْ هَذَا الدِّينِ **"فَقَالَ تَعَالَى:** ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ **[البقرة: ١٨٥]."** فَهَذَا مُرَادُ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ بِتَنْزِيلِ دِينِهِ وَتَشْرِيعِ شَرْعِهِ، لَا يُرِيدُ اللَّهُ بِنَا حَرَجًا وَلَا عُسْرًا وَلَا مَشَقَّةً.

"وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ **[الحج: ٧٨]".** فَكُلُّ مَا يَكُونُ هُوَ مِنَ الْحَرَجِ فَلَيْسَ مِنْ دِينِ اللَّهِ فِي شَيْءٍ.

"وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ **[المائدة: ٦]. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَمَامِ نِعْمَتِهِ وَإِكْمَالِ دِينِهِ."** بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَقُبِضَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

"وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١)﴾ **[الزمر: ٣٠-٣١]."** فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ أَنْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ.

"وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]". فَنَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّبِيُّ الْخَاتَمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً وَدِينُهُ هُوَ خَاتَمُ الْأَدْيَانِ، وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَيِّتٌ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ يَعْنِي صَائِرُ إِلَى الْمَوْتِ، ﴿وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ أَيْ صَائِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ. هَذِهِ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعِيَهَا: أَنْتَ فِي الْحَيَاةِ مَيِّتٌ طَالَمَا أَنَّكَ صَائِرٌ إِلَى الْمَوْتِ، فَعُدَّ لِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ عُدَّتَهَا وَلَا تَرْكَنْ إِلَى تِلْكَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ فَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهَا، إِنَّكَ مَيِّتٌ صَائِرٌ إِلَى الْمَوْتِ، سَتَمُوتُ الْيَوْمَ، أَوْ سَتَمُوتُ غَدًا، أَوْ بَعْدَ غَدٍ، أَوْ بَعْدَ عَامٍ، أَوْ بَعْدَ عَشْرٍ، أَوْ بَعْدَ عِشْرِينَ، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ، مَرَّتِ الْآجَالُ وَالْأَعْمَارُ عَلَى أُمَمٍ مُتَطَاوِلَةٍ كَانَتْ تَعِيشُ مِئَاتِ السِّنِينَ وَمَعَ ذَلِكَ مَرَّتْ عَلَيْهَا، وَكَمَا مَرَّتْ عَلَيْهَا تِلْكَ الْأَزْمَانُ سَتَمُرُّ عَلَيْنَا أَزْمَانُنَا وَنَلْقَى الْوَاحِدَ الدَّيَّانَ.

فَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ يُعْلِمُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ صَائِرٌ إِلَى الْمَوْتِ، وَأَنَّ أَصْحَابَهُ صَائِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ، وَأَنَّهُمْ سَيَخْتَصِمُونَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ، وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا.

"وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ" فَلَيْسَ الْمَوْتُ كَمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ رَاحَةٌ وَهَنَاءَةٌ وَاسْتِقْرَارٌ. فَيَقُولُ الْقَائِلُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ مَسَالِكُهُ وَاشْتَدَّتْ عَلَيْهِ مَضَارِبُهُ: يَقُولُ مَتَى نَمُوتُ وَنَسْتَرِيحُ بَعْدَ الْمَوْتِ رَاحَةً؟ لَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ رَاحَةٌ، إِنَّمَا بَعْدَ الْمَوْتِ حِسَابٌ وَعِقَابٌ أَوْ حِسَابٌ وَجَزَاءٌ وَجَنَّةٌ أَوْ نَارٌ.

فَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَخْبَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَّ مَنْ حَوْلَهُ سَيَمُوتُونَ **"وَالنَّاسَ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]" يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَحْيَاءً بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِلْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ، وَهَذَا هُوَ النَّتِيجَةُ مِنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ أَنْ يَعْمَلَ الْإِنْسَانُ لِهَذَا الْيَوْمِ، يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، الْيَوْمِ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ أَحْوَالِهِ وَأَهْوَالِهِ مَا يجعَلُ الْقَلْبَ يُنِيبُ إِلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيَخْشَى هَذَا الْيَوْمَ. قَالَ سُبْحَانَهُ فِي وَصْفِ هَذَا الْيَوْمِ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا (١٨)﴾ [المزمل: ١٧-١٨]."** تَشِيبُ فِيهِ الْوِلْدَانُ، الْوِلْدَانُ الصِّغَارُ تَشِيبُ رُؤُوسُهُمْ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

"وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ إِشَارَةٌ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْبَعْثِ وَاسْتَدَلَّ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَيَانِ ذَلِكَ بِآيَتَيْنِ" الْآيَةُ الْأُولَى: **﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨)﴾ [نوح: ١٧-١٨].**

{مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ} أَيْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ خَلَقْنَاكُمْ حِينَ خَلَقْنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ تُرَابٍ. **{وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ}** أَيْ بِالدَّفْنِ بَعْدَ الْمَوْتِ **{وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ}** أَيْ بِالْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨)﴾ [نوح: ١٧-١٨]. هَذِهِ الْآيَةُ مُوَافِقَةٌ تَمَامًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]. وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ جِدًّا وَقَدْ أَبدى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَعَادَ فِي إِثْبَاتِ الْمَعَادِ حَتَّى يُؤْمِنَ النَّاسُ بِذَلِكَ وَيَزْدَادُوا إِيمَانًا، وَيَعْمَلُوا لِهَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ الَّذِي نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْعَامِلِينَ لَهُ وَمِنَ السُّعَدَاءِ فِيهِ."

وَبَعْدَ الْبَعْثِ النَّاسُ يُحَاسَبُونَ وَعَلَى أَعْمَالِهِمْ يُجْزَوْنَ فَإِمَّا مُنَعَّمُونَ وَإِمَّا مُعَذَّبُونَ. "وَبَعْدَ الْبَعْثِ يُحَاسَبُونَ وَمُجْزَيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]. يَعْنِي: أَنَّ النَّاسَ بَعْدَ الْبَعْثِ يُجازَوْنَ وَيُحَاسَبُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وَبَيَانُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ [الزلزلة: ٧-٨]." يَعْنِي مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الْخَيْرِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ خَيْرًا يُجْزَى عَلَيْهِ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الشَّرِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنَ الشَّرِّ يُحَاسَبْ عَلَيْهِ. "وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]." يَأْتِي الْحِسَابُ عَلَى مَثَاقِيلِ الذَّرِّ، يَأْتِي الْحِسَابُ عَلَى الْأُمُورِ الَّتِي كَانَتْ تَمُرُّ كَأَنَّهَا

هَبَاءً فِي الْهَوَاءِ، فَيُؤْتَى بِهَا لِتَكُونَ حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً لِتَكُونَ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ عَالِيَةً أَوْ دَرَكَةً فِي النَّارِ سَافِلَةً، وَمِنْ كَرِيمِ فَضْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي عَطَائِهِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَجْزِي عَنِ الْحَسَنَةِ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَلَا يَجْزِي عَنِ السَّيِّئَةِ إِلَّا بِمِثْلِهَا **"قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]." فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سبعمائةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَامْتِنَانًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَهُوَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ تَفَضَّلَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ثُمَّ تَفَضَّلَ مَرَّةً أُخْرَى بِالْجَزَاءِ عَلَيْه هَذَا الْجَزَاءَ الْوَاسِعَ الْكَثِيرَ. أَمَّا الْعَمَلُ السَّيِّءُ فَإِنَّ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا لَا يُجَازَى الْإِنْسَانُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]." وَهَذَا مِنْ كَمَالِ فَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.**

"وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ" يَعْنِي مَنْ كَذَّبَ بِأَنَّهُ سَيَحْيَا بَعْدَ الْمَوْتِ فَقَدْ كَفَرَ. **"وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]".** فَهَذَا الزَّعْمُ صَيَّرَهُمْ إِلَى الْكُفْرِ فَصَارُوا بِهِ كَافِرِينَ.

ثُمَّ اسْتَدَلَّ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ مَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ فَقَدْ كَفَرَ بِقَوْلِ الْكَافِرِينَ عَنْ أَمْرِ الْبَعْثِ أَنَّهُ زَعْمٌ، **"فَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ فَهُوَ كَافِرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَلَوْ تَرَىٰ**

إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)﴾ [الأنعام: ٢٩-٣٠]." فَانْظُرْ كَيْفَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِتَكْذِيبِهِمْ بِأَمْرِ الْبَعْثِ، وَظَنِّهِمْ أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا هِيَ نِهَايَةُ الْمَطَافِ، وَقَالَ تَعَالَى مُتَوَعِّدًا هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ: **﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾ [المطففين: ١٠-١٧]".** فَانْظُرْ إِلَى جَزَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا، خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَمَّا جَزَاؤُهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَإِنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يَحْجُبُهُمْ عَنْ رُؤْيَةِ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ يَصْلَوْنَ النَّارَ وَبِئْسَ الْقَرَارُ، وَهَذَا كُلُّهُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِالْبَعْثِ.

"قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣]."

فَانْظُرْ كَيْفَ اسْتَدَلَّ الشَّيْخُ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَهَذَا الزَّعْمُ الَّذِي زَعَمُوهُ أَدَّى بِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ.

وَلَكِنْ كَيْفَ يُمْكِنُ إِقْنَاعُ هَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ بِالْبَعْثِ؟

قَالَ الشَّارِحُ رَحِمَهُ اللَّهُ: حِينَمَا نُجَادِلُ هَؤُلَاءِ فَإِنَّنَا نُبَيِّنُ لَهُمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ ضَلَالٍ بِأُمُورٍ عِدَّةٍ:

- **أَوَّلًا: أَنَّ أَمْرَ الْبَعْثِ تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ وَالشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ، وَتَلَقَّتْهُ أُمَمُهُمْ بِالْقَبُولِ، كَيْفَ تُنْكِرُونَهُ وَأَنْتُمْ تُصَدِّقُونَ بِمَا يُنْقَلُ إِلَيْكُمْ عَنْ فَيْلَسُوفٍ أَوْ صَاحِبِ مَبْدَأٍ أَوْ فِكْرَةٍ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ مَا بَلَغَهُ الْخَبَرُ عَنِ الْبَعْثِ لَا فِي وَسِيلَةِ النَّقْلِ وَلَا فِي شَهَادَةِ الْوَاقِعِ؟"**. يَعْنِي هَذَا الَّذِي تُصَدِّقُونَهُ وَلَيْسَ بِمَنْ يُوحَى إِلَيْهِ وَلَا مِمَّنْ بُعِثَ وَكُلِّفَ بِتَبْلِيغِ مَا أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَكَيْفَ تُصَدِّقُونَهُ وَتُنْكِرُونَ الْخَبَرَ عَنِ الْبَعْثِ فِي أَعْظَمِ وَسَائِلِهِ وَفِي أَفْضَلِ طُرُقِه وَهُوَ الْوَحْيُ الْمُنَزَّلُ مِنَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.
- **ثَانِيًا: أَنَّ أَمْرَ الْبَعْثِ قَدْ شَهِدَ الْعَقْلُ بِإِمْكَانِهِ وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ مِنْهَا:**

١. **أَنْ كُلَّ أَحَدٍ لَا يُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا بَعْدَ الْعَدَمِ، وَأَنَّهُ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، فَالَّذِي خَلَقَهُ وَأَحْدَثَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ، يَكُنْ قَادِرًا عَلَى إِعَادَتِهِ بِالْأَوْلَى. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]"**. يَعْنِي لَا يُنْكِرُ أَحَدٌ أَنَّهُ خُلِقَ بَعْدَ الْعَدَمِ يَعْنِي أَنَّهُ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّ لَهُ

مُحْدِثًا وَأَنَّ لَهُ خَالِقًا فَهَذَا الَّذِي أَحْدَثَهُ مِنْ عَدَمٍ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي الْحَيَاةِ شَيْئًا.

٢. مِنْ ذَلِكَ أَيْضًا مِنْ تِلْكَ الْوُجُوهِ وَهُوَ الْوَجْهُ الثَّانِي: **"كُلُّ أَحَدٍ لَا يُنْكِرُ عَظَمَةَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِكِبَرِهِمَا وَبَدِيعِ صَنْعَتِهِمَا"** يَعْنِي الشَّمْسُ فِي عُلُوِّهَا وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْبِحَارُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ فَهَذِهِ مَخْلُوقَاتٌ عَظِيمَةٌ **"فَالَّذِي خَلَقَهَا قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ النَّاسِ وَإِعَادَتِهِمْ بِالْأَوْلَى. قَالَ تَعَالَى فِي بَيَانِ ذَلِكَ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨١-٨٢]"**.

٣. الْوَجْهُ الثَّالِثُ: **"كُلُّ ذِي بَصَرٍ يُشَاهِدُ الْأَرْضَ مُجْدِبَةً مَيْتَةً لَا زَرْعَ فِيهَا وَلَا نَبَاتَ، فَإِذَا نَزَلَ الْمَطَرُ عَلَيْهَا أَخْصَبَتْ وَحَيَّ نَبَاتُهَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْقَادِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَبَعْثِهِمْ. وَقَدْ بَيَّنَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ**

الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]."

- **الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّ أَمْرَ الْبَعْثِ قَدْ شَهِدَ الْحِسُّ وَالْوَاقِعُ بِإِمْكَانِهِ فِيمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ وَقَائِعِ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى. وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي خَمْسِ حَوَادِثَ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]."** هَذَا أَمْرٌ لَا يُنْكِرُهُ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِحْيَاءِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ، وَهُمْ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ فَأَحْيَاهُ اللَّهُ بَعْدَ أَنْ أَمَاتَهُ مِئَةَ عَامٍ.
- **الْوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّ الْحِكْمَةَ تَقْتَضِي الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ لِتُجَازَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ خَلْقُ النَّاسِ عَبَثًا لَا قِيمَةَ لَهُ وَلَا حِكْمَةَ مِنْهُ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ الْبَهَائِمِ فَرْقٌ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ"** لَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَأْتِي هَكَذَا وَتَمُرُّ هَكَذَا، بِلَا جَزَاءٍ وَلَا حِسَابٍ فَهِيَ عَبَثٌ يُظْلَمُ الْمَظْلُومُ وَيَظْلِمُ الظَّالِمُ وَتَسْتَوِي الْأُمُورُ بَيْنَ ظَالِمٍ وَمَظْلُومٍ وَهَذَا

لَا يَلِيقُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. **"قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠)﴾ [النحل: ٣٨-٤٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]".**

"فَإِذَا بَيَّنْتَ هَذِهِ الْبَرَاهِينَ لِمُنْكِرِ الْبَعْثِ وَأَصَرُّوا عَلَى إِنْكَارِهِمْ فَهُمْ مُكَابِرُونَ مُعَانِدُونَ، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]."

مَا الْغَايَةُ مِنْ إِرْسَالِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلرُّسُلِ؟ لَقَدْ أَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ. **"أَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]".** فَجَمِيعُ الرُّسُلِ أَرْسَلَهُمُ

اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، **"يُبَشِّرُونَ مَنْ أَطَاعَهُمْ بِالْجَنَّةِ وَيُنْذِرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ بِالنَّارِ".**

"وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ لَهُ حِكَمٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَهَمِّهَا بَلْ هُوَ أَهَمُّهَا:

- **أَنْ تَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَى النَّاسِ حَتَّى لا يَكُونَ لَهُمْ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ إِرْسَالِ الرُّسُلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]".** وَهَذِهِ الْحُجَّةُ قَائِمَةٌ بَعْدَ مَوْتِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ بِالدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَالْعُلَمَاءِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ يُرْسِلُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِبَيَانِ مَا يَجِبُ عَلَى قَوْمِهِ وَالرَّسُولَ يُرْسِلُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِشَرِيعَةٍ جَدِيدَةٍ لِبَيَانِ مَا يَنْبَغِي عَلَيْهِمْ فِيمَا أُحْدِثَ فِيهِمْ مِمَّا صَرَفَهُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَإِذَا مَا قُبِضَ الرَّسُولُ لَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ قَدِ انْتَفَتْ عَنْهُمُ الْحُجَّةُ بَلِ الْحُجَّةُ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ بِدَعْوَةِ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبِتَعْلِيمِ الْعُلَمَاءِ دِينَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.
- وَمِنْ حِكْمَةِ إِرْسَالِ الرُّسُلِ: **"أَنَّهُ مِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فَإِنَّ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ مَهْمَا كَانَ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُدْرِكَ تَفَاصِيلَ مَا يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْحُقُوقِ الْخَاصَّةِ بِهِ، وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى مَا لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ، وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَى مَا لَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى"** لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى غَيْبٌ، **"وَلِهَذَا أَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ**

عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ."

"وَأَعْظَمُ مَا دَعَا إِلَيْهِ الرُّسُلُ مِنْ أَوَّلِهِمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى آخِرِهِمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التوحيدُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]. وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]".

فَأَرْسَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الرُّسُلَ "وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٣]". بَيَّنَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ أَوَّلَ الرُّسُلِ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاسْتَدَلَّ لِذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٣]. وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ إِلَى نُوحٍ فَيَقُولُونَ لَهُ: "أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ." فَلَا رَسُولَ قَبْلَ نُوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَبِهَذَا نَعْلَمُ خَطَأَ الْمُؤَرِّخِينَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ إِدْرِيسَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَبْلَ نُوحٍ، بَلِ الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ إِدْرِيسَ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَآخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَخَاتَمُهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]. فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ عَنِ الْإِسْلَامِ."

"وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمَاتِ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ." يَعْنِي كُلُّ رَسُولٍ يَأْمُرُ قَوْمَهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ "وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ. وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]

وافْتَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "الطَّاغُوتُ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ."

فَكُلُّ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ أَرْسَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ "يَدْعُوَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَأَنْ يَنْهَاهُمْ عَنِ الشِّرْكِ. وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦]

فَاجْتِنَابُ الطَّاغُوتِ **"هُوَ مَعْنَى "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ".** يَعْنِي أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ".

وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بَيَّنَ أَمْرَ الطَّوَاغِيتِ، فَالطَّاغُوتُ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ ذَلِكَ فِي تَعْرِيفِ الطَّاغُوتِ، **"وَأَرَادَ بِهَذَا أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَاجْتِنَابِ الطَّاغُوتِ.**

" وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَى عِبَادِهِ" يَعْنِي اجْتِنَابَ عِبَادَةِ الطَّوَاغِيتِ هَذِهِ فَرِيضَةٌ فَرَضَهَا اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ. **"وَالطَّاغُوتُ مُشْتَقٌّ مِنَ الطُّغْيَانِ وَالطُّغْيَانُ هُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]. يَعْنِي لَمَّا زَادَ الْمَاءُ عَنِ الْحَدِّ الْمُعْتَادِ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ أَيْ فِي السَّفِينَةِ."** فَهَذَا هُوَ مَعْنَى الطَّاغُوتِ لُغَةً.

وَأَمَّا مَعْنَى الطَّاغُوتِ اصْطِلَاحًا فَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي تَعْرِيفِهِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ أَيِ الطَّاغُوتُ "كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ" وَمُرَادُهُ بِالْمَعْبُودِ وَالْمَتْبُوعِ وَالْمُطَاعِ غَيْرُ الصَّالِحِينَ، أَمَّا الصَّالِحُونَ فَلَيْسُوا طَوَاغِيتَ، وَإِنْ عُبِدُوا أَوِ اتُّبِعُوا أَوِ أُطِيعُوا فَالْأَصْنَامُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ طَوَاغِيتُ، وَعُلَمَاءُ السُّوءِ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ أَوْ يَدْعُونَ إِلَى الْبِدَعِ، وَمُخَالَفَةِ هَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ يَدْعُونَ إِلَى تَحْرِيمِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ أَوْ إِلَى تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ هَؤُلَاءِ

طَوَاغِيتُ، وَالَّذِينَ يُزَيِّنُونَ الْخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ لِمَا يضَعُونهُ مِنْ نُظُمٍ مُخَالِفَةٍ لِنِظَامِ دِينِ الْإِسْلَامِ هَؤُلَاءِ طَوَاغِيتُ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ تَجَاوَزُوا حَدَّهُمْ. فَإِنَّ حَدَّ الْعَالِمِ أَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ حَقِيقَةً وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ يَرِثُونَهُمْ فِي أُمَّتِهِمْ عِلْمًا وَعَمَلًا وَأَخْلَاقًا وَدَعْوَةً وَتَعْلِيمًا، فَإِذَا تَجَاوَزُوا هَذَا الْحَدَّ وَصَارُوا يُزَيِّنُونَ لِلْحُكَّامِ الْخُرُوجَ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ بِمِثْلِ هَذِهِ النُّظُمِ فَهَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ طَوَاغِيتُ لِأَنَّهُمْ تَجَاوَزُوا مَا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ مِنْ مُتَابَعَةِ الشَّرِيعَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ "أَوْ مُطَاعٍ" فَيُرِيدُ بِهِ الْأُمَرَاءَ الَّذِينَ يُطَاعُونَ شَرْعًا أَوْ قَدَرًا، فَالْأُمَرَاءُ يُطَاعُونَ شَرْعًا إِذَا أَمَرُوا بِمَا لَا يُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ، وَأَمْرَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِي هَذِهِ الْحَالِ لَا يُصَدَّقُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ طَوَاغِيتُ وَالْوَاجِبُ عَلَى الرَّعِيَّةِ السَّمْعُ لَهُمْ وَالطَّاعَةُ، وَطَاعَتُهُمْ لِوُلَاةِ الْأَمْرِ فِي هَذَا الْحَالِ بِهَذَا الْقَيْدِ طَاعَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ نُلَاحِظَ حِينَ نُنَفِّذُ مَا أَمَرَ بِهِ وَلِيُّ الْأَمْرِ مِمَّا تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيهِ أَنَّنَا فِي ذَلِكَ نَتَعَبَّدُ لِلَّهِ تَعَالَى وَنَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ، فَنَحْنُ لَا نُطِيعُ وُلَاةَ الْأَمْرِ وَإِنَّمَا نُطِيعُهُمْ طَاعَةً لِلَّهِ وَاتِّبَاعًا لِمَنْهَجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّنَا نُنَفِّذُ مَا أَمَرَ بِهِ وَلِيُّ الْأَمْرِ مِمَّا تَجِبُ طَاعَتُهُ فِيهِ تَعَبُّدًا لِلَّهِ وَتَقَرُّبًا إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ حَتَّى يَكُونَ تَنْفِيذُنَا لِهَذَا الْأَمْرِ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَنْبَغِي أَنْ نُلَاحِظَ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]". فَهَذَا أَمْرٌ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ. وَأَنْتَ حِينَمَا تُطِيعُ وَلِيَّ أَمْرِكَ إِنَّمَا تُطِيعُهُ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ لَا لِأَمْرِهِ هُوَ.

"وَأَمَّا طَاعَةُ الْأُمَرَاءِ قَدَرًا فَإِنَّ الْأُمَرَاءَ إِذَا كَانُوا أَقْوِيَاءَ فِي سُلْطَاتِهِمْ فَإِنَّ النَّاسَ يُطِيعُونَهُمْ بِقُوَّةِ السُّلْطَانِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِوَازِعِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ طَاعَةَ وَلِيِّ الْأَمْرِ تَكُونُ بِوَازِعِ الْإِيمَانِ وَهَذِهِ هِيَ الطَّاعَةُ النَّافِعَةُ النَّافِعَةُ لِوُلَاةِ الْأَمْرِ وَالنَّافِعَةُ لِلنَّاسِ أَيْضًا، وَقَدْ تَكُونُ الطَّاعَةُ بِوَازِعِ السُّلْطَانِ بِحَيْثُ يَكُونُ السُّلْطَانُ قَوِيًّا يَخْشَى النَّاسُ مِنْهُ وَيَهَابُونَهُ؛ لِأَنَّهُ يُنَكِّلُ بِمَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، فَهَذِهِ طَاعَةٌ تَقَعُ قَدَرًا لَا أَجْرَ عَلَيْهَا وَلَا فَضْلَ وَقَدْ تَكُونُ وِزْرًا وَإِثْمًا."

وَلِهَذَا يَقُولُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ: **"وَلِهَذَا نَقُولُ إِنَّ النَّاسَ مَعَ حُكَّامِهِمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَهُمْ أَحْوَالٌ:**

- **الْحَالُ الْأُولَى: أَنْ يَقْوَى الْوَازِعُ الْإِيمَانِيُّ وَالرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ وَهَذِهِ أَكْمَلُ الْأَحْوَالِ وَأَعْلَاهَا.**
- **الْحَالُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَضْعُفَ الْوَازِعُ الْإِيمَانِيُّ وَيَضْعُفَ كَذَلِكَ الرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ، وَهَذِهِ أَدْنَى الْأَحْوَالِ وَأَخْطَرُهَا عَلَى الْمُجْتَمَعِ عَلَى حُكَّامِهِ وَمَحْكُومِيهِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا ضَعُفَ الْوَازِعُ الْإِيمَانِيُّ وَالرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ**

حَصَلَتِ الْفَوْضَى الْفِكْرِيَّةُ وَالْخُلُقِيَّةُ ". وَكَمَا قَالَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ."

- **الْحَالَةُ الثَّالِثَةُ: أَنْ يَضْعُفَ الْوَازِعُ الْإِيمَانِيُّ وَيَقْوَى الرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ وُسْطَى؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَوِيَ الرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ صَارَ أَصْلَحَ لِلْأُمَّةِ فِي الْمَظْهَرِ، وَإِنِ اخْتَفَتْ قُوَّةُ السُّلْطَانِ فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حَالِ الْأُمَّةِ وَسُوءِ عَمَلِهَا.**
- **الْحَالُ الرَّابِعَةُ: أَنْ يَقْوَى الْوَازِعُ الْإِيمَانِيُّ وَيَضْعُفَ الرَّادِعُ السُّلْطَانِيُّ فَيَكُونُ الْمَظْهَرُ أَدْنَى مِنْهُ فِي الْحَالِ الثَّالِثَةِ لَكِنَّهُ فِيمَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَرَبِّهِ أَكْمَلُ وَأَعْلَى."**

"الطَّوَاغِيتُ" فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ **"كَثِيرَةٌ" "وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ".** رُؤُوسِ الطَّوَاغِيتِ خَمْسَةٌ: **"إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنِ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ".**

الطَّوَاغِيتُ **"جَمْعُ طَاغُوتٍ"** وَأَمَّا الرُّؤُوسُ **"فَهُمُ الزُّعَمَاءُ وَالْمُقَلِّدُونَ"** وَهُمْ خَمْسَةٌ وَإِبْلِيسُ عَلَى رَأْسِهِمْ **"هُوَ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ اللَّعِينُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]. وَكَانَ إِبْلِيسُ فِي صُحْبَةِ الْمَلَائِكَةِ يَعْمَلُ بِعَمَلِهِمْ وَلَمَّا أُمِرَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ ظَهَرَ مَا فِيهِ مِنَ الْخُبْثِ وَالْإِبَاءِ وَالِاسْتِكْبَارِ فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، فَطُرِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ**

أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]". فَهَذَا رَأْسُ الطَّوَاغِيتِ وَهُوَ إِبْلِيسُ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ: مَنْ عُبِدَ بِعِبَادَةٍ لَا تَجُوزُ إِلَّا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَهُوَ رَاضٍ **"أَيْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهُوَ رَاضٍ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنَّهُ مِنْ رُؤُوسِ الطَّوَاغِيتِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ وَسَوَاءٌ عُبِدَ فِي حَيَاتِهِ أَوْ بَعْدَ مَمَاتِهِ إِذَا مَاتَ وَهُوَ رَاضٍ بِذَلِكَ".**

"وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ" أَيْ مَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ لِأَنَّ مَنْ رَضِيَ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ يُجْزَى بِهِ **"لِأَنَّهُ مِنْ رُؤُوسِ الطَّوَاغِيتِ سَوَاءٌ أُجِيبَ لِمَا دَعَا إِلَيْهِ أَمْ لَمْ يُجَبْ."**

وَمِنْ رُؤُوسِ الطَّوَاغِيتِ: مَنِ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ **"وَالْغَيْبُ مَا غَابَ عَنِ الْإِنْسَانِ وَهُوَ نَوْعَانِ وَاقِعٌ وَمُسْتَقْبَلٌ. فَغَيْبُ الْوَاقِعِ نِسْبِيٌّ يَكُونُ لِشَخْصٍ مَعْلُومٍ وَلِآخَرَ مَجْهُولٍ، وَغَيْبُ الْمُسْتَقْبَلِ حَقِيقِيٌّ لَا يَكُونُ مَعْلُومًا لِأَحَدٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَمَنْ أَطْلَعَهُ عَلَيْهِ مِنَ الرُّسُلِ. فَمَنِ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَافِرٌ لِأَنَّهُ مُكَذِّبٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].**

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعْلِنَ لِلْمَلَأِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّ مَنِ ادَّعَى عِلْمَ الْغَيْبِ فَقَدْ كَذَّبَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَكَذَّبَ رَسُولَهُ فِي هَذَا الْخَبَرِ.

وَلِهَذَا نَقُولُ لِهَؤُلَاءِ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَعْلَمُوا الْغَيْبَ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ" وَهُوَ أَشْرَفُ الْخَلْقِ، أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَشْرَفُ الْخَلْقِ.

"فَإِنْ قَالُوا نَحْنُ أَشْرَفُ مِنَ الرَّسُولِ كَفَرُوا بِهَذَا الْقَوْلِ، وَإِنْ قَالُوا هُوَ أَشْرَفُ فَنَقُولُ لِمَاذَا يُحْجَبُ عَنْهُ الْغَيْبُ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ نَفْسِهِ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧)﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]. وَهَذِهِ آيَةٌ ثَانِيَةٌ تَدُلُّ عَلَى كُفْرِ مَنِ ادَّعَى عِلْمَ الْغَيْبِ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُعْلِنَ لِلْمَلَأِ بِقَوْلِهِ: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ﴾ [الأنعام: ٥٠]".

فَالطَّوَاغِيتُ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنِ ادَّعَى عِلْمَ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ. فَهَؤُلَاءِ رُؤُوسُ الطَّوَاغِيتِ. **"الْحُكْمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ تَنْفِيذٌ لِحُكْمِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَى رُبُوبِيَّتِهِ وَكَمَالِ مُلْكِهِ وَتَصَرُّفِهِ، وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ الْمُتبوعِينَ فِي غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ أَرْبَابًا لِمُتَّبِعِيهِمْ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**

[التوبة: ٣١]. فَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى الْمُتبوعِينَ أَرْبَابًا حَيْثُ جَعَلُوا مُشَرِّعِينَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى وَسَمَّى الْمُتَّبِعِينَ عِبَادًا حَيْثُ إِنَّهُمْ زَلُّوا لَهُمْ وَأَطَاعُوهُمْ فِي مُخَالَفَةِ حُكْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

وَقَدْ قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَمَا قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ عَدِيٌّ: "إِنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ." فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَلْ إِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ."

"إِذَا فَهِمْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ التَّحَاكُمُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَرَدَتْ فِيهِ آيَاتٌ بِنَفْيِ الْإِيمَانِ عَنْهُ وَآيَاتٌ بِكُفْرِهِ وَظُلْمِهِ وَفِسْقِهِ." فَانْتَبِهْ إِلَى هَذَا التَّأْصِيلِ وَاعْلَمْ أَنَّهُ سَبِيلُ ضَلَالٍ كَثِيرٍ مِنَ الضَّالِّينَ.

١. **"فَأَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ**

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥)﴾ [النساء: ٦٠-٦٥].

فَوصِفُ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ أُولَٰئِكَ ٱلْمُدَّعِينَ لِلْإِيمَانِ وَهُمْ مُنَافِقُونَ بِصِفَاتٍ::

- ٱلصِّفَةُ ٱلْأُولَىٰ: أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَن يَكُونَ ٱلتَّحَاكُمُ إِلَى ٱلطَّاغُوتِ وَهُوَ كُلُّ مَا خَالَفَ حُكْمَ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ وَرَسُولِهِ لِأَنَّ مَا خَالَفَ حُكْمَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهُوَ طُغْيَانٌ وَٱعْتِدَاءٌ عَلَىٰ حُكْمِ مَن لَّهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُ وَهُوَ ٱللَّهُ. قَالَ تَعَالَىٰ: {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف : ٥٤]
- ٱلصِّفَةُ ٱلثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ إِذَا دُعُواْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ صَدُّواْ وَأَعْرَضُواْ.
- ٱلصِّفَةُ ٱلثَّالِثَةُ: أَنَّهُمْ إِذَآ أُصِيبُواْ بِمُصِيبَةٍ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، وَمِنْهَآ أَن يُعْثَرَ عَلَىٰ صَنِيعِهِمْ جَاءُواْ يَحْلِفُونَ أَنَّهُم مَّآ أَرَادُوٓاْ إِلَّا ٱلْإِحْسَانَ وَٱلتَّوْفِيقَ كَحَالِ مَن يَرْفُضُ ٱلْيَوْمَ أَحْكَامَ ٱلْإِسْلَامِ وَيَحْكُمَ بِٱلْقَوَانِينِ

ٱلْمُخَالِفَةِ" وَٱلدَّسَاتِيرِ ٱلْمُؤَوَّلَةِ **"زَعْمًا مِّنْهُ أَنَّ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْإِحْسَانُ ٱلْمُوَافِقُ لِأَحْوَالِ ٱلْعَصْرِ."**

"ثُمَّ حَذَّرَ سُبْحَانَهُ هَٰؤُلَآءِ ٱلْمُدَّعِينَ لِلْإِيمَانِ ٱلْمُتَّصِفِينَ بِتِلْكَ ٱلصِّفَاتِ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ وَمَا يُكِنُّونَهُم مِّنْ أُمُورٍ تُخَالِفُ مَا يَقُولُونَ. وَأَمَرَ نَبِيَّهُ أَن يَعِظَهُمْ وَأَن يَقُولَ لَهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا. ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ ٱلْحِكْمَةَ مِن إِرْسَالِ ٱلرُّسُلِ أَن يَكُونَ هُوَ ٱلْمُطَاعُ ٱلْمَتْبُوعُ لَا غَيْرَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَهْمَا قَوِيَتْ أَفْكَارُهُمْ وَٱتَّسَعَتْ مَدَارِكُهُمْ. ثُمَّ أَقْسَمَ تَعَالَىٰ بِرُبُوبِيَّتِهِ لرَسُولِهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٱلَّتِى هِيَ أَخَصُّ أَنوَاعِ رُبُوبِيَّةٍ وَٱلَّتِي تَتَضَمَّنُ ٱلْإِشَارَةَ إِلَىٰ صِحَّةِ رِسَالَتِهِ. أَقْسَمَ بِهَا قَسَمًا مُؤَكَّدًا أَنَّهُ لَا يَصِحُّ ٱلْإِيمَانُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ، **{فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}** فَهَٰذِهِ ٱلدَّعْوَىٰ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِأُمُورٍ ثَلَاثَةٍ:

- **ٱلْأَمْرُ ٱلْأَوَّلُ أَن يَكُونَ ٱلتَّحَاكُمُ فِى كُلِّ نِزَاعٍ إِلَىٰ رَسُولِ ٱللَّهِ** {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}.
- **ٱلثَّانِي أَن تَنشَرِحَ ٱلصُّدُورُ بِحُكْمِهِ وَلَا يَكُونَ فِى ٱلنُّفُوسِ حَرَجٌ وَضِيقٌ مِّنْهُ.**
- **ٱلثَّالِثُ أَن يَحْصُلَ ٱلتَّسْلِيمُ بِقَبُولِ مَا حَكَمَ بِهِ، وَتَنفِيذِهِ بِدُونِ تَوَانٍ أَوِ ٱنحِرَافٍ.**

٢. **"وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي فَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ"** يَعْنِي ٱلْقِسْمَ ٱلثَّانِيَ فِي ٱلْحُكْمِ بِغَيْرِ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ. **"قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة : ٤٤]. وَقَوْلُهُ {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة : ٤٥]. وَقَوْلُهُ: {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [المائدة : ٤٧]. وَهَلْ هَٰذِهِ ٱلْأَوْصَافُ ٱلثَّلَاثَةُ تَتَنَزَّلُ عَلَىٰ مَوْصُوفٍ وَاحِدٍ؟ بِمَعْنَىٰ أَنَّ كُلَّ مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَهُوَ كَافِرٌ ظَالِمٌ فَاسِقٌ؟ لِأَنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ وَصَفَ ٱلْكَافِرِينَ بِٱلظُّلْمِ وَٱلْفِسْقِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ {وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة : ٢٥٤]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: {إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة : ٨٤]. فَكُلُّ كَافِرٍ ظَالِمٍ فَاسِقٍ أَو هَٰذِهِ ٱلْأَوْصَافُ تَتَنَزَّلُ عَلَىٰ مَوْصُوفِينَ بِحَسَبِ ٱلْحَامِلِ لَهُمْ عَلَىٰ عَدَمِ ٱلْحُكْمِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ؟** قَالَ الشارِح رَحِمَهُ ٱللَّهُ **"هَٰذَا هُوَ ٱلْأَقْرَبُ عِنْدِي وَٱللَّهُ أَعْلَمُ".** يَعْنِي مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَدْ يَكُونُ بِعَدَمِ حُكْمِهِ كَافِرًا، وَقَدْ يَكُونُ بِعَدَمِ حُكْمِهِ ظَالِمًا، وَقَدْ يَكُونُ بِعَدَمِ حُكْمِهِ فَاسِقًا وَلَكِنْ أَن تَجْتَمِعَ ٱلصِّفَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ فِيهِ فَهَٰذَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ نَظَرٍ وَتَقْعِيدٍ.

قَالَ ٱلْعَلَّامَةُ بْنُ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **فَنَقُولُ: "مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ٱسْتِخْفَافًا بِهِ أَوِ ٱحْتِقَارًا أَوِ ٱعْتِقَادًا أَنَّ غَيْرَهُ أَصْلَحُ مِنْهُ، وَأَنفَعُ لِلْخَلْقِ أَو مِثْلُهُ فَهُوَ كَافِرٌ كُفْرًا مُخْرِجًا عَنِ ٱلْمِلَّةِ، وَمِن هَٰؤُلَآءِ مَن**

يَضَعُونَ لِلنَّاسِ تَشْرِيعَاتٍ تُخَالِفُ ٱلتَّشْرِيعَاتِ ٱلْإِسْلَامِيَّةَ لِتَكُونَ مَنْهَجًا يَسِيرُ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَضَعُواْ تِلْكَ ٱلتَّشْرِيعَاتِ ٱلْمُخَالِفَةِ لِلشَّرِيعَةِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ إِلَّا وَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا أَصْلَحُ وَأَنفَعُ لِلْخَلْقِ، إِذْ مِنَ ٱلْمَعْلُومِ بِٱلضَّرُورَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلْجِبِلَّةِ ٱلْفِطْرِيَّةِ أَنَّ ٱلْإِنسَانَ لَا يَعْدِلُ عَن مِنْهَاجٍ إِلَىٰ مِنْهَاجٍ يُخَالِفُهُ إِلَّا وَهُوَ يَعْتَقِدُ فَضْلَ مَا عَدَلَ إِلَيْهِ وَنَقْصَ مَا عَدَلَ عَنْهُ.

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَهُوَ لَمْ يَسْتَخِفَّ بِهِ وَلَمْ يَحْتَقِرْ وَلَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّ غَيْرَهُ أَصْلَحُ مِنْهُ لِنَفْسِهِ أَو نَحْوُ ذَٰلِكَ فَهَٰذَا ظَالِمٌ وَلَيْسَ بِكَافِرٍ وَتَخْتَلِفُ مَرَاتِبُ ظُلْمِهِ بِحَسَبِ ٱلْمَحْكُومِ بِهِ وَوَسَائِلِ ٱلْحُكْمِ."

يَنبَغِي عَلَيْنَآ أَن نَّضَعَ فِى ٱعْتِبَارِنَآ أَنَّ هُنَاكَ تَفْرِيقًا بَيْنَ مَنْ أَصَّلَ ٱلْحُكْمَ فِىٓ أَوَّلِ أَسَاسِهِ يَعْنِي مَن شَرَعَ تِلْكَ ٱلتَّشْرِيعَاتِ وَجَعَلَهَا قَوَانِينَ حَاكِمَةً فِي دُنْيَا ٱللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي نِزَاعَاتِ ٱلنَّاسِ وَخِلَافَاتِهِمْ وَبَيْنَ مَن جَاءَ عَلَيْهَا وَقَدْ أُعِدَّتْ. فَفَرِّقْ بَيْنَ مَن أَصَّلَ ٱلشَّيْءَ وَدَعَا إِلَيْهِ، وَبَيْنَ مَن جَاءَ بَعْدَهُ جَاهِلًا لَا يَعْلَمُ أَصْلَ ٱلْمَسْأَلَةِ وَلَا فَصْلَهَا وَلَا حُكْمَهَا. فهٰذَا يَنبَغِي أَن يُوضَعَ فِي ٱلْاِعْتِبَارِ، وَأَن يُوضَعَ كَذَٰلِكَ جَهْلُ هَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ يَأْخُذُونَ تِلْكَ ٱلتَّشْرِيعَاتِ وَيَجْعَلُونَهَا فِي ٱلنَّاسِ جَهْلُهُم بِحُكْمِ ذَٰلِكَ وَإِثْمِهِ وَجُرْمِهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ جَاءُواْ عَلَيْهَا وَقَدْ أُعِدَّتْ وَقَدْ أُنْشِئَتْ وَصَارَتِ ٱلْأَعْرَافُ عَلَيْهَا لَا مَجَالَ لِتَغْيِيرِهَا.

قَالَ الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **"وَأَمَّا مَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَهُوَ لَمْ يَسْتَخِفَّ بِهِ وَلَمْ يَحْتَقِرْ وَلَمْ يَعْتَقِدْ أَنَّ غَيْرَهُ أَصْلَحُ مِنْهُ لِنَفْسِهِ أَو نَحْوَ ذَٰلِكَ فَهَٰذَا ظَالِمٌ وَلَيْسَ بِكَافِرٍ وَتَخْتَلِفُ مَرَاتِبُ ظُلْمِهِ بِحَسَبِ ٱلْمَحْكُومِ بِهِ وَوَسَائِلِ ٱلْحُكْمِ."**

"وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَا ٱسْتِخْفَافًا بِحُكْمِ ٱللَّهِ وَلَا ٱحْتِقَارًا وَلَا ٱعْتِقَادًا أَنَّ غَيْرَهُ أَصْلَحُ وَأَنفَعُ لِلْخَلْقِ أَو مِثْلُهُ، وَإِنَّمَا حَكَمَ بِغَيْرِهِ مُحَابَاةً لِّلْمَحْكُومِ لَهُ أَو مُرَاعَاةً لِّرِشْوَةٍ أَو غَيْرِهَا مِن عَرَضِ ٱلدُّنْيَا فَهَٰذَا فَاسِقٌ وَلَيْسَ بِكَافِرٍ وَتَخْتَلِفُ مَرَاتِبُ فِسْقِهِ بِحَسَبِ ٱلْمَحْكُومِ بِهِ وَوَسَائِلِ ٱلْحُكْمِ.

قَالَ شَيْخُ ٱلْإِسْلَامِ ٱبْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِى مَنِ ٱتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنَّهُمْ عَلَىٰ وَجْهَيْنِ:

- **أَحَدُهُمَآ: أَن يَعْلَمُواْ أَنَّهُمْ بَدَّلُواْ دِينَ ٱللَّهِ فَيَتَّبِعُونَهُمْ عَلَىٰ ٱلتَّبْدِيلِ وَيَعْتَقِدُونَ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ وَتَحْرِيمَ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ ٱتِّبَاعًا لِّرُؤَسَائِهِمْ مَّعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ خَالَفُواْ دِينَ ٱلرُّسُلِ فَهَٰذَا كُفْرٌ وَقَدْ جَعَلَهُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ شِرْكًا.**
- **ٱلثَّانِي: أَن يَكُونَ ٱعْتِقَادُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ بِتَحْلِيلِ ٱلْحَرَامِ وَتَحْرِيمِ ٱلْحَلَالِ ثَابِتًا لَّكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِى مَعْصِيَةِ ٱللَّهِ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُسْلِمُ مَا يَفْعَلُهُ مِنَ ٱلْمَعَاصِي ٱلَّتِي يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مَعَاصِي. فَهَٰؤُلَآءِ لَهُمْ حُكْمُ أَمْثَالِهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلذُّنُوبِ. وَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ ٱلْمَسَائِلِ ٱلَّتِي تُعْتَبَرُ تَشْرِيعًا عَامًّا،**

وَٱلْمَسْأَلَةِ بِعَيْنِهَا ٱلَّتِي يَحْكُمُ فِيهَا ٱلْقَاضِي بِغَيْرِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ؛ لِأَنَّ ٱلْمَسَائِلَ ٱلَّتِي تُعْتَبَرُ تَشْرِيعًا عَامًّا لَا يَتَأَتَّىٰ فِيهَا ٱلتَّقْسِيمُ ٱلسَّابِقُ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْأَوَّلِ فَقَطْ؛ لِأَنَّ هَٰذَا ٱلْمُشَرِّعَ تَشْرِيعًا يُخَالِفُ ٱلْإِسْلَامَ إِنَّمَا شَرَّعَهُ لِٱعْتِقَادِهِ أَنَّهُ أَصْلَحُ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ وَأَنفَعُ لِلْعِبَادِ كَمَا سَبَقَتِ ٱلْإِشَارَةُ.

وَهَٰذِهِ ٱلْمَسْأَلَةُ أَعْنِي مَسْأَلَةَ ٱلْحُكْمِ بِغَيْرِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمَسَائِلِ ٱلْكُبْرَىٰ ٱلَّتِي ٱبْتُلِيَ بِهَا حُكَّامُ هَٰذَا ٱلزَّمَانِ فَعَلَى ٱلْمَرْءِ أَن لَّا يَتَسَرَّعَ فِي ٱلْحُكْمِ عَلَيْهِم بِمَا لَا يَسْتَحِقُّونَه حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُ ٱلْحَقُّ؛ لِأَنَّ ٱلْمَسْأَلَةَ خَطِيرَةٌ. نَسْأَلُ ٱللَّهَ تَعَالَىٰٓ أَن يُصْلِحَ لِلْمُسْلِمِينَ وُلَاةَ أُمُورِهِمْ وَبِطَانَتَهُمْ. كَمَآ أَنَّ عَلَى ٱلْمَرْءِ ٱلَّذِيٓ آتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْعِلْمَ أَن يُبَيِّنَهُ لِهَٰٓؤُلَآءِ ٱلْحُكَّامِ لِتَقُومَ ٱلْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ وَتَتَبَيَّنَ ٱلْمَحَجَّةُ فَيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ، وَلَا يَحْقِرَنَّ ٱمْرُؤٌ نَّفْسَهُ عَنِ ٱلْبَيَانِ وَلَا يَهَابَنَّ أَحَدًا فِيهِ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ". هَٰذَا ٱلْأَمْرُ مُنْزَلَقٌ خَطِيرٌ وَمَا وَقَعَتِ ٱلْفِرَقُ وَٱلْجَمَاعَاتُ فِيمَا وَقَعَتْ فِيهِ مِنَ ٱلْخُرُوجِ عَلَىٰ حُكَّامِ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَّا لِحَمْلِهِمْ هَٰذِهِ ٱلْآيَاتِ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [المائدة : ٤٤].

وَقَوْلُهُ {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة : ٤٥].

وَقَوْلُهُ {وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [المائدة : ٤٧].

فَحَمَلُواْ ذَٰلِكَ كُلَّهُ عَلَى ٱلْكُفْرِ ٱلْمُخْرِجِ مِنَ ٱلْمِلَّةِ وَهَٰذَآ أَمْرٌ لَّا يَتَسَنَّىٰ لِطَالِبِ

عِلْمٍ وَلَا لِفَقِيهٍ وَلَا دَاعٍ إِلَى ٱللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَن يَتَكَلَّمَ فِيهِ، فَأُمُورُ ٱلتَّكْفِيرِ تُرَدُّ إِلَىٰ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ ٱلْكِبَارِ ٱلَّذِينَ يَضَعُونَ ٱلْفَاعِلَ تَحْتَ ٱلشُّرُوطِ وَٱلْمَوَانِعِ، حَتَّىٰ تَتَوَافَرَ فِيهِ شُرُوطُ ٱلتَّكْفِيرِ وَتَنتَفِي عَنْهُ مَوَانِعَهُ. وَأَمَّا مَا يَحْدُثُ مِن أُولَٰئِكَ ٱلشَّبِيبَةِ ٱلَّذِينَ وَيَتَجَرَّؤُونَ عَلَىٰ دِينِ ٱللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَيَتَجَرَّؤُونَ عَلَىٰ تَكْفِيرِ ٱلْمُسْلِمِ وَهُمْ إِذَا كَفَّرُواْ ٱلْمُسْلِمَ أَخْرَجُوهُ مِنَ ٱلْمِلَّةِ، وَلَمْ يَجْعَلُوهُ مِن أَهْلِ ٱلْقِبْلَةِ، بَلْ حَرَّمُواْ عَلَيْهِ مَرْأَتَهُ، وَأَبَاحُواْ دَمَهُ، وَٱسْتَحَلُّواْ مَالَهُ وَمَنَعُواْ ٱلصَّلَاةَ عَلَيْهِ، وَمَنَعُواْ أَن يُغْسَلَ وَأَن يُكَفَّنَ وَأَن يُدْفَنَ فِي مَقَابِرِ ٱلْمُسْلِمِينَ، بَلْ مَنَعُواْ ٱلْوَارِثَ أَن يَرِثَهُ لِأَنَّ ٱلْكُفْرَ أَمْرُهُ شَدِيدٌ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ.

فَيَنبَغِي عَلَىٰ مَن أَرَادَ أَن يَتَكَلَّمَ فِي هَٰذَا ٱلْأَمْرِ أَن يَرْجِعَ إِلَىٰ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ، وَأَن يَرْجِعَ إِلَىٰ عُلَمَائِنَا عَلَيْهِمُ ٱلرَّحْمَةُ فَهُمُ ٱلَّذِينَ أَقَامَهُمُ ٱللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ دِينِ ٱللَّهِ حِيَاطَةً وَرِعَايَةً، وَأَقَامَهُمُ ٱللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ دِينِ ٱللَّهِ تَأْصِيلًا وَتَفْصِيلًا، وَأَقَامَهُمُ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ عَلَىٰ دِينِ ٱللَّهِ بَيَانًا.

فَيَنبَغِي عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ أَن يَسْكُتُواْ، وَأَن لَّا يَتَكَلَّمُواْ فِي دِينِ ٱللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ فِي دِينِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِّن أَكْبَرِ ٱلْكَبَائِرِ.

"ٱلدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ" أَيْ عَلَىٰ مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِن بَيَانِ ٱلطَّوَاغِيتِ **"قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا} [البقرة: ٢٥٦]. وَهَٰذَا مَعْنَىٰ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ.**

وَفِي ٱلْحَدِيثِ: "رَأْسُ ٱلْأَمْرِ ٱلْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ ٱلصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ ٱلْجِهَادُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ."

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: **{لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ}** أَيْ **لَآ إِكْرَاهَ عَلَى ٱلدِّينِ لِظُهُورِ أَدِلَّتِهِ وَبَيَانِهَا وَوُضُوحِهَا، وَلِهَٰذَا قَالَ بَعْدَهُ: {قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ}. فَإِذَا تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَإِنَّ كُلَّ نَفْسٍ سَلِيمَةٍ لَّابُدَّ أَن تَخْتَارَ ٱلرُّشْدَ عَلَى ٱلْغَىِّ.**

وَبَدَأَ ٱللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِبَيَانِ أَنَّ ٱلدِّينَ يَقُومُ عَلَى ٱلْكُفْرِ بِٱلطَّاغُوتِ وَٱلْإِيمَانِ بِٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ. **"فَبَدَأَ ٱللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِٱلْكُفْرِ بِٱلطَّاغُوتِ قَبْلَ ٱلْإِيمَانِ بِٱللَّهِ؛ لِأَنَّ مِن كَمَالِ ٱلشَّيْءِ إِزَالَةَ ٱلْمَوَانِعِ قَبْلَ وُجُودِ ٱلثَّوَابِتِ. وَلِهَٰذَا يُقَالُ: "ٱلتَّخْلِيَةُ قَبْلَ ٱلتَّحْلِيَةِ".** مَن أَرَادَ أَن يَبْنِيَ بِنَاءً عَلَىٰ أَرْضٍ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَن يُسَطِّحَ هَٰذِهِ ٱلْأَرْضَ وَأَن يُسَوِّيَهَا وَأَن يُمَهِّدَهَا وَأَن يُزِيلَ مَا عَلَيْهَا مِن أَكْوَامٍ مِّنَ ٱلتُّرَابِ وَأَحْجَارٍ حَتَّىٰ يَسْتَطِيعَ أَن يُقِيمَ ٱلْبِنَاءَ عَلَىٰ أَرْضٍ مُّسْتَقِرَّةٍ ثَابِتَةٍ.

فَٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ يُبَيِّنُ أَنَّ حَقِيقَةَ ٱلدِّينِ أَن يُخْرِجَ ٱلْمُسْلِمُ كُلَّ مَعْبُودٍ مِّن قَلْبِهِ مِن تِلْكَ ٱلْمَعْبُودَاتِ ٱلْبَاطِلَةِ، وَلَا يَجْعَلَ فِي قَلْبِهِ إِلَّا عِبَادَةَ رَبِّ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَاوَاتِ، **{فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا}** وَهَٰذَا مَعْنَىٰ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ. لِذَا يَقُولُ عُلَمَآؤُنَا عَلَيْهِمُ ٱلرَّحْمَةُ: "ٱلتَّخْلِيَةُ قَبْلَ ٱلتَّحْلِيَةِ". ٱلَّذِي يُرِيدُ أَن يَأْكُلَ طَعَامًا فَإِنَّهُ لَا يَضَعُ طَعَامَهُ فِيَ إِنَاءٍ مُّتَّسِخٍ، وَإِنَّمَا يَقُومُ بِتَنظِيفِ ٱلْأَوْعِيَةِ أَوَّلًا قَبْلَ أَن يَضَعَ فِيهَا ٱلطَّعَامَ؛ لِأَنَّهُ إِن وَضَعَ طَعَامَهُ فِيَ إِنَاءٍ مُّتَّسِخٍ فَقَدْ أَفْسَدَهُ. فَلَا تَقْبَلُ ٱلنَّفْسُ أَن

تَأْكُلَ ذَٰلِكَ ٱلطَّعَامَ ٱلطَّيِّبَ ٱلَّذِي وُضِعَ فِيَ إِنَاءٍ مُّتَّسِخٍ، وَكَذَٰلِكَ تَوْحِيدُ ٱللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَا يَقْبَلُ أَن يَكُونَ فِي قَلْبٍ فِيهِ شِرْكٌ شِرْكٌ لِّلَّهِ، لَا يَقْبَلُ أَن يَكُونَ مَعَ مَن يَعْبُدُ غَيْرَ ٱللَّهِ مِن إِبْلِيسٍ مَّلْعُونٍ، أَو مَّن دَعَا إِلَىٰ عِبَادَةِ نَفْسِهِ، أَو مَّن عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، أَو مَّن حَكَمَ بِغَيْرِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ.

قَالَ الشارِحُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أَرَادَ ٱلْمُؤَلِّفُ أَن يَسْتَدِلَّ بِهَٰذِهِ ٱلْآيَةِ بَيَانًا عَلَىٰ أُصُولِ هَٰذَا ٱلدِّينِ أَنَّ ٱلدِّينَ يَكُونُ بِٱلْكُفْرِ بِٱلطَّوَاغِيتِ قَبْلَ ٱلْإِيمَانِ بِٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ لِأَنَّ مِن كَمَالِ ٱلشَّيْءِ إِزَالَةَ ٱلْمَوَانِعِ قَبْلَ وُجُودِ ٱلثَّوَابِتِ وَلِهَٰذَا يُقَالُ "ٱلتَّخْلِيَةُ قَبْلَ ٱلتَّحْلِيَةِ".

مَن فَعَلَ ذَٰلِكَ {فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ} **أَيْ تَمَسَّكَ بِهَٰذَا ٱلدِّينِ تَمَسُّكًا تَامًّا وَٱلْعُرْوَةُ ٱلْوُثْقَىٰ هِيَ ٱلْإِسْلَامُ، وَتَأَمَّلْ كَيْفَ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدِ{فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ} وَلَمْ يَقُلْ (تَمَسَّكْ)؛ لِأَنَّ ٱلْإِسْتِمْسَاكَ أَقْوَىٰ مِنَ ٱلتَّمَسُّكِ فَإِنَّ ٱلْإِنسَانَ قَدْ يَتَمَسَّكُ وَلَا يَسْتَمْسِكُ"** قَدْ تُمسِكَ ٱلشَّيْءَ وَيَأْتِي آتٍ فَيَأْخُذُهُ مِنكَ بِسُهُولَةٍ وَلَكِنْ حِينَ تَسْتَمْسِكُ بِهِ وَتَعَضُّ عَلَيْهِ، وَتَقْبِضُ عَلَيْهِ يَصْعُبُ عَلَىٰ أَحَدٍ أَن يَنزِعَهُ مِنكَ.

ثُمَّ ٱسْتَدَلَّ ٱلْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ٱلَّذِي رَوَاهُ ٱلْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَٱلتِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ وَٱبْنُ مَاجَهْ وَهُوَ حَدِيثُ ٱلنَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:**"رَأْسُ ٱلْأَمْرِ ٱلْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ ٱلصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ ٱلْجِهَادُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ." أَرَادَ ٱلْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِٱسْتِدْلَالِ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ عَلَىٰ أَنَّ لِكُلِّ**

شَيْءٍ رَأْسَهُ فَرَأْسُ ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ ٱلْإِسْلَامُ" لِأَنَّهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِرَأْسٍ فَرَأْسُ هَٰذَا ٱلدِّينِ هُوَ ٱلْإِسْلَامُ: ٱلْخُضُوعُ وَٱلْإِذْعَانُ وَٱلِانْقِيَادُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وَعَمُودُهُ ٱلَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ هِيَ ٱلصَّلَاةُ **"لِأَنَّهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِهَا."** لِهَٰذَا كَانَ ٱلْقَوْلُ ٱلرَّاجِحُ مِن قَوْلِ عُلَمَائِنَا عَلَيْهِمُ ٱلرَّحْمَةُ أَنَّ مَن تَرَكَ ٱلصَّلَاةَ جُحُودًا وَإِنْكَارًا فَقَدْ كَفَرَ وَقَالُواْ كَذَٰلِكَ مَن تَرَكَهَا تَهَاوُنًا فَقَدْ كَفَرَ وَٱلْمَسْأَلَةُ فِي تَرْكِ مَن تَرَكَ ٱلصَّلَاةَ تَهَاوُنًا مَحَلُّ نَظَرٍ بَيْنَ عُلَمَائِنَا عَلَيْهِمُ ٱلرَّحْمَةُ.

"وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ ٱلْجِهَادُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ" أَيْ أَعْلَاوُهُ وَأَكْمَلُهُ **ٱلْجِهَادُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَذَٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنسَانَ إِذَا أَصْلَحَ نَفْسَهُ فَإِنَّهُ يَسْعَىٰ إِلَىٰ إِصْلَاحِ غَيْرِهِ بِٱلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لِيَقُومَ ٱلْإِسْلَامُ، وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا، فَمَن قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ، وَصَارَ ذِرْوَةَ سَنَامِ ٱلْإِسْلَامِ لِأَنَّهُ بِهِ عُلُوُّ ٱلْإِسْلَامِ عَلَىٰ غَيْرِهِ."** وَٱلْجِهَادُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَكُونُ بِٱلْكَلِمَةِ وَيَكُونُ بِٱلْبَذْلِ وَٱلْعَطَاءِ وَيَكُونُ بِبَذْلِ ٱلنَّفْسِ حِيَاضًا ذَبًّا عَن حِيَاضِ دِينِ ٱللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَمَا قَالَ عُلَمَآؤُنَا عَلَيْهِمُ ٱلرَّحْمَةُ: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ} [العنكبوت : ٦٩] أَيْ ٱلَّذِينَ جَاهَدُواْ فِي هَٰذَا ٱلدِّينِ بِأَنفُسِهِمْ وَبِأَمْوَالِهِمْ وَبِأَوْقَاتِهِمْ وَبِبَذْلِهِمْ وَبِجِلَادِهِمْ هؤلاء هم أَصْحَابُ ٱلْهِدَايَةِ ٱلَّذِينَ يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إِلَى ٱلْحَقِّ؛ لِأَنَّ ٱلْجَزَاءَ مِن جِنسِ ٱلْعَمَلِ فَمَن

أَحْسَنَ أُحْسِنَ إِلَيْهِ وَمَن بَذَلَ بُذِلَ إِلَيْهِ وَمَن أَنفَقَ أُنفِقَ عَلَيْهِ فَٱلْجَزَاءُ مِن جِنسِ ٱلْعَمَلِ.

ثُمَّ قَالَ ٱلْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بَعْدَ أَن ذَكَرَ ذَٰلِكَ قَالَ: **"وَٱللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى ٱللَّهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ." خَتَمَ شَيْخُ ٱلْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْوَهَّابِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ رِسَالَتَهُ هَٰذِهِ بِرَدِّ ٱلْعِلْمِ إِلَى ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبِٱلصَّلَاةِ وَٱلسَّلَامِ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"** وَبِقَوْلِهِ هَٰذَا فَقَدْ أَنْهَىٰ هَٰذِهِ ٱلرِّسَالَةَ ٱلْعَظِيمَةَ رِسَالَةَ ٱلْأُصُولِ ٱلثَّلَاثَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا، وَهَٰذِهِ ٱلرِّسَالَةُ مَآ أَحْوَجَ كُلَّ مُسْلِمٍ إِلَىٰ أَن يَنظُرَ فِيهَا قِرَاءَةً، وَتَفَحُّصًا، وَتَعَلُّمًا مِّن أَجْلِ أَن يَعْرِفَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ تُجَاهَ رَبِّهِ، وَتُجَاهَ دِينِهِ، وَتُجَاهَ نَبِيِّهِ، فَهِيَ أُصُولٌ يُقَامُ عَلَيْهَا هَٰذَا ٱلدِّينُ.

وَٱللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مَآ أَرْسَلَ ٱلرُّسُلَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ، إِلَّا مُعَلِّمِينَ، إِلَّا مُبَيِّنِينَ، وَمَا لَا يَتِمُّ ٱلْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ.

فنَسْأَلُ ٱللَّهَ تَعَالَىٰٓ أَن يُثِيبَ مُؤَلِّفَهَآ أَحْسَنَ ثَوَابٍ، وَأَن يَجْعَلَ لِشَارِحِهَا نَصِيبًا مِّنَ ٱلْأَجْرِ وَٱلْفَضْلِ وَٱلثَّوَابِ، وَأَن يَجْمَعَنَا بِٱلْمُصَنِّفِ وَبِٱلشَّارِحِينَ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ إِنَّهُ جَوَّادٌ كَرِيمٌ. وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ وَصَلَّى ٱللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وَآخِرُ دَعْوَانَآ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ.